أغرب القضايا

تأليف

بهاء الدين أبو شقة

مكتبة جزيرة الورد

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة

المحامي بالنقض



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : **أغرب القضايا**

المؤلف : بهاء الدين أبو شقة

رقم الإيداع : ٢٠٩٤٩/ ٢٠١٧

ترقيم دولي : ٣-٠٢٧-٨٣٤-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٧



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة
المحامي بالنقض

المقدمة

من خلال خبرة قانونية امتدت لعدة عقود من الزمن جاءت محصلة هـذه السطور بين دفتى هذا الكتاب «أغرب القضايا»، ومن خلال ملاصـقة وثيقـة للقضايا التى حواها الكتاب، تكشفت حقائق مذهلـة قـد تكـون أغـرب مـن الخيال، يقبلها العقل بصعوبة بالغة، لكنها فى حقيقة الأمر واقـع حـى معـاش حدث داخل المجتمع المصرى.

وقائع هذا الكتاب ليست درباً من الخيـال ولا فكـراً مجـرداً لمبـدع، ولا صورة خيالية لفنان عن الواقع، وإنما هى تجربة إنسانية صـادقة وعميقـة مـن داخل المحاكم المصرية خلال سنوات طويلة من الزمن.

وأجزم أن هذا الكتاب هو وقائع وأحـداث حقيقيـة شـهدتها محـاكم مصـر المختلفة، وهو ثمرة جهـد طويـل فى التعامـل مـع القضـايا فى النيابـة العامـة أو كقاضٍ فى منظومة العدالة أو كمدافع فى مجال المحاماة، ولـذلك فـإن القضـايا التى تم طرحها فيه، تعد بمثابة وقائع حقيقية شهدتها محاكم مصر رغـم الغرابـة الشديدة فيها، والتى تجعلها تدخل فى إطار أغرب من الخيال والتصور.

والعاملون فى منظومة العدالة سواء كانـت النيابـة أو السـلك القضـائى أو مجال المحاماة يعنيهم بالدرجة الأولى الوصول إلى الحقيقة، حيث إن الأصل فى الإنسان البراءة وأنه برىء حتى تثبت إدانته، ومن خلال المعايشة الحقيقية فى كل هذه المجالات جاءت ثمـرة هـذا الكتـاب، فالقاضـى أو المحقـق أو المدافع تشغله قضية الوصول إلى الحقيقة، والتى قد تأتى أغرب مـن الخيـال كما حوت قضايا هذا الكتـاب.. وبالتـالى فـإن الرسـالة التـى يقـدمها كتـاب

«أغرب القضايا»، أنه لابد من البحث والتدقيق والتمحيص وتحليل كل كلمة ولفظ، ولما كان القانون ـ كما يقول الرومان ـ هو علم العلوم، فإنه يجب الغوص فى بطون أخرى من المعرفة واللغة والدين والتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس والمنطق، من أجل الوصول إلى الحقيقة المنشودة.

وليست المسألة كما يزعم بعض من يجهل دور المحقق أو القاضى أو المحامى فى الكشف عن الحقيقة، وليست كما يظن البعض أن دور المحامى عندما يحصل على البراءة ثمرة حيل، بل الأمر أعمق من ذلك، إذ إن الدليل الجنائى لغز بمجرد فك طلاسمه أصبح سهلاً، ويحار الناس من أمرهم كيف كان أمام أعينهم، ولم يفطنوا إليه.. وهذا هو الدور الحقيقى الذى يلزم أن يتحلى به من يعمل فى الحقل الجنائى وعلى وجه الخصوص المحامى الجنائى، وليس كما يزعم البعض أن هناك حيلاً يستخدمها المحامون فى الحصول على البراءة ولكن الأمر برمته يتعلق بالدليل الجنائى وهذه هى مهمة المحقق الجيد والمحامى الجيد اللذين يملكان المفتاح الحقيقى لكشف اللغز الجنائى.

على أية حال، هذا الكتاب هو رسالة لجميع العاملين فى الحقل الجنائى، تعرض تجربة سنوات طويلة فى مجال البحث عن الحقيقة من خلال معايشته للقضايا سواء كمحقق فى النيابة العامة أو قاض يفصل فى القضايا أو كمدافع فى مجال المحاماة.

وعلى الله قصد السبيل لا نبتغى منه أجراً وإنما هدايتنا فى ذلك وقصدنا قول الله تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.. وخير ما يمكث هو علم أو معرفة ينتفع بها. والله ولى التوفيق.. وإلى اللقاء مع الجزء الثانى إن شاء الله.

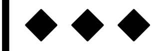
بهاء الدين أبوشقة

المهندسين ـ سبتمبر ٢٠١٧

بهاء الدين أبو شقة
المحامي بالنقض

القضية الأولى

اديني عمر وارميني في البحر



■ ■ ادينى عمر.. وارمينى فى البحر

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساء في شهر يناير - قلب الشتاء - شديد البرودة، وأنا أجلس فى مكتبى أعانى من إرهاق يوم طويل.. بدأته صباحًا بالدفاع فى قضية كبرى.. وفى منتصفه قرأت قضية مهمة لليوم التالى.

وفى المساء قابلت الموكلين، ولم يكن فى ذهنى مكان لاستيعاب شيء آخر، وقد أشرت لمدير المكتب بالتأهب للعودة لمنزلى استعدادًا ليوم قادم جديد، وحين هممت بذلك دخل مدير المكتب وأفضى إلىَّ أنَّ سيدة عجوزًا يستبد بها الأسى ويكسو ملامح وجهها حزن دفين والدموع تنساب من عينيها ونظراتها القلقة الحائرة توحى بأنَّها تعانى من كارثة كبرى وأنها تصرُّ على مقابلتى ولن تنصرف من المكتب قبل هذا اللقاء، وطلبت منه أن يستمهلها لليوم التالى نظرًا لانتهاء مواعيد المكتب فأجاب بأنَّه حاول معها جاهدًا أن يعرف علّة هذا الإصرار والانتظار لباكر إلا أنَّها رفضت وازدادت إصرارًا



ونحيبًا وعويلاً على اللقاء وإزاء ذلك استجبت مضطرًا رغم آلام الصداع التى كانت تملأ رأسى.

دخلت حانية باكية مرتجفة الوجه واليدين، وأجهشت بالبكاء وازداد نحيبها وأنا أحاول جاهدًا أن أستوقفها لمعرفة مشكلتها التى من أجلها.. أصرت على اللقاء وما الظروف التي أوصلتها إلى تلك الحالة من اليأس والقنوط التي كانت بادية على ملامحها وواضحة من تصرفاتها التي اتسمت بالتلقائية دون تصنع أو تمثيل.

وبعد أن هدأت من روعها قالت لى وهى مازالت تنتحب والدموع تنهار من عينيها كأنَّها المطر الغزير «أنا أتوسل إليك أن تترافع عن ابن ابنى.. بس أنا ممعيش فلوس.. وجيت أستجير بك.. إنك تقف معاه وتسانده لوجه الله.. لأنَّه كل شىء في حياتى.. وإذا حصله حاجة حياتى حتنتهى».. وقالت بتلقائية: «ربنا يحافظ عليك ويسترك دنيا وآخرة» ودى الأتعاب اللى ممكن أقدمهالك وإن رفضت أنا مش حا أروح لحد تانى.. المحامى بتاعى هو ربنا وهو اللى يتولاه ويتولانى».

كان وقع كلمات تلك السيدة على نفسى عميقًا ومؤثرًا ومسَّ شغاف قلبى وصممت بينى وبين نفسى أن أواصل معها المسيرة حتى النهاية ابتغاء وجه الله الذى جعلته سندًا لها وطرقت باب مكتبى وأملها في نصرته كبير، وسألتها قبل أن أوافق أو أرفض: قولى لى إيه الحكاية بالضبط وعلى نحو تفصيلى في هدوء ودون انفعال بعد أن أحضر لها ساعى المكتب كوبًا من الليمون

أحسست وهى ترتشف الليمون أن السكينة والأمل بدأ ينعكس على قسـمات وجهها ونبرات صوتها.. وزاد لديَّ هذا الإحساس وأنا أواصل تهدئتها أنك ما دمت قـد وجهـت وجهـك نحـو الله وجعلتـه سـندًا لـك فإنَّـه سـيقف معنـا وسيساعدنا ويلهمنا طريق الصواب.. بثت هذه الكلمات روح الأمل وبددت جزءًا من اليأس الذى كان باديًا عليها عنـد رؤيتـى لهـا للمـرة الأولى وبـدأت تسرد أحداث مأساتها وتستعرضها في تسلسل منظم وكأنَّهـا تعـرض أحـداث فيلم سينمائى واستطردت قائلة:

فى طفولته فقد أبويه فى حادث سيارة وكان عمره ثلاث سنوات، ولم يعد له فى الحياة غيرى، أنا جدته لأبيه، فرأيت فيه عوضًـا عـن ابنـى الـذى اختطفـه الموت وهو فى ريعان شبابه.. وصممت في إصرار أن يكـون كـل حيـاتى وأن أكون له كل شىء في حياته وأعوِّضه عن حنان الأم وشفقة الأب اللذين حرمه القدر منهما وهو مازال طفلاً يبدأ أولى خطواته المرتجفة على طريق الحياة.

وتمضى أيام العمر بالطفل اليتيم وأنا لا أدخر وسـعًا في مراعاتـه، كـان لا يغرب لحظة عن بصرى، لم أدخر وسعًا ولم أتوان لحظة في تلبية رغباته وإجابة مطالبه حتى لا يحس بأنَّ شـيئًا ينقصـه عـن أقرانـه، وبـذلت كـل جهـدى في إسعاده وأن أنسيه ما كتبه عليه القدر من فقد أبويه في طفولته المبكرة.

كم حبست دموعى فى صمت وهو يسألنى فى براءة الأطفال قائلاً: فين بابا وماما يا جدتى: كل العيال لهم أب وأم وأنا ملياش؟

كانت تلك الأسئلة التي لا أملك الشجاعة في الإجابة عنها بمثابة المشرط الذى ينهش فى جسدى ويعذبنى ويؤرق نومى.

كنت أكبت دموعى حتى لا يلحظها وأتظاهر بالقوة وأنا أكذب عليه في ألم يعصرنى وأقول له – إنهما سافرا إلى مكان بعيد! كم من مرة سألته – بتسأل ليه يا حبيبى.. هو انت نقصاك حاجة؟

ولكننى كنت أرى الحيرة لا تفارق عينيه مرتسمة على وجهه الذى يكسوه الحزن مستبدة به وتؤرقه حتى عرف الحقيقة التى حاولت إخفاءها عنه.. وقد تسرَّبت إلى أعماقه منذ تلك اللحظة عقدة الحرمان من حب الأب وحنان الأم.

وكان لابد لعجلة الحياة أن تستمر في الدوران، فهى لا تتوقف لموت إنسان ومع مرور الأعوام تعمَّق فى إحساسه أننى كل أسرته، أنا الذى أدخلته المدرسة، ودفعته بإصرار إلى الاستمرار فى دراسته.. لم أبخل عليه بشئ.. كنت أعمل أجيرة فى الحقول وأبيع الخضار وأقتر على نفسى وأحرمها من كل ملذات الحياة كى أوفر له مصاريف الدراسة ولوازمها حتى لا يحس بنقص وسط أقرانه، واجتاز مراحل التعليم بتفوق حتى انتهى من دراسته الثانوية وحصل على مجموع كبير.

كان إصرارى يفوق كل إمكانياتى، ومع ذلك استعنت بالله فما لى من سند سواه واتكال إلا عليه فى أن يمنحنى من القوة والاحتمال حتى يكمل دراسته

فى الجامعة ويتخرج طبيبًا.

كانت تلك هى أمنية حياته وأمنية حياتى أيضًا التي دعوت الله مـرارًا في أن يستجيب لى ويحققها..

جاء من الريف فتى يمتلئ شبابًا وقوة وفتوة نتـاج الأرض الطيبـة.. سـقاه ماؤها.. وامتزج بترابها فسارت فى دمائه حرارتها وفى تكوينه صـلابتها يحمـل في داخله القيم والمثل والمبـادئ التـي كنـت حريصـة، أشـد الحـرص عـلى غرسها في أعماقه منذ طفولته.

والتحق بكلية الطب، فقد كان مجموعه كبيرًا، لم يجـد عنـاء فى أن يحقـق بداية حلمه الجميل فى أن يصبح طبيبًا.

ولكن الإقامة والمال الذى ينفـق منـه عـلى مأكلـه وملبسـه ومسـتلزمات دراسته وقفا حجر عثرة فى سبيل مستقبله.. فـأين يجـد لـه مكانـا فى المدينـة المزدحمة بالملايين؟ ومن أين له بالمال الذى يوفر له الاستقرار والاسـتمرار وهو اليتيم ابن الفلاح المعدم الفقير الذى تركه فى رعاية جدتـه ورحـل وهـو مازال طفلاً لم يتجاوز الثالثة من عمره وجدَّته التى تلمح فى عينيهـا الإصـرار، وفى ملامحها القوة رغم هزال جسدها وتقدم السن بهـا، وهـى تصـر عـلى أن يذهب إلى الجامعة لا ينسى كلماتهـا وهـى تودعـه: اتكـل عـلى الله.. ورزقـى ورزقك على الله.

كان هدفه الأول إصراره وعزمه أن يحقق لها حلم حياتها أن تـراه طبيبًـا..

إنها مازالت تعمل أجيرة فى الحقول رغـم انحنـاءة ظهرهـا، وتبيـع الخضـار، وتحرم نفسها من كل ضروريات الحياة حتى يكمل تعليمه.. ودفعـت بـه إلى شقيقها الذى يعمل بوابًا لعمارة كبيرة بالقرب من الجامعة بالجيزة.

واستطاع أن يجد له غرفة فوق سطح العمارة التى يعمل بها.. وبدأ الفتـى حياته الجديدة، وقد أغلق أذنيه عـن ضوضـاء المدينـة وأغمـض عينيـه عـن أسرارها ومفاتنها وإغراءاتها وهو فى بداية الطريق مشروع طبيب صغير يحلـم بمستقبل كبير يعوّض به حياة الشقاء والحرمان والمعاناة التى عاشها بجانـب جدته وهى تشقى لتوفّر القروش التى تحقق له أمله فى الحياة.

والتقى بها سيدة جميلة ومثيرة وثرية تسكن شقة فاخرة تطـل عـلى النيـل فى العمارة التى يقف شقيقها على أبوابها.. ووقفت أمامه ورمقته بنظرة طويلة من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه.. وأطالت النظـرة فتـرة بعـد أن فحصـته جيـدًا وسألت البواب – يبقى مين الأمور ده؟

ويرد الرجل باستحياء وخجل: خدامك يا ست.. ده ولـد بلـدياتى.. جـه من البلد ودخل الطب.. أصله فقير ويتيم وعاوز يطلع دكتور.

ويستمر فى حديثه إلى الهانم وهو يدور حول سيارتها الفارهة ليزيل ما علق بها من أتربة.. وقدرنى ربنا.. ووفرت له أوضة فوق السطوح.

وقالت له وهى تدير مفتاح سيارتها وعيناهـا مازالـت عـلى الفتـى الريفـى وتضع فى يد البواب مبلغًا من المال.. والنبى ياسـيد ابقـى ابعتـوا لى فى وقـت

فراغه علشان يقيس لى الضغط.

ويرد البواب العجوز – أنا وهو تحت أمرك يا هانم.

ولم تنقطع نظراتها الفاحصة عنه إلا وهى تنطلق بسيارتها وتختفى من أمامه بينما صورتها لا تفارق خياله البكر، ونظرتها تلعب بنبضات قلبه الخالى الذى زادت دقاته وتعالت خفقاته.. منذ تلك اللحظة التى التقت عيناه بعينيها.. عطرها النفَّاذ أصاب رأسه بالدوار وأنوثتها سحرت عينيه واستقرت في أعماق وجدانه الخالى.

وصعد إلى حجرته يحاور نفسه.. لماذا وجهت سهام عينيها وركزت نظراتها عليه؟ لماذا ضغطت على يديه وهى تطلب منه أن يصعد إليها.

لم ينم ليلتها.. جمالها المثير وفتنتها الطاغية أسرت قلبه البكر الذى لم يخفق بحب امرأة وعينيه التي لم تقع على مثل هذه الأنوثة المتدفقة والجمال الفيَّاض.

لقد عاش طفولته وصباه بعيدًا عن عالم النساء.. يتذوَّق الجمال تخيلاً ولكن يده القصيرة عاجزة عن أن تلمسه.. وكان يستعين بالدعاء فى صلواته من الفتنة.. ويستعيذ ويتخيَّل صورة جدته العجوز التى تشقى من أجل تحقيق هدفها وما ترجوه في حياتها من أن تراه طبيبًا ناجحًا وكأنه في تخيَّله يناجيها ويحاورها ويرد عليها بأنَّه لن يخيب رجاءها وسيكون عند حسن ظنها به.

ولم يطـل انتظـاره.. لاحقتـه وسـعت إليـه.. دعتـه إلى شـقتها الفـاخرة واستحوذت عليه وامتلكته بسهولة ويسر.. سـاقته إلى مخـدعها ترتـوى مـن فورة شبابه وفحولته ورجولته.

أغرقته فى بئرها التى لا تنضب من أفانين الإغراء.. اشـترت لـه الملابـس الغالية وأذاقته الأطعمة الشهية الدسـمة التـى عـاش محرومًـا مـن تـذوّقها.. أذاقته الفاكهة المحرمة.. وكانت قد مضت عـلى الفتـى الريفـى شـهور وهـو غارق فى عسلها.. فلم يذهب إلى الجامعة ولم يفتح كتابًا.

حوَّلته مـن طالـب جـامعى إلى عبـد لإشـباع نزواتهـا.. وبـات مسـحورًا بجمالها مبهورًا بفتنتها وقد ملأ حبه لها عليه حياته.

هكذا اعتقد الشاب الريفى المجرد من الخبرة أنَّه يحبها وهو لا يـدرى أنَّ هناك خيطًا رفيعًا بين الحب والنزوة.. كانت نزوة فى حياتـه بكـل المقـاييس، أغلقت فكره وأسدلت غشاوة على عينيه فحالت بينه وبـين المبـادئ والمثـل والقيم التي غرستها جدته في نفسه منذ أن فتح عينيه على الحياة..

ولكن السعادة لم تستمر!

فوجئ بأنَّها تتحوّل عنه.. لم تعد تلاحقه.. زهدتـه.. صـدّته.. طردتـه مـن عالمها.. أخرجتـه مـن جنتهـا أفهمتـه –فى البدايـة– أن أحـد الرجـال تقـدّم لخطبتها وأنها ستتزوج منه وعليه أن يبتعد عنها.

وساقه خياله الهزيل وفكره السقيم إلى أن يعرض عليها الزواج.

قابلت عرضه بالسخرية والاستهزاء.. وأعلنت له بصراحة وبلا مواربة، بل بمنتهى البجاحة أنَّها طردته من عالمها وأن عليه أن ينسى الماضى ويطوى صفحته ويقبر ما كان بينهما وأن يرحل بعيدًا عنها وحذَّرته وتوعَّدته إن حاول مجرد التفكير في اللقاء بها بل والحديث معها.

حاول جاهدًا أن ينسى ولكنه لم يستطع.

أسلم نفسه للضياع واليأس وإدمان الخمر.. كان يرى فى الخمر هروبًا من الواقع الأليم الذى يعيش فيه نسيانًا للحظات السعيدة.. للجنة التى عاش فيها وهى بين يديه.. كلما تذكر تلك اللحظات أمعن وأسرف فى شرب الخمر.

وقرر فى لحظة -كانت الخمر قد استبدت فيها بفكره واستحوذت على إدراكه وغيبت أحاسيسه- أن ينتقم منها، فقد أضاعت مستقبله وأصبح بلا أمل ولا مستقبل ولا رغبة في الاستمرار فى الحياة.

كيف يستطيع أن يجابه جدته بعد كل ما ضحَّت به من أجله، وقد حطَّم أحلامها ودمَّر آمالها بل حياتها كلها، وكيف قابل تضحياتها وصمودها وكفاحها وإصرارها على أن تختزن في مستقبله شقاء حياتها، كيف هان عليه كل ذلك، كيف محا من ذاكرته ومن أعماقه سيناريو كفاح الجدة الذى يمتزج فيه الألم بالأمل ويبدد كل هذا الكنز في لحظة استسلم فيها لنزواته وباع من أجلها ماضيه وحاضره ومستقبله.. إنَّ الحياة والموت بالنسبة له سواء! ولكن صورة جدته التي لم تفارق مخيلته كانت تبث فيه أملاً جديدًا وتبدد هذا اليأس

والضياع الذى انغمس فيه.

وكانت قد أعطته مفتاح شقتها ليتسلل إلى مخدعها وقت أن كانت راضـية عنه.

وتسلل مخمورًا إلى حجرة نومها وكانت فى أحضان صديقها الجديد.

ولم يشعر إلا وهو ينهال على جسدها العارى بضربات وطعنات متلاحقة.

هكذا كان حديث الجـدة، واعتـرف المـتهم حسـبما جـاء عـلى لسـانه فى تحقيقات النيابة بعد الاطلاع على أوراق القضية التى كانت مع الجدة.

وسقطت الجدة أمامى مغشيًا عليها بعد أن تلفظت بكلمة: اتحكم عليه يا بيه بالإعدام.. أستحلفك بالله أن تنقذه.. أنا ملياش غيره، علشان خـاطر ربنـا ساعده حتى وأنا على استعداد أن يعدمونى بدلاً منه.

بعد أن أفاقت وهدأت من روعها وطمأنتهـا بمـوافقتى عـلى الـدفاع عـن حفيدها المتهم وأننى سأبذل كل مـا في وسـعى لمسـاعدتها، وأننـى سـأتبنى القضية من كافة جوانبها كما لو كانت قضية شخصية لى لإدراكى أنَّ إجراءات المحاكمة قد شابها البطلان.

وقد أدركت منذ أول وهلة لاطلاعى على إجـراءات المحاكمـة وأسـباب الحكم أنَّ عوار البطلان قد ران على إجراءات المحاكمة وانسحب بـدوره إلى الحكم.

وقدَّمت أسبابًا للطعن على الحكم القاضي بالإعدام في الميعـاد المحـدد،

إذ نظرت محكمة النقض القضية أخذت بالأسباب التى استند إليها دفاعى وقضت بإلغاء الحكم ومحاكمته مجددًا.. وأوردت فى أسباب النقض أنَّ إجراءات المحاكمة قد شابها البطلان فضلاً عن الخطأ فى تطبيق القانون، لأنَّ وقت ارتكاب الجريمة كما هو ثابت فى محضر الشرطة كان الساعة العاشرة مساء وفتح محضر الشرطة الساعة الحادية عشرة مساء، وعمر المتهم – الساعة العاشرة– لم يكن قد تعدَّى الثامنة عشرة، إذ إنَّه كى يتعدَّى سن الثامنة عشرة لا يبدأ إلا بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً مما يكون معه المتهم حدثًا وقت ارتكاب الجريمة، إذ إنَّ بلوغه الثامنة عشرة كاملاً لا يتأتى إلا بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً.

والخلط الذى وقع فيه وصف التهمة أنَّه قد تم حساب سنه من اليوم والساعة التي بدأ فيها التحقيق معه بمعرفة النيابة العامة، والعبرة فى حساب سن المتهم وقوفًا عما إذا كان قد جاوز سن الحدث من عدمه هو ساعة وتاريخ ارتكاب الواقعة لا وقت التحقيق فيها.

وإذا كان المتهم على نحو ما تقدَّم وقت ارتكاب الواقعة حدثًا إذ إنَّ هناك ساعتين ما بين ارتكاب الجريمة الساعة العاشرة مساء والساعة الثانية عشرة ليلاً، حيث تكون قد اكتملت سنه ثمانية عشر عامًا، ومن ثم فإنَّ الحكم القاضى بإعدامه يكون وقد شابه الخطأ فى تطبيق القانون، إذ لا يجوز قانونًا الحكم بإعدام الحدث.. وفقًا لقانون الأحداث الذى كان ساريًا وقت

ارتكاب الواقعة (الذى تغيَّر بقانون الطفل رقم ١٢ لسنة ١٩٩٦).

كما جاء فى أسباب الطعن أيضًا أنَّ ما جاء فى الأوراق بأنَّ اعتراف المتهم كان فى لحظة غاب فيها وعيه وإدراكه إذ كان مخمورًا.. فقد كانت رائحة الخمر تفوح منه.. لحظة استجواب النيابة له.. وأثبت ذلك وكيل النيابة المحقق فى ملحوظة وعرضه على الطبيب المختص الذى حرر تقريرًا أثبت فيه.. أنَّها حالة سكر بيِّن.

وقد أوردت المحكمة ذلك فى صورة الدعوى التى اعتنقتها.

ولما كانت المادة ٦٢ من قانون العقوبات تعاقب من يتعاطى مخدرًا أو مسكرًا اختيارًا ويرتكب جريمة كما لو كان فى وعيه إلا أنَّ حد ذلك ألا تكون الجريمة من الجرائم ذات القصود الخاصة كالقتل فإنَّه لا يتحقق هذا القصد الخاص وهو نية القتل لمن كان متعاطيًا مسكرًا كما هو الحال بالنسبة للمتهم، وبناء على كل ما تقدَّم أخذت محكمة النقض بالأسباب التي أوردتها في الطعن على الحكم وانتهت إلى قبول الطعن شكلاً وفى الموضوع بنقضه وإعادة محاكمة المتهم مجددًا أمام المحكمة المختصة.

وكان علىّ أن أعيد تصفّح أوراق الدعوى بإمعان.. فقد ألغى حكم الإعدام شنقًا ونحن أمام محاكمة جديدة تنظر الدعوى من جديد موضوعيًا.. يبدى الدفاع ما عنَّ له أن يبدى من دفوع ودفاع.

واستوقف نظرى عدة ملاحظات وأنا أتصفّح أوراق الدعوى، إذ يتعيَّن

سواء للمدافع أو للمحكمة أن تقف عـلى الصـورة الصـحيحة للواقعـة التـي تمثل السيناريو الحقيقـى للحـدث وأن يطـرح هـذا السـيناريو المكتـوب في صورة تخيّل لأحداثه ليحقق معايشة حقيقية للحدث يمكن معها طرحها على المنطق والوجدان، إذ إنَّ الدليل الجنائى يقوم على التصـور السـليم للحـدث وطرحه على المنطق والوجدان وقوفًا على إمكانية حدوثه وفقًا لهـذا التصـور من عدمه.

ومن ثنايا قراءتى المتأنية والمتبصرة لأحداث الدعوى توقَّفت مليًـا عنـد عدة أمور مهمة مؤثرة في منطق الدليل في الدعوى وفى الوقوف عـلى الحقيقـة المجردة لأحداثها:

الملاحظة الأولى: أنَّ المصوغات والمجوهرات الخاصة بالمجنى عليها قد اختفت تمامًا من صوان ملابسها، بـل وتبـيَّن أنهَّـا قـد جـردت تمامًـا مـن المجوهرات والمصوغات التى كانت تتزيَّن بها.

وبمواجهة المتهم بتهمة القتل المرتبط بالسرقة أنكر تمامًـا السـرقة وقـرر أنَّه لم يستول على أى شئ سواء مجوهرات أو أموال، كما أنَّ تحريات الشرطة لم تتوصَّل إلى أنَّه قام بسرقتها ولم يتم ضبط أى منها في حيازته أو أحرازه.

الملاحظة الثانية: أنَّ تقرير الأدلة الجنائية الذى رفع البصمات مـن مكـان الحادث قد ثبت منه أنَّ البصمات التى تم رفعها من داخل الخزينـة الخاصـة بالمجنى عليها والتي تحتوى المصـوغات والمجـوهرات والمبـالغ الماليـة

ليس بها بصمة للمتهم، وإنما ثبت وجـود بصـمتين، بصـمة للمجنـى عليهـا وبصمة لآخر مجهولة، ولكنَّها ليست للمتهم! الأمر الذى ينبئ وقـد اختفـت المجوهرات وكذلك النقود التى بالخزينـة لم يكـن القصـد منـه الانتقـام مـن المجنى عليها وإنما كان القصد والهدف الأساسى هو السرقة.

الملاحظة الثالثة: فقد تبين أنَّ السكين المضبوطة فى مكان الحادث كانت عليها بصمات المتهم وهو الذى حدا بالشرطة ابتداءً وبالنيابة من بعـد ذلـك إلى توجيه الاتهام إليه.

الملاحظة الرابعة: أنَّه قد ثبـت مـن تقريـر المعامـل بالطـب الشـرعى أنَّ المتهم كان مخمورًا وقت ارتكاب الحادث على نحو لا يتحقـق معـه القصـد الجنائى الخاص وهو نية القتل لأنَّ هذا القصد الخاص لا يتحقق قانونـًا مـع من يثبت أنَّه كان متعاطيًا مخدرًا أو خمرًا وقت ارتكاب جريمة القتل العمد.

الملاحظة الخامسة: تبين أنَّ المتهم كـان مصـابًا فى رأسـه بإصـابة رضـية جسيمة لم يستطع أن يبررها، وعلَّلها بأنَّها ربما تكون نتيجة اصـطدامه بجسـم راض كحائط وهو مخمور بعد الحادث، كما تبيَّن من التحقيقات أنَّ المـتهم قد تم ضبطه فى غرفة المجنى عليها عقب الحادث، إذ سقط مغشيًا عليـه بعـد هذه الإصابة وظلَّ على هذه الحال حتى تم ضبطه متلبسًا فى مكان الحادث.

الملاحظة السادسة: تبيَّن لى من قراءتى المتعمِّقة لتقرير الصفة التشـريحية أنَّ جثة المجنى عليها بها نوعان من الإصابات:

أولها: إصابات رضية عنيفة بالرأس أدَّت إلى تهشيم الـرأس تمامًـا، وهـى حيوية أى حدثت أثناء الحياة وهى سبب الوفاة وتحدث من آلة راضة.

وثانيها: أنَّ بها إصابات طعنية فى الصدر والبطن تحـدث مـن آلـة قطعيـة كسكين إلا أنَّ هذه الإصابات غير حيوية أى حدثت بعد الوفاة ولا دخل لهـا في حدوث الوفاة.

الملاحظة السابعة: أنَّ اعتراف المتهم قد انصـبَّ عـلى أنَّـه قتلهـا السـاعة العاشرة مساء وتم إبلاغ الشرطة عـن الواقعـة وانتقالهـا إلى مسـرح الحـادث الساعة الحادية عشرة مساء.

كما تبيَّن لى من الاطلاع على صورة بطاقته الشخصية المرفقة بالأوراق أنَّه جاوز الثامنة عشرة وقت تحقيق النيابة العامة الذى بدأته فى السـاعة الواحـدة صباحًا أي أنَّه حتى الساعة الثانية عشـرة لـيلاً كـان حـدثًا وأنَّـه لحظـة بدايـة التحقيق بعدها بساعة، أي الساعة الواحدة صـباحًا كـان قـد تجـاوزت سـنه الثامنة عشرة بساعة واحدة.

والتقيت بالمتهم قبل المحاكمة الجديدة، وقد استقر فى وجدانى من واقع التدقيق والتمحيص والتحليل الدقيق والـربط بـين الملاحظـات السـابقة أنَّ اعترافات المتهم صادقة وأنَّه رغم هذا الاعتراف فهو برىء من قتـل المجنـى عليها وسرقة أموالها وما يؤكد ذلك ما ثبت بتقريـر الصـفة التشـريحية لجثـة المجنى عليها، إذ قطع بأنَّ تلك الطعنات التى اعترف بأنَّه قد سددها في جسد

المجنى عليها غير حيوية أى أنَّها بعـد أن فارقـت الحيـاة متـأثرة بالإصـابات الناتجة عن الضرب بآلة راضة ثقيلة هشمت رأسها ولفظت أنفاسـها قبـل أن يطعنها..

كان عليَّ أن ألتقى بالمتهم لأتوصل منه إلى مزيـد مـن المعلومـات كشـفًا للحقيقة التى قدّر لها أن تطمس وتقبر فى الدعوى الماثلة.

تحدَّث الشاب معى بصراحة وبراءة أهل الريف، مؤكدًا أنَّ ما بدَّد يأسه في الحياة وزهده فيها ورغبته الحثيثة في مغادرة الدنيا هو دمـوع جدَّتـه ووقوفهـا إلى جواره وتشبثها في إثبات براءته وسماحتها رغم كل ما سبَّبه لها مـن إسـاءة وآلام..

اعترف لى أنَّه فعلاً قد طعنها بالسكين وأنَّه كان مصرًا على الخـلاص منهـا وتخليص البشرية من شرورها وآثامها، غير أنَّه كان مخمورًا وقـت أن تسـلل إلى شقتها ولم يكن فى وعيه أو إدراكه للحالة التي كانت عليها لحظـة تسـديده الطعنات إليها وأقسم أنَّه لم يسرق شـيئًا، فالإعـدام أهـون عـلى نفسـه مـن ان يوصم بصفة سارق.

وسألته عن سر الإصابة التى فى رأسه فقرر أنَّه لا يعلـم عنهـا شـيئًا وأنَّـه لم يكن في وعيه بعد أن طعنها ولم يفـق إلا بعـد أن تجمَّـع النـاس فى غرفـة نـوم المجنى عليها ووجدوه مغشيًا عليه وفى يده السكين التي تحمل بصماته وعلى نصلها دماؤها.

فسألته: من ذلك الغريم الجديد الذى أوقعته في شباكها؟

فأجاب: أنَّه لا يعرف عنه شيئًا وكل ما يعرفه أنَّه رآه أكثر من مرة يتسلَّل إليها حال مراقبته العمارة أملاً فى أن يرى محبوبته بعد أن طردته من حياتها وأضاف أنّ ذلك الشخص لم يكن يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره.. وأنَّه يبدو عليه الترف والثراء.. إذ كان يأتى بسيارة فارهة ويتعمَّد تركها بعيدًا عن المسكن.

واقترب موعد المحاكمة فما بقى على ميعادها سوى عشرة أيام عندما قدَّمت لى زوجتى وأنا على مائدة الإفطار صحيفة يومية تحمل صورة شاب وسيم تحت عنوان «جرائم أبناء الذوات» وهى تقول بتهكم:

«آدى آخرة الدلع وسوء التربية.. ناقصه إيه عشان يسرق!. الأشكال دى لازم يكون عقابها شديد عشان تكون عبرة لغيرها».. أحسست الحدّة فى ملامحها وفى نبرات صوتها والغيرة والحمية على الشباب وضرورة اهتمام الآباء بهم وحسن تربيتهم.

فقرأت تفاصيل الخبر.. إنَّه من أبناء الذوات ويحمل عضوية أكثر من نادٍ راقٍ تم ضبطه وهو يبيع مجوهرات بسعر أقل كثيرًا من ثمنها، مما أثار شكوك الجواهرجى فسارع بالإبلاغ عنه وكانت المفاجأة الكبرى عندما تم تفتيش مسكنه وتبيَّن وجود العديد من المسروقات الثمينة والتى لم يستطع أن يبرر مصدرها.. وإن كانت التحريات قد أشارت إلى أنَّه قد اعتاد استغلال وسامته

ورشاقته وخفة دمه فى إيقاع ضحاياه من النساء فى شباكه وسلب ثروتهن.

دار فى ذهنى بعد أن تصفَّحت هذا الخبر وربطت بينه وبين الجريمة التي أتولى الدفاع عنه فيها وإنَّ هناك احتمالاً ربما كان بعيدًا ولكن تعاملى مع الجريمة والبحث عن دليل البراءة.. مهما.. كان واهيًا علمنى التفاؤل والأمل دائمًا وألا أترك خيطًا مهمًا كان رفيعًا للصدفة أو الاحتمال أو عدم الجدية بل لابد من أن أصل إلى يقين بشأنه سواء قبولاً أو رفضًا.

تقابلت مع المتهم قبل الجلسة المحددة وعرضت عليه الصورة المنشورة فانفرجت أساريره منذ النظرة الأولى، وسرعان ما تعرَّف على صاحبها، وقال إنَّه هو الغريم والعدو اللدود والمنافس الشرس الذى أطاح بعرشه فى مملكة قلبها واحتل هو هذا العرش وقذفه من عليه بعنف وبلا شفقة ولا رحمة.

وكانت جلسة المرافعة التي ظلَّت محل انتظار الكثيرين وتساؤلاتهم كيف لى أن أترافع في قضية أطبقت فيها الأدلة على المتهم وعلى هامتها اعترافه المفصَّل بارتكابه الجريمة وباعثه ودافعه على الإقدام على قتلها والخلاص منها.

وشخصت إبصار الحاضرين في القاعة وصمت الجميع بعد أن علا صوت الحاجب بكلمة «محكمة» ودخل المستشارون قاعة الجلسة وهمس الجميع وكأنَّ على رؤوسهم الطير وأحسست وكأنى أسمع تساؤلاتهم ماذا سأقول أمام اعتراف المتهم ومع الأدلة التي ترافعت النيابة تثبت بها التهمة على المتهم وتصفه بالعبث والمجون والاستهتار وأنَّه لم يرع لنفسه ماضيًا أو

حاضرًا أو مستقبلاً ولم يحفظ النعمة التي أفاء الله بها عليه ليدخل كلية الطب ليكون طبيبا وبدلا من أن يسهم في الحفاظ على الأرواح أسهم في قتل نفس حرَّم الله قتلها إلا بالحق فجزاؤه الوفاق هو الإعدام ثم جاء دورى كمدافع فطلبت ابتداء براءة المتهم مما أسند إليه، أبصرت لحظتها الدهشة تملأ عيون الحاضرين ومنهم النيابة العامة التي رمقت ابتسامة خفيفة في شفتى وكيل النيابة لها دلالتها.

ترافعت في حدَّة تنبئ نبرات الصوت عن قناعة وتأكيد على براءة المتهم من تهمة القتل العمد مع سبق الإصرار المرتبط بجنحة سرقة المعاقب عليه بالإعدام طبقًا لنصوص المواد ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤ من قانون العقوبات.

وقلت بصوت جهور القاتل والسارق شخص آخر.

وهمس الجميع في حيرة واستغراب وريبة فيما أقول، قطعه صوت رئيس الجلسة وهو يضرب بمطرقته على المنصة طالبًا الصمت والسكون.

نعم القاتل والسارق الحقيقى هو ذلك الشاب الوسيم.

ونظر الجميع حولهم في حيرة من هو هذا الشاب وما صلته بهذه الواقعة التي أطبقت فيها الأدلة على المتهم الماثل.

وقطعت هذا الشك باليقين وقلت للمحكمة في عبارات ونبرة ملؤها الثقة واليقين هذا هو الدليل اليقينى أقدّمه إليكم بضمير مستريح وبرغبة سابقة هي هدفنا جميعًا في أن نقف وأن نصل إلى الحقيقة التي تقود بدورها إلى العدالة

التي هي مبتغانا جميعًا.

واستطردت في مرافعتى أننى كنت قد تقدَّمت لرجال المباحث بكل ملاحظاتى السابقة وبما دار فى ذهنى من توقعات واحتمالات من أنَّ هذا الشاب الوسيم هو القاتل من أجل السرقة.

وبالفعل تم عمل مضاهاة بين بصمة هذا الشاب وبين البصمة المجهولة التى تم العثور عليها داخل خزانة المجنى عليها، ولم يجد الشاب الوسيم أمامه سوى الاعتراف: قائلاً – نعم قتلتها بعد أن أوقعتنى فى شباك حبها وأصبحت لا أطيق العيش بعيدًا عنها، وأحسست أنَّها فى سبيلها لطردى من حياتها واستبدالى بعشيق جديد بعد أن رصدت معلومات عن تاريخها ومجونها وعبثها واستهتارها بمشاعر وأحاسيس ومستقبل الشباب، وأنَّها ما إن تحقق هدفها وهو إيقاع الصيد في شباكها وتتأكد من أنَّه أصبح أسير هواها عبدًا لجسدها حتى تطرده من هذا الفردوس الذى يجد فيه كافة ملذاته غير عابئة بآلامه وعذابه كانت تجد لذة في هذا العذاب، وفى هذا الألم الذى ينهش في فكر وقلب وجسد كل من طردته من حياتها.

واستطرد الشاب الوسيم باعترافه بقوله.. وكنت قد أعددت لكل شئ عدته أسكرتها حتى الثمالة، ثم هويت على رأسها بقطعة حديد كنت قد أعددتها سلفًا حتى هشمت رأسها، وفتحت الخزانة واستوليت على ما بها من نقود ومجوهرات ومصوغات.. وفى تلك الأثناء حضر المتهم مخمورًا والشرر يتطاير من عينيه وبيده سكين هوى بها طعنًا فى صدرها وبطنها،

أصابنى الارتباك وخشيت أن يفتضح أمرى ويتم ضبطى بعد قتلها وسرقة مالها ولم أدر ماذا أفعل كى أهرب من مكان الحادث.. فضربته بقطعة الحديد على رأسه كى أتمكن من الهرب، وتركته يسقط فى مكان الحادث وهربت بالمسروقات، وظننت بعد أن حكم عليه بالإعدام أننى قد أفلت نهائيًا، ولكن عين السماء لا تنام..

وقدَّمت كافة الأدلة السابقة مدعمة بالمستندات للمحكمة وأنهيت مرافعتى بأنَّ المتهم وإن كان قد طعن المجنى عليها بسكين فلا جريمة فى الأمر..

وأثار هذا الحديث في مرافعتى همس الجميع واستغرابهم، قطعه رئيس الدائرة بطلب الصمت وعدم الحديث واستطردت في مرافعتى مواصلاً حتى لا أضيع أثر حدة الحدث –كما يقول علماء النفس– وعلى حديثى بصوت جهورى وأنا أقرأ تقرير الصفة التشريحية وما ثبت به أن الإصابات الطعنية بجثة المجنى عليها غير حيوية أى حدثت بعد الوفاة ولا دخل لها في أحداثها وأنَّ الإصابات التى فى رأسها والتى أحدثها الشاب الوسيم وفقًا لاعترافه هى التى سبَّبت الوفاة.

وبذلك يكون المتهم عندما طعن المجنى عليها فى صدرها وبطنها كانت قد فارقت الحياة بالفعل نتيجة الإصابات الرضية بالرأس، الأمر غير المؤثم قانونًا، إذ إنَّ شرط التأثيم فى جريمة القتل أن يكون الاعتداء على جسم إنسان

حى وأن يكون هذا الاعتداء سببًا فى وفاته، أما أن يكون الاعتـداء مهمـا كـان جسيمًا على جسد إنسان قد تحققت وفاته فهو اعتداء على جثة إنسان ميـت لا تتحقق به أركان جريمة القتل المتطلبة قانونًا.

بعد انتهاء مرافعتى سألت المحكمة النيابة فيما إذا كانـت تريـد التحقيـق فأجابت سلبًا فأصدرت قرارًا برفع الجلسة للمداولة.

وسادت لحظة استبدت بها الحيرة بالجميع بمن فيهم المتهمون الآخرون في قضايا أخرى ودفاعهم الحاضر معهم يستعجلهم الشوق في معرفة الحكـم الذى سترتبط به حياة إنسان يولد من جديد بعد أن حكم عليه بالإعـدام هـل ستتحقق له تلك الولادة أم سيكون مصيره الإعدام كما جاء بالحكم الأول.

وبدَّد هذه الحيرة والتساؤلات صوت الحاجب وهو يعلن بدء الجلسة.

وفى لحظة حبست فيها أنفاس الجميع وهم يسمعون النطق بالحكم.

حكمت المحكمة ببراءة المتهم مما أسند إليه..

وأكثر ما أسعدنى ذلك المشهد الذى لم تمحه الأيـام مـن ذاكرتـى مشـهد جدَّته بعد النطق بالحكم، وقد سقطت مغشيًا عليها هل هي الفرحـة والأمـل الذى عاد إلى حياتها من جديد أم الخوف من المجهـول الـذى لم أسـقطه مـن حساباتها من قبل وعندما تمت إفاقتها نظرت إليه وفى عينيها قطرات من عيون الفرحة والشكر التي عبَّرت عنها في كلمـات مقتضـبه تحمـل أجمـل المعـانى وأصدقها وأبلغها وقالت (ربنا يحافظ عليك ويسترك دنيا وآخرة).

وكانت آخر كلماتى وأنا أغادر قاعة المحكمة أننى شكرتها على هذا التقدير الذى لا يقدَّم بكنوز الدنيا وما فيها إنَّها عبارات صادقة أمينة صدرت من القلب ونفذت إلى القلب ووجهت حديثى إلى المتهم في أنَّ باب الأمل والإصرار والعزيمة والكفاح الذى لمسته وأحسسته بصدق من خلال تعاملى مع جدَّته لابد أن يكون له هديًا ونبراسًا على طريق جديد من الأمل وأنَّ عليه أن يطوى صفحة الماضى وأن ينظر بجد إلى مستقبله تحقيقًا لرغبة وأمل جدّته لأنَّ من أراد السير في طريق النجاح عليه أن ينظر إلى الأمام وألا يدير رأسه للخلف.

ومرت السنون وكنت عائدًا فى القطار بعد المرافعة فى قضية بالصعيد.

كان القطار مزدحمًا لا موضع فيه لقدم عندما فوجئت بشاب يترك مقعده ويتقدَّم منى ويرحب بى بحرارة ويطلب منى الجلوس مكانه ويصرُّ على ذلك.

أحسست وقتها بالخجل فأنا لا أعرف هذا الشاب ورمقته بنظرة أحسَّ منها التساؤل الذى يجيش فى صدرى.

من يكون هذا الفتى؟

وقطع تفكيرى سؤاله – انت متعرفنيش.

أجبته بصراحة أننى لا أتذكر.

أجاب على الفور:

انت اللى لك الفضل علىَّ وعلى أسرتى.. بعد الله.. انت اللى أنقذت حياتى ورددت إلىَّ شرفى واعتبارى وفتحت أبواب الأمل أمامى بعد أن أوصدت تمامًا.. أنا مدرس فى كلية الطب.. في إحدى جامعات الصعيد.. ولسيادتكم الفضل فيما وصلت إليه.

وعندما أحسَّ بالغرابة تغمر وجهى بدأ فى حديثه مباشرة.. أنا الشاب الذى كان محكومًا عليه بالإعدام.. وأمام توسلات جدّتى قبلت المرافعة عنى مجانًا بلا مقابل حتى قضى ببراءتى.. ولم يترك لى فرصة للتعقيب أو الحديث.

استطرد تكملة لقصته أنَّه بعد الحكم بالبراءة عكف على الدراسة وانقطع للبحث حتى تخرج وكان ترتيبه من الأوائل.. كانت صورة جدَّته لا تفارق مخيلته وأملها لا يبارح فكره وكلماتى والنصح الذى أسديته له في المحكمة بعد النطق بالبراءة مازال صداها في أذنى.. فانطلقت أواصل الدراسة حتى حصلت على الدكتوراة وتم تعيينى مدرسًا بكلية الطب بجامعة .... وقد أنعم الله علىَّ بزميلة.. جمع الحب بين قلبينا.. وأصبحت أبًا لولدين.. وما عاد لى من تفكير فى الدنيا.. غير عملى وأسرتى..

أصرَّ على أن أجلس مكانه على الكرسى وهو يبتسم:

- أعطنى فرصة كى أرد لحضرتك جزءًا بسيطًا من جميلك الذى لن أنساه حتى آخر لحظة فى حياتى.

- ورددت عليه البسمة بالبسمة وقد جال فى خاطرى.

المثل القائل.. **ادينى عمر.. وارمينى فى البحر.**

وطاف في ذهنى سؤال ترددت بينى وبين نفسى في سؤاله غير أننى وجهته إليه عن حال جدته وما آلت عليه بعد حكم البراءة.

فتهلل وجهه وهو يجيب بابتسامة أنَّها على قيد الحياة وأنَّها تدعو لى في كل صلواتها ليلاً ونهارًا.

وكانت المفاجأة التي لم تدر بخلدى وهو يصطحبنى الى أحد المقاعد في القطار وجدتها شيخة فانية وتجلس إلى جوارها خادمة تناولها الطعام وأشار إليها وقال هذه جدتى وطلب منى الاقتراب منها لترانى إذ إنَّ رؤيتها أصبحت ضعيفة وعرفنى بها فصمتت قليلاً وهى تسبح في فكر عميق ثم قالت في صوت خفيض إنَّ الأستاذ.... وقالت في براءة وصدق أهل الريف التي مازالت تتحلَّى بها ربنا يخليك ويسترك دنيا وآخرة.. دى دعوتى ليك ليل ونهار.. وده كل اللى أقدر أقدمهولك على الجميل والمعروف الكبير اللى عملته فىَّ وفى الدكتور.. شكرتها وانصرفت تاركًا إيَّاها لتتناول غذاءها..

أيقنت أنَّ من اختصه الله بنعمة عليه أن يفعلها في موضعها دون أن ينتظر جزاء أو شكورًا إلا ابتغاء مرضاة الله وثوابه.. وقد ازداد إحساسى وقناعتى أنَّ هذا الدعاء الذى تردده تلك المرأة من قلبها وبعفوية لا تصنّع فيها ولا افتعال لا يقدّر بكل كنوز الدنيا وما فيها.....

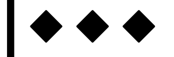
أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة

المحامي بالنقض

القضية الثانية

الأفعى والثعبان



■ ■ الأفعى... والثعبان

ما إن وطئت قدماى شقتى بعد عودتى من رحلة شاقة قادمًا من أقصى صعيد مصر بعد مرافعتى في قضية جنائية مهمة إلا وفوجئت بزوجتى تخبرنى «فيه واحد شكله غير مريح سأل عليك أكثر من مرة طول النهار.. ولسه من شوية سأل عليك.. وكل مرة كنا بنقوله إنك مسافر».

وسألتها: ماقلش عايز إيه؟

فكانت الإجابة: لا.. هو قال لما سألته نفس السؤال.. إنَّه عاوزك شخصيًا فى مسألة مهمة ومستعجلة لأنَّها حياة أو موت بالنسبة له.

وقبل أن أبدل ملابسى رنَّ جرس الباب وفتحت له فإذا بى أجد نفسى وجهًا لوجه أمام رجل تجاوز الخمسين من عمره بقليل.. كان شاردًا مهمومًا تستبد بملامحه الحيرة والقلق والغضب.. عيناه زائغتان كأنَّما تسبحان في فضاء عريض بحثًا عن مجهول.. وجهه تكسوه الصرامة والشدَّة.. الشرر يتطاير



من عينيه المحمرتين اللتين يظهر فيهما الإعياء والسهر.. قسمات وجهه يعتصرها الألم والحسرة والحيرة التي يمتزج بها الحدة.. وبينما أتفرَّس وجهه وأمعن النظر محللاً ملامحه بادرنى بقوله:

- ممكن أدخل.. أنا عايز سيادتك فى أمر مهم وعاجل جدًا.

وسيطر على ذهنى لأول وهلة سؤال.

- ما هذا الأمر المهم؟

فقد عودت نفسى أن ألتقى بالموكلين فى القضايا فى مكتبى فقط، وتلك سنة سرت على نهجها منذ بداية عملى بالمحاماة.. وأخبرته على الفور وأنا أدس بين يديه كارتًا بعنوان المكتب:

- ده عنوان المكتب وأنا منتظرك الساعة الثامنة مساء.

ولم يترك لى فرصة لاستكمال حديثى وبادرنى قائلاً:

- يابيه.. دى مسألة حياة أو موت.. لا تحتمل إنى أنتظر لحد الساعة الثامنة.. لازم أدخل وتسمع كلامى لآخره وأنا متأكد إنني أثقل عليك لكن بعد ما تسمع حكايتى حتعذرنى وأنا متأكد إنك حتقف معايا.

ولم يكن أمامى إزاء إصراره وغرابة ملامحه والفضول الذى استبدَّ بى وشوقى إلى معرفة ما يدور فى مخيلته من أحداث، والسر الذى يريد أن يفضى به إلَّى. إلا.. أن.. سمحت له بالدخول.

كانت خطواته متثاقلة تنبئ عن حجم المعاناة التى تثقل جسده فجعلته

يسير فى خطوات تكاد تكون مترنحة.

وقبل أن يجلس ليروى هذا الأمر العاجل والمهم الذى قدم مـن أجلـه دسَّ يده فى جيبه وأخرج علبة سجائر وأشعل منها سيجارة جذب منها أنفاسًا عميقـة ومتلاحقة ثم قام بحركة عفوية بإطفائها وما لبث أن كرر ذلك مـرارًا وأنـا أرمـق تصرفاته وألاحظ تحركاته محاولاً أن أصل إلى مكنون نفسه وما يدور برأسه من أفكار.. وجفَّف عرقه الذى كان ينساب من وجهه كالشـلالات التـى لا تنقطـع المرة بعد الأخـرى، خاصـة وأننـا كنـا في فصـل الشـتاء.. وبصـعوبة خرجـت الكلمات من فمه وكانت أشبه بطلقات مسدس مكتوم.

قال وعيناه لا تغرب عن دخان سيجارته:

- بصراحة أنا قتلـت مراتـى وانتابتـه نوبـة مـن الضـحك الهسـتيرى.. واستطرد وأنا مبسوط وفرحان إنى قتلتها.

وأصابتنى الدهشة وانتابتنى الريبة عما يرتبه هذا الرجـل ومـا الـذى يريـد منى أن أفعله بعد هذا الاعتراف.

وقبل أن أسأله عن التفاصيل قال:

- أنا قتلتها بالليل.. الليلة دى.. والجثة موجودة فى شقتى.. ومن الصبح وأنا بأدور على حضرتك قبل ما أسـلم نفسـى للبـوليس.. كـان لازم أشـوف سيادتك الأول وآخذ رأيك إيه اللى أعمله بالضبط.

فرمقته بنظرة تكسوها الدهشة والغرابة ربما راودنى إحساس أنَّـه لـيس في

وعيه وأنَّ هناك مشكلة في قواه العقلية ولذا كان سؤالى المنطقى.

طيب وإيه المطلوب منى أعمله؟ لماذا لم تتوجه إلى الشرطة فور الحادث وتبلغهم بما حدث.

فأجاب بنبرات كلها إصرار وتصميم:

- أنا لازم أعترف بأنى قتلتها فى الشرطة.. والنيابة.. وأمام المحكمة.. بل وأمام الدنيا كلها.. وده شرطى الأساسى – أنا كل إلى عايزه من سيادتك إنك تحضر معايا عشان أضمن أن كل كلمة من اعترافى تتكتب زى ما هى.. سأعترف بالحقيقة كاملة لن أخفى شيئًا وهذا هو مطلبى الأساسى.. وما أصررت وانتظرت منذ قتلها ليلاً وحتى الساعة السادسة مساء اليوم راجيًا منك أن تجيبنى إلى مطلبى.

كان حديثه يتسم للوهلة الأولى بالغرابة، إذ إنَّ تجاربى في التعامل مع الجريمة أو المجرمين سواء إبَّان عملى في النيابة أو في القضاء أو في المحاماة أن المجرم يلوذ بالإنكار مهما أطبقت عليه الأدلة.. ولكنى أواجه مجرمًا من نوع جديد يصر على الاعتراف كاملاً وبهذه الصراحة والجرأة..

ولا شك أنَّ لهذا الإصرار سببًا لما هو مقرر من أنَّ الاعتراف أمر يجافى الوضع العادى للأمور في أن يقدم الإنسان بسهولة ويسر دليلاً ضد نفسه وهى الفلسفة الجديدة التي غيَّرت وجهة النظر بالنسبة للاعتراف فبعد أن كان الاعتراف سيد الأدلة في الماضى بات دليلاً مشكوكًا فيه لتعارضه مع الطبيعة

البشرية، ومن ثم يجب بحث كافة الظروف والملابسات التي أحاطت بالاعتراف بدقة وبحذر والتي دفعت لصاحبه أن يورد نفسه موارد التهلكة ويضحى ويستهين بحياته وما عاصر وصاحب هذا الاعتراف من دوافع وأسباب خرجت به عن الاقتضاء العقلى والمنطقى.

وبدَّد السكون الذى أطبق على المكان وقطع علىَّ تفكيرى وما أسبح فيه من خيال بحثًا عن أسباب ودوافع هذا الاعتراف صوته الذى انطلق كالقنبلة الموقوتة:

- سأشرح لك القصة من البداية إلى النهاية.. وأترك لك الحكم.. وأنا راضٍ به سواء لى أو علىّ..

إنَّها مأساة فى أقسى صورها.. أنا واثق إنَّك عندما ستسمع مأساتى ستعيش حتمًا معى قصة حياتى وستغفر لى فعلتى وتقدر الظروف القاسية التي أطبقت علىَّ وأحاطت بى من كل جانب ودفعت بى دفعًا الى أن أتحول من إنسان يحب الحياة يرعى الله في أسرته وأولاده وكل من يحيط به وفى كل تصرفاته إلى قاتل.. أنا ضحية.. كل ما أطلبه من كل من يسمع مصيبتى أن يمعن السماع إليها.. وأن يدقّق ويمعن فى فصولها الأليمة.. أن ينفذ إلى أعماقى.. أن يعيش معى أحلامى وآلامى.. ويجعل نفسه مكانى ثم يصدر حكمه بعد ذلك كما يشاء.. وأنا واثق أنَّه سيلتمس لى العذر والمغفرة.

وتذكّرت من كلماته على الفور قولة الشيخ محمد عبده وكأنّه عايش

مأساة هذا الرجل «**خير موارد العدل القياس على النفس**».

بدأ الرجل يتحدث بصوت خفيض مثخن بـالجراح والآلام.. ينـزف دمًـا من أعماقه.. كل كلمة ينطـق بهـا وكأنَّهـا قطـرة دم تنـزف مـن قلبـه الجـريح وجسده الذى يصرخ ألمًا.

وبدأ الرجل وهو مازال يدخن السيجارة تلو الأخـرى بـنهمٍ وشـراهةٍ ولا تغرب عيناه عن الدخان المنبعث منها وكأنَّه يرى فيه شريطًا لقصة حياته.

قال الرجل فى لوعة وأسى وحسرة:

- أنا من أسرة فقيرة.. تفتحت عيناى عـلى الحيـاة ووجـدت أمـامى أبًـا معدمًا على باب الله.. وكبشة من الأشقاء.. لم أشأ أن أزيـد مـن أعبـاء والـدى وحمله الثقيل.. كان لابد أن أنزح من بلدتى بإحدى قرى الصـعيد إلى القـاهرة بحثًا عن الرزق.. ووجدت ضـالتى فى إحـدى الـورش التـى يمتلكهـا رجـل عجوز كهل ليس له أولاد.. وهب حياته لتلك الورشة التى تصنع الأحذية.

- كان وحيدًا فى الحياة بعد وفاة زوجته.. واحتضننى الرجل.. وعاملنى كما لو كنت ابنا له.. لم يبخل على بشىء.. علمنى من الصنعة وفن التعامل مع الزبائن الكثيـر.. وفجـأة اسـتبد المـرض بصـاحب الورشـة وأقعـده طـريح الفراش.. لم أنس جميله وفضله ومعروفه بالنسبة لى وكيف أنَّه اعتبرنـى بمثابـة ابن له ليس بالكلام ولكن بالعمل.. قمـت بـإدارة الورشـة بكـل جـد وأمانـة وإخلاص كما لو كان موجودًا.. وكان سعيدًا وأنا أدوام على علاجه وألبّى كل

طلباته وهو فى مرضه الأخير.. لم أبخل عليه بشئ كنت ابنًا لـه بكـل مـا تعنيـه البنوة..

وقبـل أن يلفـظ أنفاسـه الأخيـرة قـال لى آخـر كلماتـه وهـو فى حشـرجة الاحتضار:

«يابنى.. انت فعلا ابنى.. أنا لو كان لى ابن ما كانش حيعمل معايا كده ولا يقف بجانبى ولا يراعى مصالحى أكثر منـك.. إنـت مخلـص وتسـتحق كـل خير.. أنا كتبت الورشة باسمك.. وحلال عليك.. وده عقد بيع منى لك».

ثم أسلم الروح.. وفارق الحيـاة ويـده ممـدودة إلىّ يسـلمنى عقـد البيـع الصادر منه لى.. مسجلاً فى الشهر العقارى.. عشت بعدها أيامًا لا أصـدق مـا حدث وكأنّه حلم جميل لا أريد أن أصـحو منـه وأنـا أدعـو لـه دائمًـا بالرحمـة والمغفرة.

- لقد ابتسم لى القدر ابتسامة عريضة ما كانت تخطر لى ببال أو حسبان.. وتفتحت أمامى أبواب السـعادة والـرزق عـلى مصـراعيها.. وقمـت بـإجراء تعديلات بالورشة وتحديثها وتطويرها بأحدث الماكينات.. وكنت دائمًا على صلة عميقة مع الله، أتقى الله وأخافه وأرعاه في كل خطوة أخطوها أو تصـرف أقوم به وأفاء الله علىَّ من رزقه الواسع، فالله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

- ومرَّت الأيام حتى كان ذلك اليوم الذى التقيت بها.. فتـاة تحضـر إلى الورشة لتشـترى بعـض الأحذيـة النسـائية لتتـاجر فيهـا «دلالـة»، وسـلّمتها

الأحذيـة.. وظلَّـت تتـردد مـرات كثيـرة.. كانـت أمينـة وصـادقة وجـادة فى معاملاتها.. ومع مرور الأيام بدأنا نتجاذب أطـراف الحـديث وبـدأت تقـصّ علىَّ صراعها مع الفقر وكفاحها من أجل الإنفاق على أسرتها، فقد توفى والدها وترك لها «كوم لحم».. إخوتها الصغار الذين لا تنقطع مطالبهم.. كان عليهـا أن ترعاهم ولا تتركهم فريسة لذئاب الحياة.. ولمست كلماتها قلبى خصوصًا أنَّ كفاحها فى الحياة صـورة كربونيـة مـن كفـاحى وحيـاتى.. أعجبنـى فيهـا الصدق والأمانة ورغبة التحدى لكل العقبات التى تقابلها.. كـان حـديثها فى كل مرة مؤثرًا.. لمست كلماتها قلبى.. أحدثت به هزّة عنيفة.. كان «الفولـت» العاطفى بينى وبينها عاليًا.. وملكت علىَّ عقلى.. وتربعت على عرش فؤادى.. وكان لابد أن أتوج هذه العلاقة بإتمام نصف دينى.. وتزوجنا عن حـب مـلأ قلبينا.. وقد امتلأنا إصرارًا وعزمًا على أن نضع يدينا معًـا ونقـتحم المسـتقبل سويًا وأن نحطم أسوار الفقر الذى أحاط بكل منا في بدء حياتنا.

- ومضى بنا قطار العمر، كانت نعم الزوجة المطيعة التى لا همَّ لها غير الاهتمام ببيتها وإسعاد زوجها وأولادها.

- عشت معها أحلى سنوات عمرى والتى أثمرت عن ابنـة وثلاثـة أولاد وفيلا نقطن بها في إحدى مناطق الجيزة الراقية.. وانطلقت سفينة حياتنا تمخر أمواج الحياة والأسرة جميعًا تنعم بالسعادة وترفل فى الأمان حتـى كـان ذلـك اليوم المشئوم الذى تعرَّضت فيه مسيرة السفينة لموجة عاتيـة عصـفت بكـل شىء..

- شاء القدر أن يقطن شاب إحدى شقق العقار المواجه لفيلتى وذاع بين أهل الحى أنَّه طبيب يعمل فى منطقة قريبة وأنَّه يسافر يوميًا إلى المستشفى الذى يعمل به.. كان حلو الكلمة، عذب الحديث، حتى أنَّ الجميع أعجبوا به وأحبّوه من أعماقهم.

- ورغم حديث أهل الحى عنه وعن مواقفه النبيلة معهم وتفانيه فى علاجهم ورفضه تقاضى مليمًا من أي منهم.. نظير علاجه.. بل فى بعض الأحيان كان يحضر لهم الدواء من جيبه الخاص.. لم تكن تربطنى بهذا الشاب أى علاقة.. كذلك زوجتى وأولادى.. كان البيت بالنسبة لأسرتى بمثابة القلعة الحصينة التى تحمينا وليس من حق أى أحد أن يقتحمها علينا.

- وفى ليلة مشئومة أصيبت زوجتى بآلام فى البطن.. كان الوقت متأخرًا من الليل، وطلبت من أحد الجيران أن يدلنى على طبيب قريب فأرشدنى على الفور على ذلك الطبيب الذى حضر معى، وقام بالكشف على زوجتى وأعطاها العلاج الذى سكَّن آلامها وطلب منها المداومة عليه لمدة أسبوع كان يتردَّد خلاله لمتابعة علاجها وإعطائها الحقن العلاجية في المواعيد المحددة حتى كتب لها الشفاء واستعادت عافيتها مرة أخرى.. وشكر له جميع أفراد الأسرة كياسته وحسن اهتمامه ومجهوده الذى رفض أن يتقاضى أي أجر عنه معللاً أنَّ حق الجيرة يفرض عليه ذلك.

- واعتقدت أنَّ الأمر قد انتهى عند هذا الحد.. وكانت المفاجأة بعد

فترة قاربت ثلاثة شهور مـن شـفائها.. وبعـد عـودتى مـن الورشـة فوجئـت بزوجتى تقطع حديثًا جادًا كنا نتحدث فيه وتشيد بهذا الطبيـب ولم تكـن هـذه المرة الأولى بل إنَّ هذه الإشـادة سـبقتها إشـادات أخـرى عـلى مـدار الأيـام السابقة كانت تسرد محاسنه وتتغنَّى بمهارته وأنَّه طبيب ماهر ولـه الفضـل فى إنقاذ حياتها.. وانتـابتنى الدهشـة واسـتبدت بـى العصـبية.. لمـاذا كـل هـذا المديح؟ ما سبب هذا الإطراء؟ ما سر اهتمامها به وبحثها عن أحواله وجمعها كل هذه المعلومات عنه وإصرارها عـلى تعقبهـا.. لكنَّهـا هـدأت مـن نفسـى وابتسمت ابتسامة فاترة وهى ترد فى صوت هامس، هـو فعـلاً شـاب أمـور.. وحلو.. ودكتور شاطر وله مسـتقبل وزادت عصـبيتى التـى كـادت تصـل إلى الانفجار والتماسك معها لأول مرة منذ زواجنا، وإذا بها تنفجـر فى الضـحك المتواصل مما زاد من ثورة غضبى وانفعالى واستطردت قائلة وهـى مازالـت تواصل ضحكاتها:

«يا رجل عيب.. إنـت بتغيـر منـه.. ده زى ابنـك.. إنـت ناسـى إن بنتـك عروسة على وش جواز.. ورمقت فى عينى شيئًا من الارتيـاح بـدَّد بعضًـا مـن الغيظ المكتوم والثورة التي استبدت بى».

- واستمرت فى الحديث:

«ده جاى يطلب ايد بنتك.. عايز يتجوزها علشان كده كـان لازم قبـل مـا أقولك أعمل تحريات سريعة عنه كل اللى سـألته عنـه مـن الجيـران أكـد أنَّـه شاب وطبيب ممتاز وله مستقبل كبير».

وتبددت ثورتى واعتلتنى فرحة جارفة نسيت في غمرتها كفاح وتعب السنين السابقة وأحسست لأول مرة أنَّ ولادى كبروا وأنَّ بنتى الكبيرة بقت عروسة.. وقلت لها:

- مادام انتى وبنتك وإخواتها موافقين عليه وعاجبكم على بركة الله.. أنا موافق.

- ولم تنه الحديث معى قبل أن تعاتبنى عتابًا وصل إلى حد التأنيب على سوء ظنى وهى تقول فى خفة ممزوجة بالرقة:

- أنا زعلانة منك.. انت مخك راح بعيد قوى.. بقى بعد العشرة دى كلها ممكن عقلك يسرح وتفكر أفكار وحشة زى دى.

- وضحكت إلى حد القهقهة وهى تسمع منى ما يؤكد حبى لها بلا حدود وأنا أقول بنبرة تنطق حبًا وحنانًا وثقة.

- الرجل اللى يحب بيته ومراته لازم يغير عليهم.

- وضحكنا سويًا ملء قلبينا وإن شئت لقلت ملء قلبى، فقد كان قلبى مملوءًا حتى آخره بحبى لزوجتى وأولادى لا موضع فيه لأى شئ آخر.

- وتمت خطوبة ابنتى لهذا الشاب في جو رومانسى شاعرى حضره أفراد الأسرة والأقارب والأصحاب.. كان كلامه حلوًا وحديثه عذبًا جذابًا مقنعًا ينفذ إلى القلب.. وأحسست بالسعادة تغمر ابنتى عبر هذه الخطبة كانت

معجبة به كل الإعجاب، كانت عيناها تنطق بذلك وتفضح الحب الصادق القوى الذى نفذ إلى قلبها.. فقد رأت فيه نموذجًا لفتى أحلامها وصورة مشرقة لزوج المستقبل وارتوت من أحاديثه العذبة المنمقة التي تنطق بالحنان والحب الرومانسى الجميل.

- ومرَّت الأيام وفجأ تبدلت أحاسيس ابنتى.. تغيَّرت إلى النقيض.. باتت لا تطيق صورته وتنفر من لقائه وتتأذى لمجرد سماع اسمه.

- وواجهتها بهذا التحول فقررت أنَّها أصدرت قرارًا لا رجعة فيه بفسخ هذه الخطبة وأنَّها اكتشفت أنَّه لن يكون الزوج المناسب لها وأنَّه مخادع وكاذب.

- وحاولت معها جاهدًا مرات عديدة أن أعرف سرّ هذا التحول المفاجئ وأسبابه ودوافعه ولكن فى كل مرة كانت تجهش فى البكاء وأحسست أنَّها تخفى داخلها سرًا دفينًا تحتفظ به لنفسها ولا تريد أن تبوح به وأنَّ هذا السر من الجسامة والفداحة والقوة التي حطَّمت ودمَّرت هذا الحب.. بل إن ما زاد الأمر حيرة وغرابة أنَّها تركت المنزل وأقامت مع جدتها وأصرت على عدم العودة حتى تؤكد لنفسها وللجميع أنَّها ما عادت راغبة في مجرد سماع اسمه أو حتى مجرد الإقامة معنا في المسكن لمجرد أنَّه يسكن في الشارع ذاته.. وحاولت جاهدًا أن أعرف من زوجتى سر ما حدث.. ولماذا هذا التحول إلى النقيض من الحب في أعلى قممه إلى الكراهية في ذروتها.. وبدلاً من أن تفك رموز هذا الطلسم كانت إجاباتها غير شافية ولا

مقنعة..

- زادنى صمت الأم حيرة على حيرتى ودهشة أكثر من دهشتى لهذا التحول المفاجئ فى تصرفات ابنتى وإصرارًا على معرفة الحقيقة خاصة وأنَّ تعليل الأم لما حدث كان غير مقنع مرة تبرر ذلك بقولها: «عين وصابتها» ومرة أخرى إنَّها محسودة إلى غير ذلك من التبريرات الواهية غير المقنعة أو أنها بعد فترة لازم حتعقل.

- ومرَّت علىّ أيام وكأنَّها الدهر وأنا أصارع أشباحًا من الخيالات والأوهام والافتراضات التي كادت تحطم رأسى من كثرة التفكير، إذ فوجئت بخطاب يصلنى على الورشة وبمجرد أن قرأت سطوره حتى أصبت بدوار وترنَّحت من فرط هول كلماته وتماسكت حتى لا أسقط على الأرض من فرط ما جاء به.. «مراتك يا محترم على علاقة مع عريس ابنتك»!! ووقعت عيناى على صورة كانت مع هذا الخطاب لحرمى المصون وهى ترقص مع عريس ابنتى في أحد الأندية الليلية.

- وفركت عيناى وأنا أتأمل الصورة وقتها.. أدركت سر التغير المفاجئ لمشاعر ابنتى وكيف تبدَّلت من الحب لهذا الطبيب إلى الكراهية المفرطة ومن الاعتزاز به إلى نبذه والنفور منه واحتقاره، وكيف أنَّها آثرت أن تقبر مشاعرها.. تدفن أحاسيسها.. تتعذَّب فى صمت.. تترك البيت التى عاشت فيه منذ مولدها حتى لا ترى خيانة أمها..

وتحاملت على نفسى وبدأت أفيق من أثر الصدمة التى قرعت رأسى وأنا

أطوى هذا الخطاب والصورة فى جيبى.

- وأسرعت إليها وعرضت عليها الخطاب القاتل والصورة المدمرة.

- نعم كان خطابًا قاتلاً فقد كان بمثابة السكين التى ذبحتنى.

- كانت الصورة مدمرة كالقنبلة التى تفجرت فمزقتنى إربًا إربًا كان علىَّ أن أربط الخيوط المفككة بعضها مع البعض الآخر وأن أتيقن الإجابة عن السؤال الحائر الذى أشقانى وحيّرنى عن سر ترك ابنتى للمسكن.

وبدأت أتحسس الأمر.. وعلمت من الحىَّ أن حكايتها وسيرتها السيئة على لسان الجيران.. ومما زادنى ألما أنَّى آخر من يعلم بهذه العلاقة..

كنت كالمجنون الذى لا يدرى ماذا يفعل.. كان لابد أن أسترجع صوابى وأن أفرمل عصبيتى وأعالج الموضوع بحكمة وروية حرصًا على أولادى الطلبة بمختلف مراحل التعليم.. ما ذنبهم؟ وقد ابتلوا بأم أفعى ماكرة.. لم تجد أحدًا تلدغه سوى زوجها فى شرفه وأولادها فى كرامتهم.. لقد جمعت الأنانية مع الخيانة بكت كثيرًا وزرفت دموع التماسيح بعد أن واجهتها بالخطاب والصورة وهى تعترف بأنَّها نزوة.. وقفت عند حد الإعجاب المجرد به ولم تتعد ذلك.. إنَّ شرفه مازال مصانًا ويجب ألا تأخذه أفكاره وألا يسبح به خياله إلى أبعد من ذلك.

وضغط على فكره وأوقف عقله أمام هذه الدموع المنهمرة والكلمات المعسولة وأنَّها لا تستطيع أن تستغنى أو تعيش بعيدًا عنه ولم تنس حبه لها

طيلة السنين الماضية.. كان عليَّ أن أصدق.. أن أقنع نفسى بكلماتها التى تشدقت بحبها لى وأنَّها لن تفرط فيه حتى لو فرط فيها.

وهداه فكره بعد أن استسلم لرأيها.. وأقنع نفسه على مضض بهذا الاستسلام.. بعد أن أوقف عقله ومنطقه.. أن يترك المسكن الذى عاش فيه أحلى أيام حياته هو وأولاده هربًا من حديث الناس وبعيدًا عن نظراتهم القاتلة له، واستأجر شقة أخرى مفروشة في عمارة فاخرة بشارع الهرم لحين إعداد مسكن جديد.

- كان يوم عيد ميلادها عندما قرر أن يحتفل معها به بمفرديهما ليعيدا ذكرى أيام الحب ولياليه والإخلاص بينهما.. واشترى «تورتة» وهدية ثمينة احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة إلى قلبه.. ووضع الشمع المضىء رمزًا لسنها، فقد أتمت أربعة وأربعين عامًا.. وتوجه إلى غرفة الاستقبال استعدادًا للاحتفال بهذه المناسبة السعيدة، فقد كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلاً.. كانت فى الحمام عندما وقعت عيناه على دبلتها.. أمسك بالدبلة ليحتفظ بها لحين خروجها من الحمام ليلبسها إياها تفاؤلاً ببدء عام سعيد وعهد جديد وتسمَّرت عيناه أمام الاسم المنقوش على الدبلة.. ليس اسمه.

يا للمصيبة!

إنَّه اسم الطبيب.. كاد يصاب بالشلل وهو ينتظر خروجها من الحمام علَّها تفسّر له سر وجود اسم هذا الطبيب على الدبلة التى تلبسها.

كان يريد تفسيرًا حتى ولو كان كذبة جديدة كتلـك الكذبـة الكبـرى التـى صدقها من قبل.

- وخرجت من الحمام وقد تحامل عـلى نفسـه وتظـاهر بالهـدوء وهـو يقول:

- كل سنة وانت طيبة أنا منتظر خروجك من الحمام علشان نحتفل مـع بعضنا بعيد ميلادك ونطفى الشمع مع بعض.

- أحسَّ بالحرارة وقد ماتت فى نبرات صوتها وهى ترد ببرود:

- وانت طيب.

- ولم يطق الصبر أكثر مـن ذلـك.. واجهـا بالدبلـة.. وكانـت القارعـة عندما ردَّت عليه بحدة ممزوجة بالبجاحة والفجور.. نعم أحبه.. لقـد سـكن قلبى واحتله كاملاً فما عاد فيه مكان لغيره.. وجدت معه أنوثتى التى افتقدتها طيلة السنوات الماضية وأنا حبيسة بالبيت لا أفارقه.. أعمل فيه كالخادمة من الصباح حتى آخـر الليـل.. سـمعت منـه أعـذب الكلمـات وأحـلى عبـارات الحب.. كانت كالقيثارة التى تنشد لحنًا عذبًا يهزّ كل كيانى.. وبصـراحة فأنـا لا أطيق البعد عنه ولو للحظة واحدة.. صورته الباسمة أمـام عينـى ولا شـئ سواها فى صحوتى ومنامى.

- لحظتها لم أشعر بنفسى فقـدت وعـى.. لم أدر مـاذا أفعـل ولم أتمالـك نفسى وأنا أمسك بالسكين التى كنت أحضرتها من المطبخ لتقطيع «التورتـة»

فغرستها فى قلبها.. ذلك القلب الذى لم تهزّه عشرة السنين ولم تحرّكه غريزة الأمومة وانطلق عابسًا تاركًا كل هذه القيم بحثًا وراء لذة آثمة.

ولم أتركها سوى جثة هامدة وسط بركة من الدماء وأغلقت عليها الباب.

كان هذا هو حديث الرجل لى وهو يدخن فى شراهة ويتحدث بعصبية لا حدود لها يروى مأساته لى.

تعاطفت مع الرجل ورقَّ قلبى لمأساته، ونسيت فى غمرة الانفعال معه ومعايشته قصته مع الخيانة والأنانية وكيف كان كريمًا مع زوجة أسلمت نفسها لملذاتها المحرمة وباعت جسدها رخيصًا بلا ثمن للشيطان.. نسيت متاعب كل اليوم وانتقلت معه إلى قسم الشرطة المختص، حيث أبلغ واعترف بما حدث وانتقل رئيس المباحث إلى الشقة، حيث وجد جثة الزوجة «والتورتة» والشمع والدبلة.

وقام رئيس المباحث بالتحرى فأكد الجيران خيانتها، وأكد البعض أنَّه نصحها فلم يؤثر فيها النصح ولم يجد إلى عقلها سبيلاً بل إنَّ ابنتها أكدت تلك العلاقة الآثمة بين أمها وبين خطيبها.. وأنها نصحتها أكثر من مرة بالابتعاد عن هذا الشيطان وأن تعود إلى طريق الهداية والرشد حفاظًا على زوجها وحماية لأبنائها.. ولكن غواية الشيطان كانت أكبر واستسلامها لشهواتها كانت أعمق من أن تستجيب لصوت العقل والحكمة والدين وأن تسير فى طريق الهداية واختارت سكة الندامة ورفضت طريق السلامة وقالت ابنتها

إنها كانت بصدد قتل أمها.. وإنها فكـرت فى ذلـك كثيـرًا لتثـأر لشـرف أبيهـا وكرامة أسرتها.. ولكنَّها ترددت أكثر من مرة خوفًا من الفضيحة.

وتمت إحالة المـتهم إلى محكمـة الجنايـات بتهمـة القتـل العمـد.. كـان السكون يخيم على قاعة محكمة الجنايات عندما قطعه صوت الحاجب.

- محكمة.

ونودى على المتهم.. وسأله رئيس المحكمة فأصـرَّ عـلى الاعتـراف وأنَّـه قتلها عندما فاجأته وأعلنت له فى وقاحة وتبجح وبلا استحياء أنَّها على علاقـة آثمة بالطبيب وطلبت منه أن يتركها كى يغوصا معًا فى مستنقع الرذيلـة الـذى آثرا السقوط فيه.

وبدأت دفاعى دفاعًا عن المتهم مستهلاً مرافعتـى بمقولـة الإمـام محمـد عبده «إنَّ خير موارد العدل القياس على النفس».

وطرحت سؤالاً يفرض نفسه في منطق الدليل في هذه القضية هو:

- لو أيًا منا ساقه قدره الألـيم وحظَّـه العـاثر فى أن يعـيش فصـول هـذه المأساة التى عاشها المتهم.. فماذا هو فاعل؟

- إنَّ المجنى عليه الحقيقى وبحق فى الدعوى الماثلـة هـو هـذا الـزوج الطيب المسكين الذى تلقَّى طعنة غادرة فى شرفه.. فى كيانه.. فى عرضـه أمـام نفسه.. أمام جيرانه.. أمام أولاده.. أمام الحى الذى عاش فيه.. كانـت كفيلـة بأن تجهز عليه.. تحطّمه.. تقضى عليه قضاء مبرمًا.

- لكنَّه خضع لصوت العقل وآثر الحفاظ على أسرته فى محاولـة يائسـة أن يبقى هذا الصرح الذى أعملت فيه الأم معاول الهدم بلا هوادة.. على رأس زوجها وأولادها بلا شفقة ولا رحمة بعد أن أسلمت نفسها لغواية الشيطان.

- لم يتسرَّع الزوج بالقصاص منها أو مـن الطبيـب رغـم وجـود الـدليل الدامغ معه على خيانتها بعـد أن تلقـى خطابًـا يفضـح هـذه العلاقـة وبعـد أن أصبحت سيرتها وفضيحتها على كل لسـان فى الحـى.. كـان بوسـعه أن يهـدم المعبد على من فيه ويدفن الجميع تحت أنقاضه، ولكنـه آثـر أن يحـافظ عـلى هذا الصرح الذى تعب وجدَّ وشقى حتى شيَّده صدق معسول قولهـا أو أقنـع نفسه بتصديق قولها علَّها تصحّح من سلوكها المعوج.. ذكَّرها بأبنائها الـذين يدرسون فى الجامعات وأنَّهـم سـيتخرجون فى الجامعـة وكيـف أنَّ سـلوكها المعوج سيكون نقطة سوداء فى الرداء الأبيض الذى حـرص دائمًـا أن يكـون ناصعًا.. ترك الحى الذى عاش فيه والفيلا التي بناها بعرقه وكفاحه واسـتأجر شقة بمكان بعيد كى يبتعد بها ويبعدها عن هذا الطبيب.

- ولكنَّها لم ترتدع.. أصـمت أذنيهـا.. وأغلقـت فكرهـا وداسـت عـلى ضميرها وابتعدت عن كل نصيحة واختارت طريق إبليس.

- ومن هول ما كشفت عنه التحقيقات أنَّه لم يكـن طبيبًـا.. كـان أفاقًـا.. نصابًا يبتز أموالها واعتاد ذلك مع غيرها اللائى ضعفت نفوسهن أمـام غوايـة الشيطان.. وكانت –مـع الأسـف– لا رحمـة لهـا فى الأرض ولا فى السـماء..

كانت تعلم ذلك جيدًا وأدخلته البيت ليخطب ابنتها وهى تعلم ذلك جيدًا ليكون إلى جوارها عابثة غير عابئة حتى بعد أن تأكدت ابنتها من خيانتها.. لم تفق من غفلتها ولا أنانيتها.. لم تتحرك أمومتها وهى ترى ابنتها تتعذَّب.. تترك البيت حتى لا ترى الخيانة فى عيون أمها ليلاً ونهارًا.. ووصلت بها البجاحة والتدنى منتهاها عندما فاجأت الزوج معترفة بخيانتها.. كان يقدم لها الحب فى عيد ميلادها فقدَّمت له الخيانة فى أحط صورها وأخزى ملامحها.

واستطردت فى دفاعى:

- أنَّ المادة ٢٣٧ من قانون العقوبات والتى جعلت عقوبة الجنحة لمن يقتل زوجته وشريكها وهما متلبسين بجريمة الزنا تنطبق على المتهم فى الدعوى الماثلة.. فما هو معنى التلبس؟ التلبس لا يعنى المشاهدة بالعين.. لا يقتضى أن يفاجأ الزوج بوجود زوجته مع خليلها فى وضع الرذيلة، ولكن التلبس يدرك بأى حاسة من حواس الإنسان.. فما الفرق فى أن يدرك الصورة ببصره أويدركها تخيلاً بعد أن سمعها بأذنيه.. فى أن يسمع زوجته وهى تعترف أنَّها تخونه بين أحضان رجل آخر لا تستطيع أن تنساه وأن صورته لا تفارق عينيها.. إنَّه التلبس بعينه.. وقعه على نفسه وأثره عليها تمامًا كما لو كان قد شاهدهما معًا متلبسين بالجريمة.. الغاية التى تغيَّاها القانون والحكمة التي من أجلها شرع هذا النص وهبط بعقوبة القتل من الجناية إلى الجنحة واحدة فى الاثنين. فما تغيَّاه المشرع والعلَّة التى ارتسمت فى وجدانه وهو يجعل عقوبة القتل فى المادة ٢٣٧ عقوبات.. عقوبة الجنحة هى ذلك الشعور

المفاجئ غير المتوقع من الـزوج عنـدما يفاجـأ ويتـيقَّن مـن أنَّ زوجتـه بـين أحضان رجل آخر.. على نحـو يفقـده صـوابه وقدرتـه عـلى التفكيـر العاقـل المتأنى في روية وهدوء أمام هول ما رأى أو سمع وهو ما تحقـق وتأكـد منـه عندما سمعها وهى تعترف بالخيانة وتؤكدها بلا حياء أو خجل.

واستطردت فى دفاعى متسائلاً السؤال الذى تساءلته فى بداية دفاعى:

- لو أيًا منا قدِّر له أن يواجه الظروف ذاتهـا التـى واجههـا المـتهم.. أن يبتلى بزوجة خائنة تجاهره بالخيانة لا ترعى حـق الزوجيـة والواجبـات التـي تفرضها الأمومة.. فماذا هو فاعل غير ما فعل المتهم؟

ورفعت الجلسة للمداولة..

فى هذه الأثناء ونحن ننتظر صدور الحكم وصل خبـر، مـؤداه أنَّ الطبيـب العاشق قد ترك مسكنه وهرب إلى مكان مجهول لم تسفر عنه التحريـات التـي توصَّلت إلى أنَّه طبيب مزيف فشل كطالب في كلية الطـب ولم يكمـل دراسـته وأنَّه يتنقل مـن مكـان إلى مكـان ويعـيش مـن عـرق السـيدات المخبـولات المفتونات عالة على أموالهن ويختار من ضحاياه اللائـى يكبرنـه سـنًا ويبتـز أموالهن وأنَّه وجد مقتولاً في شقة في بإحدى المناطق النائية في أطراف القاهرة وأنَّ البحث مازال جاريًا للوصول إلى سر الحادث والقبض على القاتل.

وهمست فى أذن المتهم:

- ها هى السماء قد اقتصَّت لك.

- نظر الرجل إلىَّ من وراء القضبان وقد بانت من قسمات وجهه.. الراحة الممزوجة بالخوف وهو يقول:

- أنا الذى قتلته.

ظننته يمزح.

فقال لى مؤكدًا أنَّه هو القاتل.

فقلت له:

- مستحيل.. لأنك محبوس.

- فأجاب فى ثقة:

- لقد اتفقت مع أحد الأشقياء فى الحبس الاحتياطى وكان بصدد الإفراج عنه.. وأعطيته عنوانه وأوصافه.. وطلبت منه تعقبه وقتله.

- وسألته فى استغراب:

- لماذا لم تقتله قبل حضورك لمنزلى فقد كان أمامك متسع من الوقت.

- قال فى ثقة.

- لقد بحثت عنه فى كل مكان.. ومن حسن حظه فى هذا اليوم أنَّه لم يكن موجودًا.

وقطع حديثى معه صوت الحاجب وهو يعلن عودة المحكمة للنطق بالأحكام.

حكمت المحكمة بحبس المتهم سنة مع الإيقاف عن تهمة قتل زوجته كان قد قضاها فى الحبس الاحتياطى وأوردت فى حكمها ما يؤكد دفاعى من أنَّها طبقت عليه المادة ٢٣٧ من قانون العقوبات وقاست حالته على حالة التلبس باعتبار أنَّ القياس جائز فى المسائل الجنائية إذا كان لمصلحة المتهم.

ومرَّت الأيام وانقطعت سيرة الرجل وإذا بى وأنا فى طريقى فى أحد شوارع وسط القاهرة إلى مكتبى بصوت ينادينى كان شيخًا فانيًا اشتعل رأسه شيبًا وترك الزمن بصماته على وجهه الذى كسته التجاعيد، وقال وهو يحدّثنى من فم يكشف عن لثة تساقطت معظم أسنانها انت موش عارفنى.

فحملقت فى وجهه وكان علىَّ أن أتذكر شخصيته فأحسَّ الرجل بما يعتمل فى فكرى فذكرنى بنفسه.

ودفعنى الفضول فسألته عن الحديث الذى دار بينى وبينه وهو فى قفص الاتهام قبل النطق بالحكم:

فأجاب ضاحكًا:

- انت لسه فاكر.. أنا لا حرّضت على قتله ولا حاجة..
- فسألته مستغربًا عن سر اعترافه السابق لى.
- قال:
- ما دمت مصمم سأقول لك أنا كنت ناوى أعترف بقتله ليه.

- ابنى الكبير لما كان بيزورنى فى السجن كان مصرًا على أن يقتله.. فأنا لما سمعت أنّه اتقتل تبادر إلى ذهنى إنى أعترف عشان أنقذه.. أنا وقتها كنت حاسس بالضياع وقلت مادام أنا ضايع خليها بالمرة.

- فسألته فى لهفة:

- ومن الذى قتله؟

- فأجاب فى نبرة خبيثة .. الله أعلم.. واستطرد ما حدث له كان هو النهاية المنطقية لأمثاله الذين يعيثون في الأرض فسادًا، فقد عثر عليه مقتولاً في شقة متواضعة في حى شعبى كان عاريًا تمامًا بجواره زجاجة من الخمر وبقايا سجائر محشوة بالمخدر الحشيش ولم تتوصل التحريات لمعرفة القاتل لأنَّه كان هدفًا لانتقام كثيرين ممن عبث ودمَّر حياتهم.. وتوقعت التحريات أن يكون القاتل زوجًا أو أبًا أو أخًا أو ابنًا لإحدى ضحاياه.

- ربما اعتقد الرجل أننى لا أصدقه فأقسم وهو يضغط على يدى مودعًا:

- والله كل اللى قلته هو الحقيقة.. أنا طول عمرى باخاف من دم الفرخة وهى بتدبح! مكنتش أتصور أبدًا أنه تجينى الجرأة وأقتل.

- وساقنى الفضول إلى سؤاله:

- إذا ما دمت تخاف من القتل ومن رؤية الدم فلماذا قتلت زوجتك؟

- فضحك ضحكة ملأها الخبث وقال أعتقد أننى لو أقسمت لك أننى

لم أقتلها لن تصدق فأجبته على الفور طبعًا.. لقد عايشت قضيتك وأدلّتها وترافعت فيها وأنا على يقين أنك القاتل فإذا لم تكن أنت فمن القاتل؟

- فازدادت ضحكة السخرية على شفتيه وقال وهو يتفحَّص ملامح الحيرة في عينيه وكأنما يريد أن تزداد حيرة.

- يهمك تعرف بعد كل السنين دى مين اللى قتلها؟

- فأجبته في لهفة أحسَّ بها وبشغف في أن أسمع الإجابة عن هذا السؤال الحائر.

- بنتى هيه اللى قتلتها.. أنا فعلاً كنت جايب التورتة علشان أحتفل بعيد ميلاد بنتى مش عيد ميلاد مراتى وكنت موجود أنا وبنتى وأولادى الاثنين وفعلاً مراتى دخلت الحمام وفى تلك الأثناء بنتى هيه اللى شافت الدبلة وبمجرد ما خرجت هيه اللى واجهتها ادامنا فأصرت على حبها له وطلبت منا أن نتركها لحالها لتعيش حياتها على نحو آثم مشين غير عابئة بكرامة زوجها ولا سمعة أولادها مضحية بكل شيء من أجل علاقة محرمة.. لم تتمالك ابنتى نفسها وأمسكت بالسكين التي أعدت لتقطيع التورتة وأخذت تطعنها في هيستريا حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.

- واستكمالاً ومواصلة لمسيرة الكفاح والعطاء التي بدأتها طلب من أولادى التوجه فورًا لجدتهم والبقاء معها وأننى سأعترف بقتلها دفاعًا عن شرفى وعن سمعتهم وحفاظًا على مستقبل ابنتى وأغلقت الباب عليها

وانتظرت طيلة اليوم حتى التقيت بك وأحسست عندما سمعت قصتى واعترافى واقتنعت بذلك أحسست بالراحة وبأنَّ هذا السيناريو الذى أعددته سيلقى قبولاً وتصديقًا.

- قال هذه الكلمات ولم أتركه لينصرف من أمامى قبل أن أسأله عن أولاده وعن أحوالهم.

- فأجابنى أنَّه بعد أن خرج من السجن بدأ حياة جديدة تاركًا وراء ظهره الماضى بحلوه ومره، عرض عليه أولاده الزواج ولكنَّه أبى ورفض مكرسًا حياته لهم كأب وأم موفرًا لهم كافة متطلباتهم باذلاً كل ما في وسعه لإرضائهم وسعادتهم..

- ابنته الكبرى أغلقت صفحة الماضى وتزوَّجت عن حب من محاسب وأنجبت منه طفلين عزيزين على قلبه يجد حياته وسعادته ودنياه معهما.

- وابناه أحدهما تخرج فى كلية الهندسة أحبَّ زميلة له في الكلية خطبها وفى سبيله لإتمام شقة الزوجية، وقد اشترى له الشقة التي اختارها هو وخطيبته ودعا لهما بالتوفيق والسعادة التي حرمته الأيام منها، أما ابنه الأصغر فقد اختار كلية الطب وأصرّ عليها وهو في سنته النهائية.

وأنهى الرجل حديثه معى وهو يودعنى برغبته في توجيه سؤال شخصى لى:

عن رأى الشخصى فيما قام به هل أخطأ أم أصاب عندما حمل على عاتقه

عبء الاتهام بقتل زوجته على غير الحقيقة.. وما المصير الذى كان سينتظر الأسرة لو قدَّمت ابنته إلى المحاكمة بتهمة قتل أمها..

ولمح الرجل الحيرة والتردد في الإجابة عن سؤاله فبادر بقوله أنا اللى أجاوب عن السؤال..

أكيد حتقول قانونًا غلط.. كان لازم تقول الحقيقة.

إنما أنا بمنطق الأب مصر على إنى اللى عملته هو الصح.

الآباء لازم يضحوا علشان سعادة أولادهم مهما كان الثمن ولو كان حياتهم وده المعنى الكبير اللى لم تستوعبه الأم..

وانطلق الرجل بعد أن ودَّعنى بحرارة وإجلال.

وبعد عدة أعوام قرأت في الصحف نعيًا يتضمن وفاة الرجل فتوجهت لتقديم واجب العزاء لأسرته في السرادق المعد لذلك وعندما علمت ابنته بحضورى طلبت لقائى وأفضت إلىَّ بسر احتفظ والدها به وائتمنها دون غيرها من إخوتها عليه.

إنَّه هو الذى قتل الطبيب عشيق أمها انتقامًا لشرفه وكرامة أولاده وأنَّه بالفعل اتفق مع أحد المتهمين الخطرين الذى أمضى مدة العقوبة وكان في سبيله للإفراج عنه أن يقتله نظير مبلغ كبير من المال وبالفعل زجَّ في طريقه إحدى بائعات الهوى التي صاحبته إلى مسكنه وأسكرته حتى الثمالة ثم قامت بقتله وانصرفت ولم تتوصل التحريات إلى معرفة الحقيقة التي انتهت معها

النيابة إلى القرار بألا وجه لإقامة الدعوى الجنائية لعدم معرفة الفاعل.

وأن والدها كان صادقًا عندما أخبرك بقاعة المحكمة أنَّه هو القاتل لاعتقاده أنَّ ابنه الأكبر هو الذى قتله لأنَّه كان يبحث عنه يريد قتله وعدل عن ذلك عندما أخبره زميله السابق في السجن أنَّه نفذ الجريمة بلا دليل.. وأضافت أنَّها تعتقد أنَّ سر ما كان ينوى والدها الإقدام عليه وهو الاعتراف بقتل الطبيب المزيف ليفتدى ابنه إذا ما وجه إليه أي اتهام، وهو ذات موقف التضحية يوم أن افتداها وقدَّم نفسه قربانًا للعدالة بدلاً منها.

وانصرفت بعد العزاء.. وقد عمَّق حديثها في نفسى إحساسًا أؤمن به عن قناعة أنَّ الإنسان لا يولد مع الجريمة ولكن المجتمع الذى يدفعه إليها.

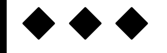
أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة

المحامي بالنقض

القضية الثالثة

العقرب والضفدع



■ ■ العقرب والضفدع

مال ميزان الليل وبينما كنت أهم بمغادرة مكتبى قابلتنى على الباب سيدة أصرَّت على تسليمى رسالة من طبيبة أرسلتها إلىَّ من محبسها فى سجن القناطر، وقررت تلك السيدة أنها بذلك تكون قد نفذت وصية الطبيبة التى سلَّمتها هذه الرسالة وأخذت عليها عهدًا وأشهدت الله عليه أنَّها ستقوم بهذه المهمة بتسليم الرسالة المغلقة لى.

وسألتها عن اسم هذه الطبيبة والتهمة التي حبست من أجلها ومدى صلتى بها فقررت أنَّها مجرد رسول.

ثم أعدت سؤالها وأنا أقوم بفض الرسالة عن فحوى ما جاء بها ومضمونها والغرض منها فأجابت بالإجابة ذاتها السابقة.



وأضافت أنَّها بتسليمها الرسالة لا تكون مهمتها قد انتهت، فقد أقسمت للطبيبة أنَّها لن تكتفى بذلك بل ستلازمنى حتى أقرأ الرسالة وأقف جيدًا على ما جاء بها.. وإزاء إصرارها واستعطافها وتوسلها سألتها عن المصلحة

والدافع الذى حدا بها إلى القيام بهذه المهمة.. فأجابت أنَّها لا مصلحة لها، إذ لا صلة لها بهذه الطبيبة سوى أنَّها قابلتها فى سجن القناطر أثناء زيـارة إحـدى قريباتها المسجونة فى السجن ذاته.

وقمت بفض الرسالة.. كانت الرسالة تقتر حزنًا وصورة مجسمة مـن الخسة والندالة والغدر وانعـدام الضـمير.. كانـت سـطورها مفعمـة بالبكـاء والأسى.

روت لى صاحبتها الطبيبة السجينة قصتها بكل ما فيها من مـرارة أنَّهـا كارثة بل مصيبة كبرى حلَّت على رأسها كالمطرقة وريـح عاتيـة هبَّـت عليهـا بقسوة فاقتلعت حياتها من جذورها بلا هوادة ولا رحمة.. بعد أن عانت مـرارة الاتهام ومعاناة محاكمتها التي انتهت بمعاقبتها بالإعدام شنقًا عن تهمة تتسـم بالبشاعة والوحشية وانعدام العقل والضمير.. قتل ابنة ضرتها عمدًا مع سـبق الإصرار والترصد وحرقها.. وأقسمت مرارًا وتكرارًا قسمًا مغلَّظًا بين سطور خطابها بأنَّها بريئة وبأنها لم ترتكب هذه الجريمة البشعة الشنعاء المجـردة مـن كل معانى الإنسانية والرحمة.

واستطردت في رسـالتها أنَّهـا بعـد سـماعها الحكـم بإعـدامها شـنقًا خاصم النوم جفونها وباتـت أرقـة لا تنـام، ذبلـت عيناهـا مـن طـول السـهر والدموع.. تطاردها الكوابيس وتستبد بها الهواجس فى كل لحظة مـن نهارهـا وليلها.. كانت صورة عشماوى لا تفارق عينيهـا.. وتـزداد رعبًـا عـلى رعـب وخوفًا بلا حدود كلما اقتربت صورته من عينيها، بل وقد اسـتبدَّ بهـا الخيـال

القاتل وهى تتصور نفسها معلقة فى حبله.. وأنهت خطابها بأنها لـو كانـت قـد ارتكبت هذه الجريمة فما عادت تستحق الحياة وما كان لها مكان أو مكانة في المجتمع، بل كان عليها أن تتخلَّص من حياتها بنفسها، وزادت فى قسمها أنَّها بريئة.. بريئة.. وبللت الرسالة بدموعها التي أشارت إلى أنها دموع الظلم الذى حاق بها، وأكدت أنَّها لا تعرف شيئًا عن ملابسات قتـل الطفلـة.. مـن الـذى قتلها.. وما الظروف التي تمت فيها واقعة القتل وحرق جثتها.. ما الـدافع إلى هذا القتل.. ومن وراءه.. وهل كان الزَّج بها في آتون الاتهام محـض صـدفة أم مكيدة مدبرة احكم الاعداد لها.. وأنهت حديثها بأنَّها حتى كتابة هذه الرسالة لا تصدق ما آل إليه حالها وكيف تلاحقت الأحداث لتصل بها إلى هذه النهاية المؤلمة.. بل إنَّ تخيلاتها المضطربة المتلاطمة الرافضـة تصـديق مـا حـدث تصور لها الواقع الأليم الذى أوصلتها الأحداث إليه أنَّه مجـرد حلـم مـزعج وكابوس مخيف مرعب لا تـدرى متـى تفيـق منـه.. وقـدمت رجـاء مكـررًا واستعطافًا ممزوجًا بالدموع أن أقف إلى جوارها وأتبنى قضـيتها وألا أتركهـا تواجه هذا المصير المؤلم دون الدفاع عنها.

كان لهذه الرسالة وقع مؤثر فى نفسى في هذا الوقت المتأخر من الليل وخصوصـا أنَّهـا وضـعت كـل ثقتهـا.. حياتهـا.. ماضـيها.. حاضـرها.. بـل ومستقبلها أمانة حملتنى إياها وطوقت عنقى بها..

ولم تنصرف السيدة حاملة الرسالة إلا بعد أن حملت رسالة شفوية منـى إلى الطبيبة السجينة تبلغها بقبولى الدفاع عنها.

وأرسلت فى طلب أوراق القضية.. وكل صغيرة وكبيرة تتعلّق بها.. كانت أحداثها مثيرة ومحيّرة.. كانت لغزًا تحار في فك رموزه العقول.

كان شابًا وسيمًا معجبًا ومزهوًا بنفسه مغرورًا.. مختالاً من حسن طلعته وجمال هندامه.. كان يستخدم أغلى أنواع العطور وأجودها والتى كانت تنساب على جسده بلا حساب.. كان أشبه بلمبة الكهرباء التى تتهافت عليها الفراشات من كل صوب.. كان سعيدًا مزهوًا فخورًا بذلك.. كانت هذه الفراشات هى الفتيات الحسان اللائى يتساقطن أمامه، وعلى الرغم من أنَّه كان عاطلاً يقضى لياليه فى السهرات الحمراء وينام طيلة نهاره إلا أنَّه كان مبسوط اليد من أموال النساء التى كان يعيش عليها.

ووجد ضالته المنشودة فى إحدى الفتيات.. كانت ثرية ابنة تاجر كبير.. دخل الأسرة ونفذ إلى قلب الفتاة وكأنَّه ميكروب فتاك لعين ينفذ خلسة ليفتك بصاحبه فلا يحس به إلا وقد أشرف على الهلاك.. بحديثه المعسول وأساليبه الملتوية.. اتخذ التاجر منه ابنًا وزوَّجه ابنته وأعدَّ له شقة فاخرة فى عمارته.. وكانت تغدق عليه بسخاء من مال أبيها الذى كان لا يبخل عليها بشئ.

ومرَّت الأيام وهو يرتع فى هذا النعيم، وقد بهر زوجته بحديثه المنمق العذب على نحو حال بينها وبين الوقوف على حقيقة واقعه، وانقضَّت ضائقة مالية على والدها تزايدت مع الأيام وبدأت تتكشف يومًا بعد يوم.. وانتهت بإشهار إفلاسه وكان ذلك إيذانا بإفلاسها تبعًا لذلك، ونضبت «حنفية» الثراء

وجفَّ ماؤها، وقلَّت النقود فى جيبه.. وهنا كشف عن وجهه القبيح وتبخَّرت كلمات الحب والهيام والغرام التى كان يمطر بها زوجته صباحًا ومساءً إلى سب وقذف ولعن.. وكشَّر عن أنيابه وفى خسة ونذالة طلَّقها بعد أن أتى على آخر مليم معها.. وأخذ معه ابنته الوحيدة تاركًا طليقته وحيدة مفلسة غارقة في بحور الألم والحسرة والندم.

وبدأ يبحث عن صيد جديد.. عن بقرة حلوب يستنزفها.. عن فريسة جديدة يلتهمها، ولأنَّه الصياد الماهر الذى لا تخطئ سهامه فى صيد فريسته التى تقع تحت بصره.. فقد وجه سهامه نحو تلك الطبيبة التى التقى بها فى عيادتها الخاصة بعد أن عرف كل ظروفها وجمع كافة المعلومات العامة والخاصة عنها.. كانت على وشك أن يفوتها قطار الزواج وأن تلحق بقطار العوانس.. كانت دميمة ترتدى «نضارة» سميكة متهالكة.. شعرها «أكرت».. ليس بها مسحة جمال تغرى أى شاب على التفكير فى الارتباط بها.. لكنَّها فى المقابل وهو المهم بالنسبة لهذا الشاب – كانت تملك أرصدة كبيرة فى البنوك، فقد عاشت فترة من الزمن تعمل ببلاد النفط.. جمع كل هذه «التحريات» عنها وما إن تأكد أنَّها «بنك متنقل» حتى سال لعابه أمام ثرائها، وبدأ العنكبوت ينسج خيوطه حولها، ولم تصمد طويلاً أمام فنونه ودرايته وخبرته فى الإيقاع بالنساء.. كانت كلمات الإعجاب أشبه بالسهم الذى أصاب سويداء قلبها.. حديث الحب والهيام والغرام الذى لم تسمعه من قبل يخترق أذنيها لأول مرة لينفذ إلى قلبها مباشرة.. وأحسّت بأنَّها فى النهاية

وجدت طوق النجاة.. وعليها أن تمسك به بكل قوتها مهما كان الثمن.. بعد اقتربت من أن تلحق بـ«مدرسة العوانس».. نظرت لنفسها فى المرآة كثيرًا وصوت كلماته المعسولة ترن فى أذنيها وهى لا تصدق أنَّ هذا الغزل الرقيق يخصها.. أوهمها أنَّها واحة الأمان بالنسبة له، واختلق لها قصة من تأليفه، فقد تعوّد سلك دروب النصب والاحتيال.. أقنعها أنَّه عانى الجحيم من زوجته الأولى، وقد آن الأوان أن يعيش فى جنتها تغمره بحبها وتحيطه بحنانها.. أدخل فى روعها أنَّ الجمال نقمة وليس نعمة، فقد كان جمال زوجته الأولى وبالاً عليه، إذ قتله الشك ومزَّق قلبه وأطار عقله وكان سببًا فى فصله من عمله من كثرة مراقبتها وتتبعه كل حركاتها.. كانت سببًا فى أن ينقطع عن عمله، ورفع يديه ورأسه إلى السماء وهو يشكر الله على لقائه بها، وأنَّ هذا اللقاء كان أجمل قدر فى حياته وأنَّ الأيام أرادت أن تنصفه فى النهاية عندما رآها.. لقد رأى فيها العقل الراجح الذى افتقده فى زوجته الأولى.. أحسَّ فى عينيها بالطمأنينة الذى هو فى أمسّ الحاجة إليها.

وأمام ذلك نفضت الطبيبة عن كاهلها كل ما هو قديم وبدأت تجرى وراء أحدث فنون «الموضة» فى الملابس وتتردد على أغلى محلات «الكوافير» وتقتنى أحدث أنواع «الباروكات».. بدأت تخرج أموالها التى اكتنزتها بعد أن قترت وبخلت على نفسها طويلاً.. وتمنحها له بزعم إقامة مشاريع أوهمها بها.. كانت فى حقيقتها سرابًا.. كانت تصدقه فى كل حركة وكلمة.. تعوَّدت أن تقول له «آمين» على طول الخط وهى تسمع حلو حديثه

وهو يقنعها بأنَّ فارق السن فى الزواج أمر سطحى لا يحتسبه إلا «التافهون».. «المراهقون».. مختلو التقدير والتقويم السليم، وهكذا أغلقت بنفسها على عقلها بـ «الضبة والمفتاح».. وانصاعت وراءه وتزوَّجته.

وبمرور الأيام تحوّلت إلى «عجينة» بين أسنانه.. وزاد لين هذه العجينة حينما تبيَّن أنها عاقر.. وبدلاً من أن تتخذ من الطفلة ابنة زوجها ابنة لها تعوّضها عن أمومتها المفقودة بدأت تفتح النيران على الطفلة وتملكتها الغيرة منها.. وكلما نظرت إليها تذكَّرت كلمات الجمال التى كان يرددها والد الطفلة عن أمها، وأصدرت «فرمانا» بمنع الطفلة من الاتصال بأمها بأية وسيلة، وفرضت عليها ستائر حديدية وأسلاكًا فولاذية بل ومنعتها من الخروج والاتصال بالتليفون.. كانت ترى فيها عدوًا بلا سبب.. غير ذلك الوهم الذى كان يسيطر على خيالها العقيم أنَّه سوف ينقض على سعادتها في أية لحظة فيخرجها من جنة حياتها ويفيقها من هذا الحلم الجميل الذى تعيش فيه، وبدأ الشك يساورها فى زوجها وينهش فى فكرها.. بدأت تلازمه فى كل خطواته حتى أصبحت كظله الدائم فإذا تحدث فى «التليفون» كانت ترفع السماعة الأخرى لتتنصت عليه خوفًا من أن يكون المتحدث الآخر «ضرتها» وكان من الطبيعى أن يضيق الزوج ذرعًا بهذا «السجن الانفرادى» وهذه المراقبة التى فرضتها عليه، وأحسَّ بأنها أصبحت كابوسًا تجثم على صدره وقيدًا على مجونه ونزواته ومغامراته الطائشة، ولم يقف تفكيرها عند هذا الحد، فقد أحسَّت على الوجه المقابل بأنَّ ابنة زوجها هى مسمار جحا فى

نعش حياتها الزوجية.. وأنَّ هذه الطفلة هى الجسر الذى يـربط بـين حاضـره وماضيه.. وبدأت الوساوس والهواجس تطاردها ليلاً ونهارًا بـل واسـتبد بهـا الخيال فى أن يكون زوجها قد عاد إلى زوجته الأولى وردَّها إلى عصمته سرًا أو أنَّه فى سبيله إلى ذلك.

وذات مرة عادت الطبيبة من عملها ورأت الطفلة تتحدث مع أمهـا في التليفون فلم تتمالك نفسها وانهالت عليها بالضرب المبرح وزادت صرخات الطفلة وحضر الجيران وأنقذوها من بين يـديها.. وشـكت الطفلـة للجيـران سوء معاملة زوجة أبيها لهـا، وأنَّهـا تهـددها بكيهـا بالنـار والمـوت لـو أنَّهـا تحدثت مع أمها مرة أخرى.

وعندما حضر الزوج شكا له الجيـران مـا حـدث مـن زوجتـه لابنتـه واستنكروا فعلتهـا وعنتهـا وقسـوتها وسـوء معاملتهـا لتلـك الطفلـة البريئـة وانصرف الجيران، واعتقدت الطبيبة بعدما سمعت ما قالـه الجيـران عرضًـا لسوء معاملتها لابنة زوجها.. أنَّه سيوبّخها ويؤنبها وسيثأر لها وسيتخذ موقفًا صارمًا وحادًا يحول دون تكرار ذلك مستقبلاً أمـام دمـوع ابنتـه التـي كانـت تصرخ طالبة النجدة منه وأن يحميها مـن هـذا العـذاب المتكـرر، لكـن هـذا التفكير ما لبس أن تبدد.. وضاع أدراج الرياح، فقد انقلـب الـزوج عـلى ابنتـه الصغيرة وطلب منها –في لهجة صـارمة– تنفيـذ أوامـر زوجتـه وقـال لهـا فى عصبية:

- دى أحسن من أمك ألف مرة.. ومن حقها تربيك التربية السليمة.

ولم تمض على هذه الواقعة سوى أيام قليلة.. خرجت الطبيبة لعملها بالمستشفى كالمعتاد وتركت الطفلة وحدها كالعادة بالشقة.. وعادت فى الظهيرة.. ودقَّت جرس الباب ولم يفتح أحد.. اعتقدت للوهلة الأولى أنَّ الطفلة نائمة وقامت بفتح الباب بالمفتاح الذى تحمله معها.. ودخلت الشقة ونادت عليها ولم يرد أحد، وما إن فتحت باب إحدى الغرف الخالية بالشقة حتى تسمَّرت فى مكانها عندما وجدت الطفلة ملقاة على الأرض وهى جثة متفحمة.. وعقدت المفاجأة لسانها لبرهة يسيرة وخرجت تصرخ وتستغيث بالجيران.

وباشرت سلطات التحقيق.. التحقيق في القضية.

وتبيَّن من تقرير الأدلة الجنائية التى انتقلت فور الحادث إلى مسرح الأحداث أنَّ هناك آثارًا لمادة «البنزين» وأنَّ النيران اشتعلت فى الجثة بعد سكب البنزين عليها فشوَّهت معالمها تمامًا.. وحضر الزوج وبكى بكاءً مريرًا منتحبًا بهيستيريا وهو يصرخ بأنَّه فقد أعز شئ لديه.. خسر ابنته الوحيدة التى خرج بها من الدنيا.. أمله الوحيد في الحياة.. فلم يكن أمامه فى الحياة من أمل في الذرية سواها خاصة وأن زوجته الطبيبة عاقر.. وكال لزوجته الاتهام.. وهمَّ في ثورته العارمة بالاعتداء عليها.. لولا إبعاد رجال الشرطة له وطلبهم منه الهدوء والروية كى يصلوا إلى الحقيقة.. وصاح الأب وصرخ صرخة من أعماقه اهتزَّت لها قلوب رجال التحقيق.. الحقيقة واضحة مثل الشمس.. هى التى قتلت ابنته وحرقتها، وأنَّها مجرمة آثمة يديها ملوثة بدماء ابنته

الطاهرة، وأورد أنَّ الغيرة والوهم كانت تنهش فى قلبها وتلغى عقلها إذ راودتها الشكوك في الفترة الأخيرة بأنَّه سيعيد أمها إلى عصمته، وكلما سيطر عليها هذا الخيال.. زاد سوء معاملتها للطفلة.. والاعتداء عليها بسبب وبدون سبب، واستشهد بالجيران الذين أيدوا روايته كاملة وشهدوا بما رأوه من إهانات واعتداءات بالضرب على الطفلة.. وأنَّهم كثيرًا ما سمعوا صراخها وهى تستغيث من اعتداءات زوجة أبيها.

وانتهى الزوج فى شهادته على الإصرار بطلب القصاص العادل منها حتى لا يضيع دم ابنته الوحيدة هدرًا وأنَّه لن يرتاح له بال ولن يهدأ له حال ولن يستقر له فكر إلا وحبل «عشماوى» وقد لفّ على رقبتها.

وقرأت أوراق القضية مليًا وتصفَّحتها وأمعنت في تحليل أحداثها في أدلتها وخاصة تقرير الصفة التشريحية، فقد استوقف نظرى وأنا أتفحص كل كلمة فيه بدقة وإمعان متناهيين.. أمر فى غاية الأهمية فى الدعوى الماثلة.. مؤثر في مصيرها وفى وزن وتقدير الأدلة في الدعوى.. يقلب كافة الموازين فيها.. ذلك أنَّه من عادتى فى إقران هذه القضايا أن أمعن فى تمحيص الدليل الفنى «تقرير الصفة التشريحية».. وأن أقرأ كل كلمة فيه بروية ودقة وتحليل لكل لفظ فيه.. إذ يغلب على الكثير قراءة نتيجة التقرير دون المقدمات التى تبنى عليها هذه النتيجة، وقراءة المقدمات أمر ضرورى ومنطقى، إذ يبين منها كثير من الجزئيات على نحو مفصل لا يمكن الوقوف على النتيجة الصحيحة والحقيقية إلا بربط هذه النتيجة بتلك المقدمات في استخلاص منطقى سائغ

لا يشوبه أي عسف أو شطط.

استوقف نظرى أنَّه بالكشف الظاهرى على الجثة تبيَّن أنَّها لفتى في الثانية عشرة من العمر.. ولأنَّ الجثة كانت متفحِّمة فإنَّ الطبيب الشرعى لم يستطع أن يحدد كيفية الاعتداء الذى وقع على المجنى عليها والآلة المستخدمة في الاعتداء ومواضع هذا الاعتداء من جسد الجثة.. وإن كان قد أثبت أنَّ الحروق التى وجدت بالجثة غير حيوية، أى أنَّ الوفاة قد حدثت أولاً ثم تم إشعال النار فيها..

كانت كلمة «فتى» الذى يبلغ من العمر اثنى عشر عاما هي طوق النجاة، هي المفتاح الذى سيفتح الأبواب المغلقة على الحقيقة التي قدَّر لها أن تقبر خلف هذه الأبواب.. وكان عليَّ ابتداء لكى أقتحم الأسوار المنيعة لتلك القضية أن أحرر وأودع أسباب النقض في الميعاد القانوني –أربعين يومًا من تاريخ الحكم قبل تعديلها إلى ستين يومًا– وأودعت مذكرة بأسباب النقض تضمنت فيما تضمنته النعى على الحكم بالخطأ في الإسناد على نحو أورده مورد البطلان، إذ أنَّ البيّن من أوراق الدعوى وما انتهت إليه النيابة قيدًا ووصفًا للواقعة وما جرت عليه محاكمة الطاعنة وما أوردته المحكمة فى مدونات حكمها أنَّ الجثة هى جثة ابنة زوجها «فتاة» فى حين أنَّ الجثة التى جرى تشريحها – من واقع تقرير الصفة التشريحية وما أورده تحت بند «الكشف الظاهرى» – كانت جثة فتى أى ولد، وشتان بين الاثنين، كما أنَّ الفتاة المقول بقتلها تبلغ من العمر سبع سنوات، في حين أنَّ الجثة لفتى يبلغ

اثنى عشر عامًا.. وإذ كانت المحكمة قد أسست قضاءها في إدانة الطاعنة وثبوت التهمة قبلها وهى قتل طفلة «بنت» عمرها سبع سنوات.. وذلك على خلاف الثابت فى تقرير الصفة التشريحية –على النحو المار بيانه في الأوراق– فإنَّ الحكم المطعون فيه يكون قد أقام قضاءه بما يخالف الثابت فى الأوراق، وينبئ أنَّ الواقعة لم تكن واضحة أمام عيون المحكمة مستقرة فى وجدانها استقرارًا يؤمن معه القول إنَّها عندما قضت الدعوى كان قضاؤها عن بصر وبصيرة خاصة وأنَّ من المقرر أنَّ الأحكام يجب أن تبنى على أسس صحيحة من أوراق الدعوى فإذا كان مبناه ما يخالف الثابت فى الأوراق أو ما لا أصل له فيها فإنَّه يكون مشوبًا بعوار البطلان وبالخطأ فى الإسناد والقضاء بما يخالف الثابت فى الأوراق..

وانتهت محكمة النقض إلى قبول الطعن بالنقض وإلغاء الحكم المطعون فيه وإعادة محاكمة المتهمة أمام دائرة أخرى..

وبذلك تم التغلب على عقبة كبرى كانت تحول بين المتهمة وبين الحياة، وقد كان مصيرها حتمًا الإعدام فيما لو رفض الطعن بالنقض خصوصًا وأنَّ التهمة المنسوبة إليها تهمة شنعاء وجريمة نكراء تشيب لها الرؤوس وكانت موضع ازدراء واستهجان من كثيرين ممن واصلوا متابعة أحداث هذه القضية إعلاميا.. متعاطفين مع الأب.. منحازين وبقوة وإصرار نحو إعدام تلك الطبيبة التي انتزعت الحياة من طفلة بريئة لا جريرة لها ولا ذنب وأنَّ الجميع في ترقب واستعجال لذلك اليوم الذى ينفذ فيه حكم الإعدام لتكون عبرة

لكل من تسوّل له نفسه الاستهانة بأرواح الأبرياء وبالنفس البشرية التي حماها الله وحباها وحافظ عليها وحرم قتلها بغير حق.

كان نقض الحكم وإعادة محاكمة المتهمة من جديد أمام دائرة أخرى بادرة خير -من وجهة نظرى- خاصة وقد انتابنى إحساس وراودنى فكر استبد بى فى أنَّ هناك سرًا ولغزًا محيرًا وراء هذه الجريمة وأحداثها لابد من فك طلاسمها.

كانت جلسة المحاكمة الجديدة للمتهمة.

اكتظت القاعة إلى آخرها بالحاضرين فلم يكن فيها موضع لقدم.. جاء الجميع ليشهدوا نهاية هذه المرأة الشريرة الآثمة المجردة من أي إحساس أو عقل أو منطق أو ضمير أو دين.. جاءوا ليسمعوا حكم الإعدام من جديد، وقد أدهشهم إلغاء الحكم الأول وتساءلوا في غرابة ودهشة.. بل وفى استهجان من بعضهم.. كيف يلغى هذا الحكم وهى القاتلة اللعينة لطفلة بريئة.. بل لم تكتف بقتلها فأشعلت النيران في جسدها الطاهر البرىء.. وحكم الرأي العام المسبق سيف مسلط على رقاب الجميع لا يمكن إغفاله أو تجاهله خصوصًا في قضايا الرأي العام.. عندما يتأثر هذا الرأي لحدث معين فيتعايش معه وكأنَّه طرف من أطرافه.. فيصدر أحكامه الخاصة وينصب من نفسه محققًا وقاضيًا يصدر أحكامًا تحكمها الأهواء والعاطفة والرؤية الشخصية وعدم الإلمام والدراية بالأدلة في الدعوى التي لا يستطيع أن يقدرها أو يدلى بدلوه الصحيح فيها إلا أربابه من المتخصصين والفنيين

والقارئين والباحثين والمحللين لوقائع الدعوى والظروف التي وقعت فيها وأدلتها ومواد القانون المنطبقة عليها.

وجاءت لحظة المحاكمة..

وقفت فى قفص الاتهام شاردة واجمة يرتسم أمام عينيها شبح حبل المشنقة الذى مازال يطاردها.. كانت شاخصة ببصرها إلى السماء وكأنَّها تدعو الله أن يقف إلى جوارها وأن يبدد هذا البلاء الذى حلَّ بها .. أما الزوج فقد حضر إلى الجلسة باكيًا مهللاً صارخًا مفوضًا أمره إلى الله فيها.. وفى المصيبة التي ألحقتها به.. فقد قتلت أعز الناس إليه.. ابنته الوحيدة.. فدمَّرت حياته.. وقضت على آماله في الحياة.. فقد كانت ابنته الوحيدة.. معلنًا أن إعدامها لن يشفى غليله وأنَّ كنوز الدنيا لن تعوّضه عن ضياع ابنته التى اغتالتها تلك الزوجة الشريرة منعدمة القلب والإحساس والضمير.

كان هذا هو حديث الزوج أمام المحكمة، وقد مسَّ شغاف قلوب الحاضرين وأدمى قلوبهم على الطفلة الضحية البريئة بل إنَّ البعض قد اغرورقت عيناه بالدموع.

ثم أعقب ذلك مرافعة النيابة التى تركزت على أنَّه لابد من تطبيق مواد الاتهام عليها «٢٣٠، ٢٣١» من قانون العقوبات.. والتى تقضى بإعدامها شنقًا جزاء وفاقًا لفعلتها الشنعاء التي يهتز لها عرش السماء، فقد ارتكبت إثمًا لا يغتفر وجريمة لا مناص من القصاص لها، وصوَّر المتهمة على أنَّها وحش كاسر تجرَّدت من آدميتها وإنسانيتها وضميرها.. فباعت آخرتها

بدنياها.. ولبست ثوب الوحوش فى الغابة وانقضت بلا شفقة ولا رحمة وقد تحجَّر قلبها وتيبست مشاعرها وهى تقتل طفلة بريئة غيلة وتسكب البنزين عليها لتقضى على كل أثر لها فى الحياة حتى تستأثر بحب زوجها وتستحوذ عليه.. فكانت بمثابة الدبَّة التي من فرط حبها لصاحبها قتلته.

وتساءل فبعد كل هذه الوحشية.. يتعين ألا ننظر إليها إلا من عين واحدة هي عين القصاص.. القصاص العادل.. واستشهد بقوله تعالى.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾وقوله ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾ وبالقصاص العادل لقوله : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ وأنهى مرافعته كما بدأها بالمطالبة بإعدامها وألا تأخذ المحكمة رأفة بها فى دين الله، فمن لا يرحم لا رحمة له.

وطلبت المحكمة منى كدفاع المرافعة.

وكان طلبى الذى أصررت عليه مناقشة الطبيب الشرعى الذى أجرى تشريح الجثة والذى كان حاضرًا معلنًا من النيابة مع بقية شهود الإثبات طبقًا لما يستوجبه القانون من إعلان شهود الإثبات بالجلسة المحددة.. وتم سؤالى له..

سألته:

- ثبت فى تقريرك أنَّ الجثة لفتى فماذا تقصد بهذه العبارة..

- فأجاب وهو فى دهشة من سؤالى، ولم يدر بخلده أنَّ هـذا السـؤال هـو مقطع النزاع فى تلك القضية وأنَّه طوق النجاة بالنسبة للمتهمة، بل وإن إجابته ستقلب القضية رأسًا على عقب فأجاب إجابة ملأها التهكم:

- معروف أنَّ الفتى يعنى ولد والفتاة تعنى بنت.

ولاحقته بسؤال آخر حتى أضع آخر نقطة على الحروف.

- هل الجثة التى قمت بتشريحها لولد أم بنت؟

فأجاب والثقة تملأ صوته إلى حد استهجان هذا السؤال.

- بالتأكيد ولد.

فعاودت سؤاله:

- تبين أنَّ الجثة كانت محترقة فكيف توصَّلت إلى أنَّها جثة ولد؟

فأجاب إجابة تقطر غيظًا وكأنى أتهكم على قدرته العلمية.

- ده شغلى.. وعلى العموم الجهاز التناسلى للذكر يختلـف عـن الأنثـى، وقد تبين لى من فحص الجثة وتشـريحها أنَّ الجهـاز التناسـلى للجثـة خـاص بذكر.

واستطردت فى سؤاله:

- ما سن الجثة التي قمت بتشريحها؟

- قرر أنَّ سن المجنى عليه اثنى عشر عاما.

فعاودت سؤاله:

وكيف استطعت تحديد هذه السن علميًا؟

- بالكشف على مقاطع الأسنان أمكن تحديد ذلك.

وباستطراد سؤاله.

هل يمكن من الناحية الفنية بالكشف الطبى تحديد سن طفل عمره سبع سنوات؟

- طبعًا. كلها أمور تعتمد على أسس علمية.

فعاودت سؤاله.

هل من الممكن أن تنتهى نتيجة الكشف على جثة طفل سنه سبع سنوات أن تأتى النتيجة بأنَّه في الثانية عشرة من عمره؟

- فأجاب مستهجنًا السؤال.

- بالتأكيد لا.

ثم أعلنت أنَّ سؤالى له سيكون السؤال الأخير.

- قررت أنَّ الحروق التى بالجثة حروق غير حيوية أى بعد الوفاة فهل تبينت سبب الوفاة الأصلى؟

أجاب:

- لم أتبين من الجثـة وجـود إصـابات قطعيـة أو رضـية نظـرًا لتفحمهـا وبالكشف على عظام الجثة لم يتبين لى وجـود أيـة كسـور بهـا أو أي إصـابات أخرى وعلى ذلك فإنَّه من الناحية العلمية مـادام أنَّ الحـروق ثبـت أنَّهـا غيـر حيوية أي أنَّ الحروق حدثت بعد الوفاة أي لم يكـن المجنـى عليـه عـلى قيـد الحياة وقت حرقه وإنما كان ميتًا مفارقًا للحياة.

وطلبـت مـن المحكمـة سـؤال الـزوج بعـد مناقشـة الطبيـب الشـرعى فاستجابت لذلك.. فسألته:

ما رأيك فيما ورد بحديث الطبيب الشرعى من أنَّ الجثة التـى وجـدت فى الشقة لذكر وليست لأنثى وأنَّ عمر الجثة اثنى عشر عامًا، في حـين أنَّ ابنتـك تبلغ من العمر حسب شهادة الميلاد التي قدمتها سبع سنوات؟

فامتقع وجهه غيظًا وبانت حدّة الشراسة على ملامحه، وهو يـرد بـأنَّ هـذا تهريج وعبث وإهدار لدم ابنته.. بل وتطاول فى حديثه عـلى الطبيـب الشـرعى بكلمات نبهته المحكمة أنَّها ستأخذه بالعقاب إن لم يلتزم بأدبيات المحاكمة.

وأعدت سؤال الزوج:

- هل يوجد مفتاح آخر للشقة مع أحد غيرك وزوجتك؟

فأجاب وقد ازدادت عصبيته وارتباكه.

- بالطبع لا هى الوحيدة التى معها المفتاح وأنـا لـيس معـى أى مفتـاح للشقة.

وفى تلك اللحظة..

خرجت الزوجة عن صمتها الذى لاذت والتزمت به منذ بداية الجلسة وصرخت بأعلى صوتها من داخل قفص الاتهام:

- «لا تصدقوه إنَّه كاذب وسألته فى دهشة.. لماذا تكذب؟ لماذا تخفى الحقيقة.. انت معاك مفتاح زيى.. ليه بتكذب؟ وتقصد إيه من كده.. حرام عليك اتقى الله وقول الحقيقة».

وطلبت المحكمة منها التزام الصمت والهدوء ومنى المرافعة..

طلبت لها البراءة وبحق على سند من أنَّ حديث الادعاء وقولة الاتهام على المتهمة أنَّها قتلت ابنة زوجها مما كان يقتضى بطريق اللزوم الواقعى والفنى والدلالى أن تكون الجثة التى عثر عليها فى مكان الحادث والتى تم تشريحها جثة فتاة.. وأنَّ عمرها سبع سنوات.. وذلك على نقيض ما ثبت بالدليل الفنى الذى لا يكذب أنَّ الجثة لذكر وليس أنثى وأنّه يبلغ من العمر اثنى عشر عاما وليس سبع سنوات.. وهو ما أكده على نحو قاطع وجازم الطبيب الشرعى الذى شرح الجثة.. أولاً أنَّ الجثة التي تم تشريحها كانت محترقة تمامًا مختفية المعالم.

ثانيًا.. إنَّها لذكر وليست لفتاة.. ودلل على ذلك وأسس رأيه على أسس علمية سليمة أوردها أمام المحكمة.

ثالثًا.. أنَّ الجثة موضوع الاتهام لذكر يبلغ من العمر اثنتى عشـرة سـنة، في حين أنَّ عمر المجنى عليها سبع سنوات عـلى نحـو يسـتحيل معـه أن تكـون الجثة المعثور عليها جثة ابنته التي تبلغ من العمر سبع سنوات.

رابعًا.. أنَّ الحروق.. حروق غير حيوية أي حدثت بعد الوفاة مما ينبئ أنَّ حرق الجثة كان بعد وفاتها وأنَّه من واقع حديث الطبيـب الشـرعى لا يمكـن القطع لسبب الوفاة.. هل نتيجة اعتداء بأية آلة عليه؟ لم يستطع تحديدها أم أنَّ الوفاة طبيعية؟

وركونًـا إلى هـذه الحقـائق العلميـة المؤكـدة والموثَّقـة بشـهادة الطبيـب الشرعى المشرع فـإنَّ الجثـة موضـوع الاتهـام ليسـت للطفلـة نجلـة الـزوج المدعى بقتلها من المتهمة.

وهنا وقف وكيل النيابة المترافع متسائلاً في انفعال:

- أمال الجثة تبقى جثة مين؟

وأجبت على الفور:

- ذلك ليس شأن المتهمة أو الدفاع، وهو شأن وواجـب عـلى سـلطات البحث والتحقيق.. وكل ما يعنى الدفاع فى المقام الأول إثبات أن ما أسند إلى المتهمة من قتل ابنة الزوج أمر بات من المتيقن أنَّه مخذول من زاوية الواقع، ملفوظ من الوجهة الفنية، متناقضًا تناقضًا يستعصى معـه المواءمـة والتوفيـق مع الـدليل الفنـي في الـدعوى.. وبـات عـلى نحـو جـازم وقـاطع أنَّ التهمـة

الموجهة للمتهمة من قتلها ابنة زوجها ليست قائمة على سند من الواقع أو الحقيقة أو الدليل المعتبر قانونًا.

واستطردت فى دفاعى.. أنَّ الواقعة قد خلت من شاهد يشفى غليل الحقيقة المفقودة فى الدعوى والتي هى ظلال سوداء حجبت رؤيتها.. بل وحالت دون الوصول إليها.. لسنا أمام شاهد رؤية يشهد أنَّه رأى المتهمة وهى ترتكب الحادث، فالحقيقة فى الدعوى لها صورة مجهولة وخصوصًا أنَّ الزوج معه مفتاح وتقليد مفتاح لباب أي شقة.. ليس أمرًا مستعصيًا أو عسيرًا، وشهادة الجيران قطعت بأنَّ الزوجة عندما فتحت الباب فى هدوء وطمأنينة فوجئت بالجثة فتعالت صرخاتها فى هيستيريا.

وأنهيت مرافعتى:

- تلك هى الحقيقة المتيقنة الآن أنَّ المتهمة لم تقتل ابنة زوجها وأنَّ الجثة التي وجدت محترقة في الشقة جثة طفل آخر.. وهى ليست مكلفة هى أو الدفاع بالبحث عن صاحب هذه الجثة أو الوقوف على سر اختفاء الطفلة.. إنَّ وراء اختفائها سرًا.. أنا على يقين أنَّ الأب يعلمه جيدًا وعلى الشرطة والنيابة العامة، باعتبار أنَّها الأمينة على الدعوى العمومية مواصلة البحث والتحقيق وصولاً إلى الحقيقة وهداية للصواب الذى ينشده ويطلبه الجميع.. أين اختفت الطفلة.. ومن الذى أخفاها وما مقصده من ذلك.. وما سر الجثة التي وجدت محترقة في الشقة.. ومن الطفل صاحب هذه الجثة؟!

وانتهت مأساة الطبيبة وشبح حبل المشنقة الذى كان ملتفًا حول رقبتها.

نطق رئيس المحكمة بعد مداولة في القضية امتدت حوالى أربع ساعات احتبس الجميع أنفاسهم وصوت القاضي يعلن..

حكمت المحكمة ببراءة المتهمة مما أسند إليها من اتهام.

سقطت مغشيًا عليها.. حاول الجميع إفاقتها أكثر من مرة بعد أن سمعت حكم البراءة وكأنَّها لا تصدق أنَّها ولدت من جديد.. وأنَّه قد كتبت لها الحياة مرة أخرى.

ومرَّت الأيام والطبيبة تتردد على مكتبى بين الحين والآخر من قبيل السؤال والتعبير عن العرفان بالجميل.. كانت تقصُّ لى بحرارة عن دفء الأيام الخوالى التى عاشتها مع زوجها وأنَّها كانت سعيدة معه بلا حدود، رغم المبالغ التى نهبها واستنزفها منها، ومع كل ما صنعه بها ومعها وما لاقته منه من قسوة الاتهام الذى كاد يودى بحياتها.. إلا أنَّ الحنين كان يعاودها، وكانت تحلم بأن يعود إليها مرة أخرى وتتلمس له الأعذار فيما أقدم عليه.. وهجرته.. وتركه مصر بعد الحكم ببراءتها.. وتلك مأساة الحب فى كل زمان ومكان عندما يكون من طرف واحد أو إذا كان محمولاً على المصلحة المجردة.. إنَّها عيون المحب المسحورة بالمحبوب فلا يرى عيوبه ولا يحس بسوء تصرفاته مهما اتسمت بالخسة والندالة.. وصدق المثل.. «حبيبك يبلع لك الزلط» أو «مراية الحب عمياء».

كان يحلو لها سماع سيرته وتقصى أخباره مـن أصـدقائه.. ولم تيـأس من التفكير فيه حتى بعد أن عرفت أنَّه سـافر إلى الخـارج وتـزوَّج مـن سـيدة أخرى توسَّم فيها الثراء والبذخ والإنفاق عليه بلا حدود.. كانت النار تـنهش فى قلبها وهى تروى لى هذه القصة، ولكنَّ حبَّها له لم يتزحزح من قلبها وحديثه الحلو لم يفارق أذنيها وصـورته الأنيقـة لم تبـرح عينيهـا والأمـل في عودتـه لا يفارقها لحظة.

وذات يوم جاءت لزيارتى كالمعتاد.. كان الحزن يمـلأ عينيهـا وهـى ترتدى ملابس الحداد، وأخبرتنى بصوت مفجوع بأنَّ زوجها قد لقى حتفه فى الخارج فى حادث أليم.. إذ اكتشفت زوجتـه الأجنبيـة التـي تكبـره بعشـرات السنين أنَّه يعبث بمشاعرها.. وبخيانتـه لهـا.. واسـتيلائه عـلى أموالهـا التـي ائتمنته عليها وأطلقت يده في التصرف فيها.. كما اكتشـفت وتأكـدت أنَّـه قـد أعدَّ الخطة للتخلص منها والهرب بأموالها.. فقررت الخلاص منـه حتـى لا ينعم بثروتها..

وكانت المفاجأة الكبرى التي هزَّت كيانها.. وبدَّدت شعورها نحـوه وأنَّـه كان وهمًا لا يستحق أنَّ ابنته مازالت على قيد الحياة وأنَّها كانت فى صـحبته فى الخارج وقد أعادتها السفارة إلى أمها.

واسـتطردت وهـى تبكـى بكـاءً ملأتـه الحسـرة والنـدم والاسـتغراب متساءلة..

لماذا قابل وفاءها وإخلاصها له بالغدر والخسة والنذالة .. كيف أنَّه لم يكتف بما سلبه منها من أموال.. لم يقف طمعه عند حد.. دبر اتهامها للخلاص منها حتى يحكم عليها بالإعدام ويرث أموالها كى يخلو له الجو ليقتنص صيدًا جديدًا بعد أن هرَّب ابنته إلى الخارج.

وسألتها كيف توصَّلت إلى كل هذه الحقائق.

فأجابت والأسى والحسرة يعتصران قلبها.

بعد عودة ابنته من الخارج تسلمتها أمها وأبلغت الشرطة بالحقيقة كى تثبت براءتى فعلاً وواقعًا غير مكتفية بحكم المحكمة بالبراءة..

ونشطت الشرطة بعد هذا البلاغ وأجرت التحريات بحثًا عن الحقيقة، وقد تحققت من هذه التحريات أنَّ الزوج هو الذى دبَّرها لكى يتخلَّص منها.. ويعيش مع صيده الجديد ويرث أموالها بعد إعدامها.. وأنَّه فكَّر في خسة ودبَّر في ندالة وخطط بلا ضمير لإنجاح فكرته الشيطانية فاتفق مع «تربى» كى يحضر له جثة فتاة فى سن ابنته توفيت في توها.. موهمًا إياه أنَّه أستاذ بكلية الطب وأنَّه يسعى لشراء الجثة حتى يدرِّب طلابه عليها، إلا أنَّ القدر لم ينصفه ووقف إلى جانب زوجته لينقذها من حبل المشنقة، إذ لم يتمكن «التربى» من العثور على جثة طفلة ميتة حديثًا.. وكل ما وقع تحت يده جثة هذا الطفل.. فقدَّمها إليه.. وتسلَّمها منه فى عجلة من أمره.. دون أن يتبين أمر هذه الجثة.. ووضعها في عجالة في الشقة وسكب عليها البنزين ونفذ جريمته دون أن يدرى فيما إذا كانت الجثة ذكرًا أم أنثى وأشعل فيها النيران

كى تأتى عليها تمامًا، ولكن إرادة الله كانت فوق كل إرادة وتفكير وتدبير وتخطيط، وانكشفت نذالته وانفضح سره.. وخرج من الدنيا ولم يأخذ منها سوى الذنوب واللعنات.. ودعاء المظلومين.. فلا رحمة له فى الأرض ولا فى السماء..

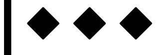
كانت هذه آخر كلمات الزوجة.. المخدوعة..

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة
المحامي بالنقض

القضية الرابعة

صراع مع الوهم



■■ صراع مع الوهم

وقعت أحداث هذه القضية وباشرت تحقيق وقائعها أثناء عملي كوكيل نيابة بالجيزة.. كانت أحداثها مثيرة، أقرب من الخيال، بعيدة عن الواقع.. تجمع بين جناحيها الخير والشر والحب والكراهية.. الصفاء والغدر.. الحب والانتقام..

كانت في العشرين من عمرها جميلة رشيقة ممشوقة القوام.. بيضاء البشرة.. حباها الله بخضرة العينين التي كانت تشعّ جاذبية لا تقاوم.. كان شعرها الذهبي تاجًا يزين كل هذه المحاسن والمفاتن.. تمتلأ حيوية وشبابًا ورقة وعذوبة وخفة دم على حدّ قول كل من التقى بها لا تقاوم.. تقدَّم لخطبتها الكثير من الشباب.. معظمهم في مراكز مرموقة رغم أنَّهم على أولى درجات سلم الحياة.. لكنَّ الرفض منها كان الجواب الدائم الذي كان محل استغراب الجميع.. وتساؤلاتهم التي لا تنقطع ما علَّة هذا الإضراب عن الزواج.. طالما أنَّ من تقدموا لخطبتها شباب زي الورد أمامهم مستقبل عريض..



ويمتاز الكثير منهم بحسن السمعة والاستقامة، وهو أمل يراود أي فتاة ويداعب أحلامها، وهى تسبح بخيالها في انتقاء شريك حياتها.. تساءل الكثيرون وزاد تساؤلهم.. هل هي على علاقة حب ملك عليها فكرها واستحوذ على أحاسيسها وأغلق قلبها على هذا المحبوب.. فما باتت ترى غيره ملكًا توّجته على عرش قلبها.. وأعطته مفاتيح خزائن حبها ومشاعرها وسلَّمته مقاليد مستقبلها بل وحياتها كلها.

وخاب ظنّ الجميع وطاشت كل خيالاتهم وتوقعاتهم وأفاقوا من أحلامهم على وقع ذلك الخبر الذى كان مسار دهشتهم وحيرتهم.. رافضين تصديقه أو حتى تخيّله أو مجرد تصوره..

أخيرًا قررت أن تتزوج من كهل قارب السبعين من عمره، وأصرَّت على هذا الزواج رغم الفارق الكبير الذى يقترب من الخمسين عامًا بين سن كل منهما.. وباركت أسرتها الفقيرة زواجها من الكهل الثرى الذى انتشلها بثرائه من حياة المعاناة والفقر والحرمان.. إلى حياة الرفاهية والعز والأمان، نقلها لتعيش معه في الفيلا الفاخرة التي اشتراها خصيصًا لها واشترى لها سيارة فارهة وأفخر الملابس.. وأحضر لها العديد من الخدم.. ليكونوا رهن إشارتها..

وعاشت مع زوجها الكهل الذى دبّت فى جسده الهزيل كومة من الأمراض.. ممرضة قبل أن تكون زوجة.. تعطيه الدواء في نهاره وتواصل السهر على تمريضه ليلاً.

ولم تمض سوى سنة وبضعة شهور حتى زادت مشاكله المرضية واشتدَّ عليه المرض وتدهورت صحته حتى وافاه الأجل.. وقد ترك لها ثروة كبيرة وأموالاً كثيرة فى حساباتها فى البنوك فضلاً عن امتلاك أراضٍ قام بشرائها باسمها.

وأحسَّت الفتاة الحلوة الجميلة التي باتت تزهو بجمالها ومالها.. وقد تبدَّل الفقر وحلَّ محلَّه الغنى والثراء والثروة والملابس والروائح النفاذة والسيارة الفارهة.. أنَّ عليها أن تنطلق وأن تخرج من القمقم الذى دفنت نفسها فيه قرابة العامين.. والفقر المدقع الذى غاصت فيه من قمة رأسها حتى أخمص قدميها.. انطلقت تعوّض ما فات شبابها من حرمان، وهى تبحث عن الشاب الذى ستعطيه حبها.. ليس أى شاب جدير بهذا الحب.. فقد رسمت فى مخيلتها نموذجًا لشاب وضعت بنفسها مواصفاته تتوافر فيه الوسامة والوجاهة والرشاقة والذكاء واللباقة والطموح.. وأن يكون خفيف الظل حلو الكلمة.

مواصفات وضعتها فى مخيلتها.. هكذا كان تفكيرها والصورة التي رسمتها في مخيلتها لشاب المستقبل الذى يعوضها الأيام والليالى الخاويات التى عاشت فيها ممرضة قبل أن تكون زوجة.. وقد جمَّدت أنوثتها.. وقتلت بداخلها كل رغبة.. كان همها الأول فى تلك الفترة من حياتها أن تعبر جسر الفقر وحياة البؤس والحرمان التى ظلَّت تطاردها منذ فتحت عينيها على الحياة حتى دخلت فيلا هذا الزوج، حيث النعيم والثراء والترف، ولكن كل

ذلك كان على حساب أنوثتها التى تركتها وراء ظهرها لتتفرغ لجمع المال التى غرقت فيه.

والتقت بشاب يقاربها فى العمر.. كان نموذجًا لتلك الصورة التي رسمتها في مخيلتها.. والتي حلمت كثيرًا بها في منامها.. وفتحت عينيها فقد تحول الحلم إلى حقيقة، إنَّه شاب حديث التخرج من كلية الهندسة، يفصح مظهره المتواضع عن فقره.

وجدت فيه منذ الوهلة الأولى صورة مماثلة لها يوم أن التقت بزوجها الأول (فتاة كتب عليها القدر الحرمان من كل شىء).

وكان حديثه معها حديث الكفاح والمعاناة والعرق والجد حتى حقق هدفه فى الحياة وحصل على بكالوريوس الهندسة، وقد تخرج فعلاً فى الكلية التى أحبَّها، وكانت أمنية حياته.. لكنَّ طموحه لم يقف عند هذا الحد، فقد واصل على طريق الكفاح ما هو أبعد من ذلك.. الحصول على دكتوراة في الهندسة.

وصارحته بكل صغيرة وكبيرة عن حياتها وعن أسرتها.. عرف منها أنَّها نشأت فى أسرة فقيرة وأنَّها كانت تعمل بائعة فى أحد المحلات الكبرى عندما التقى بها زوجها الأول، ذلك الشيخ الكهل الذى بهره جمالها وسال لعابه هيامًا فى حبها، وأحسَّت من نظراته العليلة ونبرات صوته الخفيضة أنَّه على استعداد أن يضحى من أجل القرب منها بكل ما يملك.. ويومها قبل كل الشروط التى طلبتها لكى تتزوَّج منه.

انتشلها من حياة الفقر الذى كانـت تعـيش فيـه ونقلهـا إلى حيـاة الأثريـاء وأصحاب الملايين.. لقد اشترى شبابها وجمالهـا بأموالـه.. فقـد كـان فـارق السن بينهما كبيرًا، وظلت بجواره وهو لا يرد لها قولاً ولا يعارضها في رأى.. ولا يبخل عليها بشيء مهما كان ثمينًا.. فقد كان وحيـدًا فى الحيـاة لا زوجـة ولا ولد.. كل أمنيته في الحياة أن تبقى إلى جواره، أن تغمره بعطفها وحنانهـا.. أن تكون كل دنياه.. أن تكون صورتها الجميلة آخر ما تسجله عيناه فى الدنيا.. ونبرات صوتها الحلوة العذبة الحنونة آخر كلمات يسمعها في حياته.

ظلَّت بجانبه وهو يغدق أمواله تحت قـدميها بـلا حسـاب، لكنَّهـا كانـت تعيسة بلا عاطفة أو مشاعر.. لقد دفنت أحاسيسها ومشاعرها من أجل المال والمظاهر والحياة الجديدة التى انتقلت إليهـا.. كانـت بائسـة محرومـة مـن الحب.. وكم راودتها هذه الأحاسيس والمشاعر فى تلك الليالى الطويلة التـى كانت تعيشها وحيدة بجوار زوج مريض يتعاطى العقاقير المهدئـة والمنومـة كى يسلم جسده لنوم عميق، تاركًا إيَّاها تعانى من إحساس الوحـدة والسـهر الذى يجد مرتعًا خصبًا فى داخلها وفى أعماق نفسها المكبوتة التى جرَّدتها من أنوثتها المتعطشة للرغبة الباحثة اللاهثة بحثًا عن حب لا وجود له.

انتهت فترة الحداد، كان عليها أن تعوّض مـا فـات مـن تعاسـة وحرمـان وفراغ عاطفى.. وأن تجول بفكرها وتسبح فى خيالها بحثًا عـن الحـب الـذى افتقدته عن إنسان يملأ هذا الفراغ.. يبادلها عواطفها ومشاعرها.

صارحته بأنَّه الشاب الذى رسـمته فى مخيلتهـا.. الصـورة الجميلـة التـى

اختزنتها فى مشاعرها منذ أن تفتحت عيناها على الحياة.. أعجبها صموده فى الكفاح وإصراره رغم فقره على تحقيق حلم حياته حتى نجح وحصل على بكالوريوس الهندسة.. وكان يستعد للحصول على الدكتوراة.. لقد شعرت أنَّ الحياة قد ابتسمت لها ابتسامة حلوة صادقة عريضة.. إنَّها الآن فى قمة سعادتها ترقص معها الأرض طربًا وفرحًا لأنَّها عثرت على الإنسان الذى كان قلبها -المتعطش إلى الحب- يبحث عنه.. وصارحته بحبها له.. وجدت فيه صورة طبق الأصل.. نموذجًا حيًا من حياتها.. مرارة العيش وضيق اليد التى حاصرتها وأغلقت أبوابها عليها.. قبل أن تتزوج ذلك الثرى، وكيف أنَّها قبلت هذا الزواج، وقد أغلقت على قلبها وأحاسيسها ومشاعرها وأنوثتها الباب بالضبَّة والمفتاح كى تسعد أسرتها وأخوتها وتجنبهم المصير المظلم والطريق المجهول.. الذى كان ينتظرهم فى تلك الغرفة.. من منزل آيل للسقوط فى أحد الأزقة التى لا يوجد فيها أى نوع من الحياة الإنسانية.

وصارحها بدوره أنَّه أحبَّ فيها روح التضحية والإيثار والعقل والحكمة، كيف أنَّها باعت نفسها وقبلت أن تقدم نفسها قربانًا من أجل أسرتها وإسعاد إخوتها.. وقالت له إنَّها بأموالها تستطيع أن تحقق طموحه وأنها ستقف بثروتها إلى جواره وهو بمجهوده وفكره وكفاحه سيحققان كل أمانيهما وأحلامهما في النجاح والحب.

وتزوَّجته، وسبحا معًا.. فى بحور الحب وينابيع الهيام ترتشف كؤوس السعادة وذاقت -لأول مرة في حياتها- طعم الحب الحقيقى.

أحسَّت أنَّ الدنيا كلها بين يديها وأنَّ وجـه الحيـاة المظلـم قـد تبـدد وأنَّ الشـمس قـد أشـرقت وأطلـت عليهـا، وغمرتهـا بأشـعتها الجميلـة بالحـب والدفء والسعادة.

إحساس غريب من السعادة ملأ عليها حياتهـا تتضـاءل أمامـه كـل كنـوز الأرض.. وكأنَّ الدنيا كلها بين يديها.

وانطلق الشاب الـذى كـان يتميـز بالـذكاء والطمـوح والرغبـة فى التقـدم بالشركة التى أسسها بأموالها فى طريق النجاح وكبرت مشاريعه، وذاع صيته.. وأفاء الله عليه من رزقه وهـى بجانبـه تدفعـه بحبهـا ورعايتهـا لـه وسـعادتها وفخرها بتقدّمه بكل خطوة يخطوها إلى الأمام.. وتبارك كل تقدم وتحفز كـل انتصار له، وهى تعتبر أنَّ كل تقدم له تقدمًا لها.. وكل انتصار ترى فيه انتصارًا لحبها وتتويجًا لسعادتهما.

ولكن متى دامت السعادة لإنسان؟ فليس ما يحب المرء يدركه فقد تـأتى الرياح بما لا تشتهى السفن.

ذات صباح وقعت عيناها على مفاتيح خزينته التى يحتفظ داخلها بأوراقـه الخاصة، فقد نسيها -وهو في عجلة من أمـره- للحـاق بعملـه.. لم تكـن مـن عادتها أن تفتش وراءه، فقد كانت ثقتها به وفيه بلا حد.

ومن قبيل الرغبة المجـردة فى تنظـيم مـا بـداخل الخزنـة قامـت بفتحهـا وبدأت فى تنظيمها.. لا بحثًا أو تنقيبًا عما بداخلها.. فثقتهـا بـه كانـت حـائلاً

بينها وبين ذلك.

أصبحت قمة سعادتها أن تسهر على راحته.. توفِّر له كـل مـا تسـتطيع مـن مباهج الحياة وفرص المزيد من النجاح.

كانت سعادتها فى إعداد طعامه بيديها.. تشعر أنَّ الدنيا كلها وكأنَّهـا ملـك يديها وهى ترى انبهاره وإعجابه بطريقة إعدادها للطعام.. وذوقهـا الرفيـع فى انتقاء ملابسه..

واستوقف نظرها احتفاظه بشريط فيديو داخل الخزنة وسـط العديـد مـن المستندات والأوراق التي تشكل أهميـة بالغـة لـه.. فمـا سـر احتفاظـه بهـذا الشريط.. كان هذا هو السؤال الذى لاحقها وظلَّ يضرب فكرها بعنف.. أثار فضولها وطردًا للهواجس والأفكار التي تملكتها أن تشـاهد مـا يحويـه هـذا الشريط.

وكانت المفاجأة التي لم تخطر لها ببال.. ولم تطرأ لها على خاطر.. ما رأتـه من مشاهد يحتوى عليها هذا الشـريط.. إنَّهـا لا تصـدق مـا تـراه.. وفركـت عينيها وأمعنت النظر وكأنَّها تعانى من حلم مفزع.. زوجها فى ملابس الزفاف وبجانبه عروسته.

أحسَّت فى تلك اللحظة أنَّ الدنيا قد أظلمت أمام عينيها أكثر من أي وقت مضى في حياتها.. إنَّها طعنت طعنة دامية قاتلـة أدمـت قلبهـا المـلىء بالحـب والإخلاص.

طعنات نافذة بلا مقدمات ولا توقع من أعز الناس وأحبهم إلى قلبها!

كادت تسقط مغشيًا عليها من هول الصدمة، ولكنها تمالكت نفسها وتذرَّعت بالشجاعة كى تترك لعقلها ولفكرها أن يعملا فى هدوء وروية وحكمة كى تجابه تلك الطامة التى صبت على رأسها فقتلت فيها كل الحب والسعادة والمستقبل المشرق الذى كانت تتطلع إليه مع هذا الزوج الذى استقر وملأ فكرها.. ورسخ فى وجدانها لأول مرة تكتشف أنَّه خائن.. ويتأكد لها أنَّه طامع.. ويتسم أمام عينيها أنَّه غادر.. مجرد من المشاعر.. يلبس قناعًا مزيفًا يخفى وراءه وجهه الحقيقى الملىء بالغدر والخيانة والأنانية.

لقد خان الثقة الكاملة التى وضعتها فيه.. الأموال التى باعت نفسها من أجلها سلَّمتها له بكل يسر وسهولة.. وبكل ثقة وأمانة.

كان عليها أن تعمل صوت العقل أو أن ترجع إلى عقلها، أن تفكر في هدوء وروية.. بعيدًا عن ثورة الغضب والانفعال.. أن تظهر بمظهرها الطبيعى معه.. أن تتعامل معه بذات الأسلوب.. الذى مارسته معه منذ زواجهما من أجل تحقيق هدف وضعته نصب عينيها استرداد أموالها التي باعت صدر حياتها من أجله.

كان عليها أن تفكر فى الطريقة التي تسترد فيها أموالها منه خصوصًا أنَّها منحته توكيلاً عامًا يتيح له أن يسحب ما يشاء من أموالها، وأن يتصرف فى أى عقار أو منقول لها دون الرجوع إليها.

ودار فى رأسها المثقل بالفكر المشحون بالتساؤلات سؤال كان لابد أن تجد له إجابة فى نفسها.

هل تواجهه بالحقيقة؟

هل تظهر له أنها عرفت كل شىء وأنَّها عاشت طيلة تلك الفترة مخدوعة فيه؟ وأنَّه كان ممثلاً بارعًا عندما أقنعها بكلامه المعسول أنَّها تحتل قلبه ولا مكان لغيرها فى هذا القلب الذى أصبح مليئًا بحبها، وكيف أنَّه يفكر فيها وأنَّ صورتها لا تفارق عينيه سواء فى صحوه أو فى منامه؟

هل كان كل ذلك وهمًا عاشت فيه وخداعًا واحتيالاً منه لسلبها ثروتها؟

كيف ستواجه الأمر لو أزال القناع الذى يرتديه وكشف لها عن وجهه الحقيقى وتركها تلعق جراحها ذليلة.. كسيرة، وقد فقدت كل شئ ماديًا ومعنويًا بعد أن استولى على أموالها وقتل حبها.. وداس على مشاعرها.

إنَّها كسيرة.. جريحة.. بات قلبها ينزف دمًا بعد أن كان يقتر حبًا.

الخوف من المجهول يستبد بها بعد أن كان الأمن والأمان والأحلام الوردية تحيط بها من كل جانب.

ووجدت نفسها تشعل السيجارة وتدخن لأول مرة فى حياتها.. لم تشعر بنفسها وهى تعتصر كوب الشاى إلا والدماء تنزف من يدها بعد أن تحطَّم فى قبضة يدها وهى لا تشعر..

وتوالت الأفكار والقرارات فى رأسها المثقل وفى خيالها الحزين.. وانتهى

بها الأمر إلى قرار لا رجعة فيه بعد صراع مرير مع الألم والفكر والهواجس.

بعد أن أصبحت فجأة امرأة بلا قلب.. وجثة بلا مشاعر.. وتمثالاً بلا أحاسيس ورأسًا بلا فكر ولا عقل.

لقد ضاع الحب والحنان والمشاعر والأمل.. واختل ميزان العقل.. فقد هوى بها زوجها بلا رحمة ولا شفقة وأغرقها فى بئر الخيانة.

لابد أن تنتقم منه، وسيكون انتقامها من نوع جديد.. موجعًا أليمًا.. لا رحمة فيه ولا شفقة.. لابد أن تعذّبه عذابًا أليمًا تشفى غليلها وهى تراه أمام عينيها يذوق مرارة الخيانة ويلعق جراح الندم في أن تلقنه درسًا لن ينساه.. بعد أن تدمّر حياته كما دمَّرها.. أن تقضى عليه قضاءً مبرمًا.. أن تفتك به.. ولكن بأسلوبها الخاص وبأسلحتها التى هداها تفكيرها إليها.. أن تحوّله إلى أشلاء رجل كما جعل منها أشلاء امرأة.. أن تجعله أضحوكة على شفتى كل من يراه.. ولعنة على كل لسان.

بدأت تنفذ فصول خطتها بالاستعانة بصديقة لها كانت تعرفها فى الحى الذى كانت تعيش فيه أيام فقرها، كانت تعرف أنَّ زوجها يتاجر فى المواد المخدرة، وقد تم الحكم عليه بالسجن ونفذ مدة العقوبة وخرج حديثًا.. حصلت منها على عقار الهيروين المخدر.

نفَّذت خطتها الجهنمية فى الانتقام.. قدَّمت له جرعات الهيروين وسط مشروب القهوة الذى كان لا يخرج من مسكنه قبل أن يتناوله من يديها.

استطاعت بهذا الأسلوب الإجرامى الماكر أن تجرده من كـل شـىء.. أن يسجل باسمها كل الأموال والشركة التى كانت بينهما.

لاحظ الجميع وكذا والدته ذلك التغيير المفاجئ الـذى انتابـه فقـد بـات عصبيًا.. هزيلاً.. زائغ البصر.. شارد الفكر مهمومًا.. زاهدًا مكتئبًا غير عـابئ بالحياة.. ملقيًا بالدنيا وما فيها وراء ظهره.. حتى إعـداده للـدكتوراة ألقـاه في سلة المهملات.. قد ذبل وجهـه وأصـبح يكسـوه الاصـفرار بعـد أن كـان.. مشربّاً بالحمرة تلوح منه النضارة والإشراقة والبهجة والأمـل الـدائم في غـدٍ مشرقٍ.

اصطحبته والدته إلى طبيب لتوقيع الكشف عليه.. فطلـب عنـد تشـخيص حالته إجراء عدة تحليلات.

كانت المفاجأة التي هوت على رأس والدته كالمطرقة والتي لم تكن تخطر لها ببال أو تجول لها في حسبان، إذ أظهرت التحاليل أنَّه مدمن عقار الهيروين المخدر.

لم تصدَّق ذلك.. بعد أن أقسم لها إيمانًا مغلَّظًا وكانت تثق في صدق حديثه وفى أمانته أنَّ هذا مستحيل وأنَّه لابد -بل من المؤكد- أنَّ التحليـل كـاذب.. فتوجهت به إلى معمل آخر لعمل تحليل جديد.. فجـاءت النتيجـة لتؤكـد مـا جاء بالتقرير الأول.. كـان عـلى الـزوج أن يراجـع حياتـه فى الفتـرة الأخيـرة ويستعرضها بكل دقة وتفصيل وكأنَّها شريط سينمائى أمام عينيه.. مـن الـذى فعل ذلك؟ وما مصلحته فى تدميره؟ إنَّها مـؤامرة لابـد أن يكتشـف خيوطهـا

وأبعادها.

وكان قد أحسَّ فى الفتـرة الأخيـرة تغييـرًا واضـحًا فى سـلوك وتصـرفات زوجته قبله لم تستطع رغم محاولاتها الجاهدة إخفاءها.

بدأت الشكوك تنتابه من ناحيتها خاصَّة بعد أن حوَّلت الشركة كلها وكـذا أموالها باسمها، واتخذت هى موقع المـدير وجمعـت كـل الخيـوط فى يـدها ليصبح هو أسيرًا بين يديها.. لا حول له ولا قوة.. يوقع على مـا تريـد قبـل أن يتناول فنجان القهـوة فى الصـباح مـن يـدها، وأحـسَّ أنَّ هنـاك سـرًا فى هـذا الفنجان.. سلبه فكره وعقله.. وجعله أسيرًا لرأيهـا وقرارهـا.. كـان عليـه أن يقطع الشك باليقين ليتأكد ما محتوى هذه القهوة.. تناول بعضًا مما فى داخـل الفنجان ووضعه فى زجاجة.. كمـا طلـب الطبيـب المعـالج.. ثـم أرسـله إلى التحليل.

وكانت المفاجأة التى ما كانت تخطر بباله أو تدور بخلده.

القهوة بها مخدر الهيروين....

لكن لماذا فعلت ذلك؟ ما سر غدرها به؟ إنَّها مؤامرة للقضاء عليه.. لابد أنَّ هناك رجلاً فى حياتها؟ وقد دبَّرا معًا خطة الخلاص منه.

لكن من هو ذلك المجرم الآثم الذى شاركها خطة القضـاء عليـه وموتـه مدنيًا وأدبيًا ببطء؟..

وأضناه فكره العليل وخيالاتـه المضـطربة المتلاطمـة غيـر المسـتقرة إلى

ضرورة البحث عن هذا العاشق الجديد، وقطع عليه هذا الموج العاصف من الفكر القاتل. رأى والدته القاطع والحاسم في ضرورة إبلاغ الشرطة بحقيقة ما حدث.

تساؤلات تبحث عن إجابة والتى دارت فى ذهن ضابط المخدرات الذى تقدَّم الزوج من تلقاء نفسه ببلاغ إليه طالبًا منه العون والمشورة والنصيحة خروجًا من هذا المأزق الذى تردَّى فيه.

من المؤكد أنَّ تساؤلات عديدة دارت تبحث عن جواب معقول ومقبول دارت في ذهن ضابط مباحث المخدرات وهو يتلقَّ شكوى الأم وبصحبتها ابنها.. كان أول بلاغ من نوعه يصادفه، كان عليه -كما يفرض عليه منطق التحقق من الدليل- مراقبة الزوجة بعد استئذان النيابة العامة.

وأسفرت المراقبة عن شراء زوجته مخدر الهيروين الذى اعتادت أن تدسَّه فى القهوة لزوجها.. حتى استطاعت أن تجعله أسيرًا وعبدًا بين يديها.

كان مخطط الزوجة في الانتقام من نوع جديد استقر عليه فكرها.. أن تمعن فى إذلاله.. أن يسقط احترامه من عيون الناس.. أن يتحول هذا الاحترام إلى نوع من الازدراء والاحتقار بل والسخرية.. أن تثبت له في النهاية بعد تدميره أنها أذكى منه.. أن لحمها مرًا يسمم من يأكله.. كان من مخططها أن تواجهه في نهاية المطاف بخيانته.. عن سر نقمتها عليه.. عن سبب الحب الذى تحوَّل إلى كراهية والنار التى أصبحت رمادًا.. أن تواجهه بما اكتشفته وهى في قمة ثقتها واطمئنانها إليه بأنَّه قد خان حبها.. هو البادئ بالخيانة..

والبادى أظلم وعلى الباغى تدور الدوائر.

كان غلُّ الانتقام ينهش فكرها ويسرى في عروقها مسرى الدم.. أغرقته في بحر الإدمان لتقضى عليه كما قضى على حياتها.

لكنَّ القدر لم يمهلها فقد تم القبض عليها، وتم ضبط الهيروين الذى بدَّلت به حياة زوجها وغيَّرت مساره وكادت تقضى على مستقبله بل حياته.

تم ضبطها متلبسة وهى تعدُّ له فنجان القهوة فى الصباح كالمعتاد ولم تجد أمامها بدًا من الاعتراف.. لقد اعترفت بكل شيء وقدَّمت شريط الفيديو الذى قتل حبها ودمَّر حياتها وحياة من تحب.

تم مواجهتى كمحقق للزوج بهذا الشريط وما جاء به في مواجهة الزوجة التي فوجئت بالحقيقة لأول مرة وبأنَّها عاشت في صراع مع الوهم وكيف أنَّ هذا الوهم كان هو الخنجر الذى ذبحت به نفسها.. كانت في سبيلها للإجهاز به على زوجها.

إنَّ شريط الفيديو كان عن زيجة قديمة قبل أن يعرفها ويقترن بها، وقت أن تعرَّف عليها كانت قد انتهت هذه الزيجة بالطلاق وأصبحت مجرد ماضٍ.. أسدل عليه ستائر النسيان وطلب منى كمحقق أن أسجل تفاصيل الحقيقة التى آثر كتمانها فلم يصرح بها لزوجته حرصًا منه على مشاعرها واستمرارًا لحب جمع بينهما ووفاء منه لمواقفها وراء نجاحه سندًا ودعمًا.

ولكى يظلَّ المحبوب الذى رسمته فى مخيلتها حتى ولو كان زواجه من

امرأة قبل أن يعرفها.. لقد دفعه حبه الشديد لـه ألا يفـتح صـفحة عـن مـاضٍ أسدلت على أيامه ستائر النسيان.

روى الزوج لى كمحقق قصة هذه الزيجة وظروفها التي تمـت فيهـا حتـى انتهت بالطلاق منها.

كانت مسيرة حياته.. صـورة كربونيـة لمسـيرة حياتهـا.. نفـس الظـروف والملابسات التي أكرهتها على أن تتزوج كهلاً فانيًا جسدًا بلا روح.. من أجل ماله.. هروبًا من الفقر.. فقد تزوج هو من أرملة ودَّعـت سـن الشـباب، كـان يقطن في حجرة على السطح في عقار تملكـه كـان وقتهـا طالبًـا معـدمًا يعـيش وحيدًا محرومًا من كل لذات الحياة ومباهجها ومفاتنها عاكفًا على دراسـته.. حين التقى بها تطلب إيجار الغرفة التي استمهلها أكثـر مـن شـهر لسـدادها.. عاملته بلطف وحنان.. قدَّمت له أشهى الأطعمة التي افتقـدها.. اشـترت لـه أغلى الملابس.. كان ينظر إليها في البداية على أنَّها ملاك هبط له من السـماء.. يمدُّ له يد العون ليعبر الطريق الآمن حتى يحصل عـلى البكـالوريوس.. لكـنَّ تفكيرها كان أبعد من ذلك وهدفها كان آخر ما يفكـر أو يتوقَّعـه منهـا.. كـان ينظر إليها نظرة الابن لأمه.. لكنَّ نظرتها له كانت نظـرة خبيثـة ملؤهـا الرغبـة والشهوة.. ولم تخجل حين فاجأته بذلك وأعلنـت لـه أنَّهـا عـلى اسـتعداد أن تضع كل ما تملك في الـدنيا تحـت قدميـه شـريطة أن يكـون ملكًـا لهـا.. أن يتزوَّجها.. وأنَّها على اسـتعداد أن تحقـق كـل رغباتـه وآمالـه وطموحاتـه في الحياة.

تم زواجه منها بعد إحساس عميق رسب في أعماق نفسه أنَّها اشترته بأموالها أنَّها أدخلته في قفص من ذهب عليه أن يبقى فيه معًا.. كانت غيرتها عليه عمياء بلا حدود تلاحقه في كل خطوة يخطوها.. تحسب عليه كلماته.. ونظراته.. أحسَّ بأنَّه يقضى عقوبة عن جريمة لم يرتكبها وكلما مرت الأيام زادت شكوكها وهواجسها التي لا تنقطع عن ملاحقته في صحوه ومنامه.

لم تبتسم له الدنيا يومًا وهو في أسرها رغم محاولاتها الجاهدة لإسعاده وإدخال البهجة عليه إلا أنَّه كان دائمًا مهمومًا حزينًا خائفًا مترقبًا المجهول.

وكلما رسم الزمن بصماته على وجهها وشعرها الذى كساه البياض جنّ جنونها، وهى تحاول جاهدة أن تعيش في ثوب الشباب.

انتقت أغلى ثياب الشباب.. وأحدث صيحات الموضة منها.. اشترت أرقى أنواع العطور.. اقتنت أغلى الباروكات.. قاطعت الدنيا وما فيها حتى أولادها خاصمتهم وطردتهم من حياتها من أجلى.. كنت أضغط على نفسى وأتصنع حلو الكلمات لإرضائها وإسعادها ولو وهمًا..

وفجأة وبلا مقدمات زحفت الأمراض إلى جسدها فما عادت تفلح فيها ثياب براقة أو عطور نفاذة وأدرك أولادها أنَّه الموت لا محالة وأجبروها على الطلاق منى. وطلقتها.. كانت صفحة مريرة في حياتى قاسية في ذكراها على فكرى ماضيًا قررت أن أطويه إلى الأبد.

لم أشأ أن تعايشنى زوجتى هذه الذكرى الأليمة إلى نفسى فآثرت أن

أحتبسها لنفسى.

طويت صفحات القضية بعد أن أتممت تحقيقها وأحيلت المتهمة للمحاكمة.

إنَّ هذه الزوجة أسلمت نفسها للانتقام والحقد وهدمت قصة حب مع إنسان أحبها وأخلص لها لكنَّها حطَّمت حياتها وقضت على مستقبلها وظلَّت تصارع وهمًا وتطارد شبحًا!! ثم تأكدت من كل ذلك بعد فوات الأوان.

لقد جنت ثمار ما زرعته من حقد وشك ودخلت مستقبلاً مظلمًا لتنفذ حكم القانون.. تجابه تهمة شرسة وعقوبتها رادعة بعد أن سقطت بيديها فى بئر الانتقام.

أما الزوج فقد تعالج من الإدمان واستقبل حياة جديدة بابتسامة ملؤها الأمل فى مستقبل مشرق يواصل فيه تحقيق طموحاته بثقة وتفاؤل.

وانتهت أحداث هذه القضية ومازال سيناريو الأحداث فيها يجرى في مخيلتى وكأنَّه شريط سينمائى، وقد رسَّخت فى وجدانى ما أردده دائمًا أنَّ الصراحة والوضوح فى حياة الزوجية أقصر طريق للوصول إلى الحقيقة.. إلى الأمن والأمان الحقيقى بينهما.

كان سؤالى الدائم كلما تذكرت أحداث هذه القضية.

ماذا كان سيحدث لو أنَّ الزوجة صارحت زوجها بما رأته فى الشريط ولم تسلم نفسها للهواجس والظنون والشكوك ولم يقدها عقلها أو تفكيرها إلى

مستنقع الانتقام من زوجها والتربّص به والإعداد المحكم بتدميره، كان تصورى أنَّهما سيعيشان فى حياة ملؤها الحب ترفرف عليها حمامات الأمن والأمان والاستقرار والسلام.. أسرة ناجحة سعيدة بكل معانى النجاح والسعادة وحمت نفسها وزوجها من السقوط في الهاوية.. ثمنًا للصراع مع الوهم.

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة
المحامي بالنقض

القضية الخامسة

ضيف على مائدة «عشماوي»



■ ■ ضيف على مائدة.. عشماوى

توجهت إلى مكتبى مبكرًا لأنهى مقابلاتى مع الموكلين، إذ كان متعينًا علىَّ الانصراف بعد وقتٍ يسيرٍ حتى ألحق ببعض زملائى لأداء واجب العزاء معهم في عزيز لدينا.

وما إن وطئت قدمى غرفة المكتب حتى دخل في أعقابى مدير المكتب وأحسست من هرولته ومبادرته الحديث قبل أن أسأله كالمعتاد عن الموكلين الحاضرين في المكتب، بادرنى بأنَّ هناك قضية قتل والموكل الحاضر فيها –شكله مش مريح– وأنّه عصبى وباين على وشه الإجرام والعنف.. وأنَّه يستعجل دوره في مقابلتى لكى يلحق القطار المسافر إلى الصعيد الساعة الحادية عشرة ليلاً.. فأشرت إليه بإدخاله.



كانت النظرة إليه منذ الوهلة الأولى مخيفة.. كان أشبه بثور بشرى شرس من الصعب ترويضه، من المستحيل السيطرة على فكره أو إقناعه بغير رأى اعتقده.. كان ضخم الجثة طويلاً عريض المنكبين، بريق عينيه يشع منهما القسوة.. نبرات

صوته تعبر عن حدَّته وعصبيته وانفعاله وانفراده بالرأى الـذى لا يقبـل بعـده جدلاً أو مناقشة أو معارضة من أحد.

جلس أمامى وقد أحضر معه سيدة في العقد الخامس من عمرهـا جـاءت معه على استحياء على غير عادة أهل الصعيد الحضور في أقران هذه القضـايا.. وأحسَّت بما يجول في خاطرى عندما سألتها عـن سـرّ حضـورها وخروجهـا عما هو مألوف من تقاليد وأعـراف.. فبـادرتنى.. أنـا أم المـتهم.. وحبسـت دموعها في مقلتيها وهى تقول بصوت خفيض ملؤه الثقـة: «ابنـى بـرىء والله وكررتها عدة مرات برىء من قتل أخته.. مما أدخل الشـك في نفسـى بصـدق حديثها.

وأشارت إلى الحاضر معها «وده خطيبهـا وابـن عمهـا في الوقـت نفسـه.. وكان مفروض حيتجوزها قبل الجريمة بحوالي أسبوع».

طلبت دوسيه القضـية لتصـفحه حتـى أكـوّن رأيًـا قبـل قبـول الـدفاع في القضية.. ففتح ذلك العملاق حقيبة كانت تلازمه منـذ دخـل غرفـة المكتـب وقدَّم لى دوسيه القضية التي كان محددًا لنظرها أمام محكمـة الجنايـات بعـد حوالى أسبوعين.. وهو يردد بصوت أجش ويداه تعبث بشـاربه وكأنَّـه يزهـو بفحولته ورجولته الطاغية.. ابن عمى زى ما قالت مرات عمى بـرىء.. وأنـا كان نفسى أقتلها وأشرب من دمها وسط القرية وقـدام النـاس كلهـا علشـان شرف العيلة اللى داست عليه في الوحل..

أمسكت بدوسيه القضية وطلبت منهما الانتظار في غرفة الاستراحة حتى أتصفَّح أوراق القضية وأكوّن رأيًا سريعًا وأنا أودعهما بابتسامة إن شاء الله حتلحقوا القطار.

قبلت الدفاع في القضية، فقد أيقنت منذ الوهلة الأولى أنَّ المتهم بقتل شقيقته عمدًا مع سبق الإصرار والترصد والذى أصرّ على الاعتراف بقتلها ومثَّل كيفية ارتكابه للجريمة برىء.. وأنَّه ليس القاتل.. وأنَّ للواقعة صورة أخرى مغايرة تمام التغاير ومخالفة كل الخلاف لما جرى عليه اعترافه الذى أصرَّ وصمم عليه طيلة فترة الاستدلالات والتحقيقات أمام النيابة العامة.

وجاءت لحظة المحاكمة.. كانت المواجهة مع المتهم أشبه بأمواج بحر عاتية في ليلة حالكة الظلام.. كان يصرُّ مؤكدًا أنَّه قاتل شقيقته.. كان ثبات أعصابه ورصانة كلماته ورباطة جأشه توحى للجميع في القاعة أنَّه عاشق لحبل المشنقة ساعيًا إليها بسرعة وبكل قواه وأنَّه في نظره إكسير الحياة.

كانت نظرات الرجل الحادة وحديثه الممتلئ عنفًا وغلظة قاطعة أنَّه غير مقدِّر للعواقب الوخيمة التى من المحتم فى انتظاره من جراء اعترافه بقتل أعز الناس إليه وهى شقيقته.. عمدًا مع سبق الإصرار والترصد.

كانت قسمات وجهه التي تنطق بالجدية والإصرار على المضي قدمًا باعترافه مهما كان الثمن ولو كان حبل عشماوى ملفوفًا حول رقبته.

كان يجلس فى قفص الاتهام كالطاووس نافشًا جناحيه وسط أبناء قريته

الذين اكتظت بهم القاعة عن آخرها.. وهو ما يلبث أن يتجـول في قفصـه بـين الحين والآخر مستعرضًا قوتـه، مؤكـدًا للجميـع نخوتـه ورجولتـه.. موزعًـا نظراته للحاضرين.. الذين كانوا يبادلونه نظرات الفخر والإعجاب ويحسون فيه الرجولة بمعناها الحقيقى.. المدافع عن شرفه وشرف أسرته.. بل القريـة كلها.. لم يكن بالقاعة موضع لقدم سواهم.. وقد جاءوا ليشهدوا محاكمة ابن قريتهم.. الرجل بمعنى كلمـة الرجولـة.. صـاحب النخـوة الـذى لم يتحمـل خروج شقيقته عن العادات والتقاليد التى توارثوها منذ أمد بعيـد.. كـان مـن وجهة نظرهم -وفى عيونهم- القديس الطاهر الـذى توضـأ وتطهَّـر مـن آثـام شقيقته التى جلبت للأسرة الخزى.. ولطَّخت شرفهم فى وحل العـار.. ذلـك الرجل الذى لاكته الألسنة بعد أن كانـت تعجـز عـن الجـدل معـه أو مجـرد مواجهته.. وحامت الشائعات وكثـرت حـول شـقيقته وتـرددت الكثيـر مـن الأقاويل والروايات التي نسجها أهل القريـة مـن خيـالهم السـقيم وفكـرهم العقيم.. ولكنها كانت أشبه بالسكاكين التـى تنهـال عليـه أو أشـد.. فكانـت همسات الناس بمجرد مروره أمامهم سـهامًا مسـمومة تجـد هـدفها إلى قلبـه الذى بات كسيرًا جريحًا يقتر دمًا بعد أن كان فتى القرية الأول بلا منـازع.. لا يرد له قول ولا يخالف له رأى.. كان مسموع الكلمة من الجميع.. مرهوبًا لا يجرؤ أحد على أن يخرج من عباءته أو يعصى له أمرًا..

لم يكن أمامه من خيار أمام أهله وذويه وأهل قريته سوى الثأر لشرفه.. أن ينتقم لكرامته.. أن يثبت للجميع أنَّه الرجل القوى الذى لا يهـاب شـيئًا..

ولا يرهبه حتى حبل المشنقة.. واستبد به شيطان العادات والتقاليد والأعراف البالية أنَّه إذا لم يثأر لشرفه وينتقم لكرامته سيصبح أضحوكة الجميع.. سيمحون اسمه من سجل الرجال.. أما شقيقته فقد كانت ريفية يفور منها الجمال وتتدفق منها الأنوثة.. كانت بيضاء اللون.. ممشوقة القوام.. شعرها الأسمر الطويل يزيدها جمالاً على جمالها.. وهو يهفهف على خديها.. كان كستائر الليل بمجرد أن يبتلع البحر قرص الشمس وقت الغروب.. وعينها ذات اللون الأسود الكاحل كانت كعيون المها التى تسحر من ينظر إليها من أول لقاء.

وقد أكسبها هذا الجمال الطبيعى الطاغى ثقة بنفسها بلا حدود وتمردًا على واقعها الريفى الذى حال بينها وبين اتمام دراستها، فقد كانت متفوقة فى دراستها وحصلت على مجموع كبير فى الثانوية العامة.. كانت أمنيتها أن تكمل تعليمها الجامعى وتتفوَّق فيه وتحصل على الشهادة العالية..

لكنَّ أخاها أصرَّ على أن تقف عند هذا القدر، وقد فرضت عليها التقاليد أن تعدَّ نفسها للزواج من ابن عمها القروى الثرى الذى دفن فكره وأغلق عقله فى معتقدات أهل قريته وأنَّه أولى من غيره وأحق بالزواج من ابنة عمه، خاصة بعد أن قرأ المرحوم والدها الفاتحة لهما منذ طفولتهما.

وفى الوقت الذى كان شقيقها يرسم مستقبلها على طريق مظلم وزيجة لا كفاءة فيها.. وزوج لا تحس ناحيته بأية عاطفة.. بل على العكس تنفر من

تصرفاته وكلماته.. كان تفكيرها يسير في خط معاكس وفى طريق متناقض ضد كل ما خطَّط له.. وعليه هو أن يسير في طريقه ومنطقه الذى تحكمه القوة والعنف والبطش.. لقد رأت أنَّ مستقبلها يرتبط بمستقبل مهندس شاب كان يعمل فى إحدى الشركات قريبًا من قريتها.. جمع الحب بين قلبيهما منذ النظرة الأولى التى التقت نظراتهما أثناء عودتها من المدرسة.. والتقيا أكثر من مرة، والتحف حبهما واعتصم بأشجار الحقول ونما تحت تغريد العصافير.. وتعددت اللقاءات بينهما، وامتلأ قلباهما بالحب الذى تناقلته الطيور على أوراق الشجر من كثرة لقائهما ومن فيض ما سمعوه من أحاديث الحب وتنهدات الغرام.

وانتشرت قصة حبهما بين أهالى القرية وتناقلتها الألسنة كل حسب ما خيّل له شيطان هواه بل وجنح بهم ميزان التخيلات المسمومة إلى حدود بعيدة لا أساس لها، فقد كان حبهما شريفًا نقيًا عفيفًا، ولكنَّ ألسنة الناس لا ترحم وتخيلاتهم وشطحاتهم لا تقف عند حدود.

فقد شاع الخبر بين أبناء القرية على هذا النحو الكريه مسرى الريح.. ونما إلى علم شقيقها، هذه الأحاديث الهامسة.. ولم يكن بمقدور أحد من أهل القرية أن يواجهه بالحقيقة.. فجنَّ جنونه وحمل سلاحه النارى وأطلق الرصاص على المحبوب قاصدًا قتله.. وشاء القدر أن ينجو من الموت بأعجوبة بعد أن انبطح على الأرض متخذًا ساترًا كان وجاءً له ومانعًا من نفاذ الرصاصات المتلاحقة إلى جسده والذى لولاه للقى حتفه فى الحال.

غير أنَّ الفتى لم يقابل الإساءة بمثلها.. وقدر مشاعر الأخ والظروف والعادات والأعراف والتقاليد التي يعيش أسيرًا في دائرتها.. ولا يملك إلا الانصياع لها مجبرًا.. لم يجابه ثورة الأخ ونيته القضاء عليه بانتقام مقابل.. كان بوسعه أن يزج به فى غياهب السجن وينفرد بمحبوبته.. ولكنَّ سمو فكره وحسن تقديره ووزنه العاقل للأمور كان هاديًا له.. غلبت عليه أخلاقه وشهامته واستبدت بفكره وقراره.

بالرغم من أنَّه رآه وتأكد من أنَّه هو الذى أطلق النار عليه إلا أنَّه رفض اتهامه وحتى بعد أن أكدت التحريات أنَّه هو الذى شرع في قتله.. وواجهته النيابة بها.. أصرَّ على أنَّه ليس هو المتهم، بل عرضته النيابة عليه في محاولة أخيرة فأكد منذ الوهلة الأولى أنَّه رأى من أطلق النار عليه رؤى العين وأنَّ الماثل أمامه شخصًا آخر مما حدا بالنيابة العامة أن تكلف الشرطة بمزيد من التحريات فحامت الشبهات من جديد حول ابن العم باعتبار أنَّه زوج المستقبل وله مصلحة في التخلص من غريمه الذى احتل قلبها وانتهت التحريات إلى أنَّه لم يكن موجودًا بالقرية وقت الحادث.. ومن ثم فقد انتهت النيابة إلى إصدار قرار بألا وجه لإقامة الدعوى الجنائية لعدم معرفة الفاعل وقيد القضية ضد مجهول.

وحفاظًا على حياة المهندس.. أصرَّت جهة عمله أن تنقله إلى مكان آخر بعيد.. بعد أن أكدت تحريات الشرطة أنَّ وجوده فى هذه الشركة فيه خطر محدق ومؤكد على حياته وأنَّ ما حدث له مرة من الممكن أن يحدث

مرة أخرى ستكون فيه نهايته.

وأكدت التحريات أنَّ لقاءات الابنة مع المهندس هى التى دفعت الأسـرة بأكملها إلى التفكير فى قتله، وإنَّ هذه الفكرة لاقـت قبـولاً وترحيبًـا مـن أهـل القرية وجاءت على هواهم، فقد رأوا في زواج هذا الـدخيل عـلى القريـة عيبًـا عليهم أن يتكاتفوا جميعًا للحيلولة دون حصوله.. منعًا لتكـراره مسـتقبلاً لأى فتاة من ذويهم.. وبعد الواقعـة ازدادت شراسـة الأخ واسـتبد بـه عنـاده عـلى تزويج شقيقته من ابن عمها بل وأصرَّ ابن عمها على ضرورة إتمام هذا الزواج بأسرع ما يمكن قطعًا للألسن ووضع حدّ للقيل والقال.

ولكنَّ الأخت أصرت على الرفض.. بل وأكدت لوالدتها أنَّ الموت أهون عليها من الزواج من هذا الأمى.. ضيّق الأفـق.. محـدود الفكـر.. وأن تقـدم على الانتحار لتقدم جثتها للموت الأبدى خير مـن أن تقـدم جسـدًا بـلا روح جثة مجردة من الإحساس والمشاعر لهذا الوحش.. كانت تتخيّل بين الحين والآخر أنَّها جثة هامدة يلتهمها في وحشية بين أنيابـه التـي تقطـر دمًـا في نهـم يتلذذ في أنانية.. وقد اصم أذنيه وأغلق عينيه عن صرخاتها وعن آلامها.

فجأة اختفت الأخت وكأنَّ الأرض انشقت وبلعتها.. وانتشرت الشائعات فى القرية وسرت مسرى الريح تؤكد أنَّ شقيقها أو ابن عمها قد قتلها حتى يتم التخلص من عارها.. ولم تمض أيام على اختفائها حتى ظهرت جثـة طافيـة فى نهر النيل الملاصق للقرية، وتم استخراج الجثة.. كانت مشـوّهة الوجـه عـلى نحو يصعب معه الوقوف يقينًا على صاحبتها.

أثبت مفتش الصحة الذى انتقل فور العثور عليها لمناظرة الجثة وإثبات حالتها وعما إذا كانت الوفاة طبيعية أم جنائية.. وجاءت النتيجة أنَّ الوفاة جنائية نتيجة الاعتداء عليها جنائيًا.. كما جاء بالتقرير وجود إصابات مدممة بالرأس وترك تحديد سبب الوفاة والآلة المستخدمة في أحداثها للطب الشرعى.

كان البحث جاريًا ومتصلاً من قبل رجال الشرطة للوقوف على شخصية القتيلة والوصول إلى القاتل والباعث على ارتكاب الجريمة.

كانت المفاجأة إذ تقدّم الأخ معترفًا بأنَّ الجثة لشقيقته وأنَّه قتلها ليغسل عاره ولينقى ثوب الأسرة الأبيض من دنس هذه الفاجرة التى لطّخت سمعته وأذلت كبرياءه هو والأسرة بأكملها وأنَّ الموت كان أهون عليه من أن يقف هذا الموقف المخزى الذى فرضته عليه هو وأسرته وهو يواجه عيون الناس وشماتة الشامتين وحقد الحاقدين، فأصرَّ على التخلص منها ليثبت للكافة أنَّ أسرته عالية شامخة لا تقبل الضيم ولا تنحنى أمام صغائر الأمور، وأنَّها تطهر وتنظف ثوبها الأبيض بنفسها مهما كان الثمن وتطرد من حظيرتها كل مارق أو شارد أو فاسد أو متمرد على التقاليد والأعراف التي توارثوها أبًا عن جد.

كانت هذه هى صورة لأحداث الدعوى التي وقفت أمام المحكمة مدافعًا عنه.

استوقف نظرى بعد فحصى وتمحيصى لكافة الأقوال والأدلة في

الدعوى عدة أمور ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالصورة الصحيحة للواقعة التي تقود إلى الحقيقة التي ينشدها الجميع:

أولاً: جاء اعتراف المتهم حسبما رصدت التحقيقات على لسانه بأنَّه استدرج شقيقته إلى شاطئ النيل ليتفاهم معها بعد أن أوهمها بأنَّه قبل زواجها من المهندس وأنَّه يرغب في الوقوف على معلومات عنه قبل دعوته لإتمام هذا الزواج.. وأنَّهما ركبا زورقًا وتجاذبا الحديث وأثناء محاولته إثناءها عن فكرتها وإصراره على زواجها من ابن عمها قفزت في النيل محاولة الهرب لكنَّه ألقى بنفسه في المياه وتعقَّبها وضغط على رأسها في المياه قاصدًا إغراقها.. حتى تأكد من غرقها ومفارقتها الحياة.. وإمعانًا وإصرارًا في الانتقام منها أمسك بالمجداف وهوى على رأسها وتركها جثة هامدة وسط المياه ورأى التيار يجرفها وهى تعوم على سطح الماء.

ثانيًا: جاء تقرير الصفة التشريحية لجثة المجنى عليها يتضمن عدة حقائق..

١) أنَّ الجثة التي تم انتشالها كانت في حالة انتفاخ شديد وتحلل أنسجة وانتشار الديدان بها.

٢) أنَّ سبب الوفاة هو إصابات قطعية رضية حيوية بالرأس –أي حدثت أثناء الحياة– تحدث من آلة قطعية رضية.

٣) أنَّه بتشريح الرئتين لم يثبت وجود مياه بداخلها.

إزاء ما سلف طلبت مناقشة الطبيب الشرعى الـذى أجـرى التشـريح بجلسة المحاكمة.

مثل الطبيب الشرعى المشرع بجلسة المحاكمة فطلبـت منـى المحكمـة توجيه الأسئلة التي أرغب فيها إليه..

سألته..

عن التغيـرات الرميـة التـى وجـدت عليهـا الجثـة أثنـاء توقيـع الكشـف الظاهرى عليها..

فأجاب..

كانت فى حالة انتفاخ شديد وتحليـل الأنسـجة وانتشـار الديـدان بـأجزاء متحللة من الجثة..

وسألته..

عن المدة ما بين الوفاة والتشريح واقع التغيرات الرمية الذى شاهد الجثة عليها من الناحية الفنية.

فأجاب..

بأنَّه يتعين أن ينقضى ما بين الوفاة والتشريح مدة لا تقل عن عشرة أيام.

وعاودت سؤاله.. سؤالاً مهمًا يرتبط بإجابته السابقة..

هل من الممكن أن تحدث هذه التغيرات الرمية بالجثة خلال مـدة ثلاثـة

أو أربعة أو خمسة أيام.

فأجاب..

بأنَّه يستحيل من الناحية الفنية حدوث ذلك ولابد من أن تمر عشـرة أيـام على الأقل قابلة للزيادة وليس النقصان.

فتأكد لى أنَّ المتهم كاذب فى اعترافه وأنَّ الجثة ليست لشقيقته.

واستطردت في سؤال الطبيب الشرعى..

ما السبب المباشر في وفاة المجنى عليها؟!

فأجاب..

الإصابات القطعية الرضية التي هشَّمت الرأس.

فكان سؤالى التالى..

ما الآلة المستخدمة في إحداث هذه الإصابات؟!

فأجاب..

آلة قطعية رضية أي ساطور أو بلطه أو فأس ذات حافة حادة.

فسألته..

هل من الممكن أن تحدث هذه الإصابات من مجداف؟!

فأجاب..

يستحيل ذلك لأنَّ المجداف آلـة راضـة والإصـابات الموصـوفة بـرأس

المجنى عليها قطعية رضية تحدث من آلة قطعية رضية، ومن المستحيل فنيًا أن تحدث من آلة راضة.

واستمر توجيه أسئلتى إليه..

هل قمت بتشريح الرئتين..

فأجاب.. مستنكرًا

بالطبع وده واضح في تقريرى.

فسألته.. سؤالاً في منتهى الفنية..

هل تبين لك وجود مياه في الرئتين؟!

فأجاب..

لأ.

فسألته سؤالاً جازمًا..

هل من الممكن فنيًا أن يكون سبب الوفاة إسفسكيا الغرق دون أن يتبين من التشريح وجود مياه في الرئتين؟!

فأجاب..

يتعيَّن إذا كان سبب الوفاة هو إسفسكيا الغرق وجود مياه في الرئتين وتلك حقيقة علمية مستقر عليه.

فسألته سؤالاً قررت أنَّه الأخير..

هل من الممكن أن تطفو الجثة عائمة على سطح الماء فور الوفاة؟!

فأكد في إجابته استحالة ذلك من الناحية العلمية لأنَّ كثافة الجثة لا تسمح بذلك إلا بعد فترة زمنية تنتفخ فيها وتطفو على سطح الماء.

وبدأت مرافعتى طالبًا البراءة للمتهم مستهلاً دفاعى بأنَّ الحقيقة في الدعوى الماثلة قدِّر لها أن تقبر فليس في الدعوى من دليل يشفى غليل الحقيقة الموؤدة شاهد يتيم يقول إنَّه رأى الواقعة لحظة حدوثها غير ذلك الحديث المتهالك الذى نعت بأنَّه اعتراف للمتهم وهو حديث هشّ ضعيف عاجز، لا يستطيع أن يقف على قدميه أمام الحقائق اليقينية التي قدِّر لها أن ترصد في أوراق الدعوى، وهذه الحقائق المؤكد تمثَّلت فى مناقشة الطبيب الشرعى الذى أكد كذب اعتراف المتهم وأنَّه مخالف للواقع والحقيقة والدليل الفني في الدعوى، ومن المسلمات القانونية أنَّ الاعتراف لم يعد سيّد الأدلة وإنَّما بات دليلاً محفوفًا بالمخاطر منافيًا مجافيًا للعقل والمنطق ضد الوضع العادى للأمور في أن يقدم الإنسان دليلاً ضد نفسه يورده موارد التهلكة في سهولة ويسر، ومن ثم كانت هناك من الضوابط والقيود العديدة للأخذ بالاعتراف كدليل معتبر استقر عليها القضاء، وهى أن يكون الاعتراف وليد إرادة حرة مبرأة من أي تداخل أيًا كان قدره هذا التداخل ماديًا أو معنويًا وأن يكون واضحًا وظاهرًا وجليًا مبرأ من أي ضغوط نفسية أو خارجية متفقًا مع بقية الأدلة في الدعوى ومنها الدليل الفني، فإذا جاء الاعتراف متناقضًا مع

الدليل الفني مخذولاً منه بات اعترافًا مكذوبًا لا يعتد بـه ولا يصـلح كـدليل للإدانة.

ولمَّا كانت أوراق الـدعوى حسـبما نضـحت بـه الحقـائق المؤكـدة المرصودة فيها قد خلت من دليل يشفى غليل الحقيقة المفقـودة في الـدعوى الماثلة شاهد رؤية يقـول إننـى رأيـت الواقعـة وانحصـر الـدليل المقـدم في الدعوى في هذا الاعتراف الذى ثبت كذبه على السياق الآتى:

أولاً: فقد اعترف المتهم أنَّه أنهى حياة المجنى عليها بالضغط على رأسـها في الماء حتى ماتت غرقًا وثبـت مـن مناقشـة الطبيـب الشـرعى عـلى النحـو السالف أنَّه يستحيل حدوث الوفاة بهـذه الصـورة نظـرًا لأنَّ تشـريح الـرئتين أثبت خلوهما من المياه.

ثانيًا: جاء باعتراف المتهم أنَّه بعد التأكد من وفاتها غرقًا أنَّه إشـفاء لغيظـه من سوء فعلتها قام بضربها على رأسها بالمجداف وهو ما ثبـت كذبـه بـدوره فنيًا.. إذ قطع الطبيب الشرعى بأنَّ هذه الإصابات لا تحـدث مـن آلـة راضـة كالمجداف وإنما حدثت من آلة قطعية رضية كساطور أو بلطة أو فأس.

ثالثًا: ما ثبت من مناقشة الطبيب الشرعى بالجلسة وأكده من أنَّ التغيرات الرمية التي وجدت عليها الجثة وقت التشريح تقطع بأنَّ وفاتها كانت من مدة لا تقل عن عشرة أيام، في حين أنَّ اعتراف المتهم أنَّه قتلها في تاريخ سابق على العثور على الجثة بثلاثة أيام.

رابعًا: أنَّ ما يؤكد كذب المتهم في اعترافه ما أورده بتحقيقات النيابة من أنَّه عقب قتلها طفت جثتها على سطح الماء وأنَّه رآها والتيار يجرفها حتى غابت عن عينيه في اتجاه الجنوب، وهو ما يستحيل بدوره حدوثه بناء على مناقشة الطبيب الشرعى بالجلسة، إذ يستحيل أن تطفو الجثة على سطح الماء فور وفاتها، لأنَّ كثافة الجثة لا تسمح بذلك إلا بعد فترة زمنية تنتفخ فيها، مما يدفع بها إلى الطفو على سطح الماء.. كما أنَّ ما يقطع بأنَّ اعتراف المتهم هو حديث الوهم والخيال الذى لا يصادف واقعًا أو حقيقة هو استحالة أن يجرف التيار الجثة باتجاه الجنوب، إذ إنَّه عكس اتجاه التيار المائى الذى يتعيَّن معه اتجاه الجثة في مسارها على الفرض الجدلى نحو الشمال لا الجنوب.

وأحسست من عيون هيئة المحكمة –وهى تنصت لدفاعى وتتابعنى فيه– بالرجوع إلى أوراق الدعوى في كل جزئية أثرتها في دفاعى أنَّ المتهم لم يقتل هذه الجثة وأنَّها ليست شقيقته.. أحسست أنَّ الشك قد تسَّرب إلى وجدان المحكمة في جدية هذا الاعتراف وصدقه وأنَّ وراء إصراره على قتل شقيقته لغزًا غامضًا مثيرًا للدهشة والحيرة، خصوصًا أنَّه كان دائم المقاطعة أثناء المرافعة بصوت جهورى يؤكد أنَّه القاتل مرددًا إيه يعنى قتلتها بساطور أو بشومة أنا باعترف انى قتلتها.

وازداد يقينى، وهو ما أحسست بقناعة المحكمة به أنَّ هذا الشاب مضلل وأنَّه يعلم سلفًا أنَّه مكذوب.. واسترجعت صوت والدته لأول مرة عندما

حضرت إلى مكتبى مؤكدة أنَّه برىء..

إنَّ هناك سرًا تختزنه هذه المرأة بين جنباتها.. إنَّها تعرف الحقيقة كاملة.. ولكن ما سر صمتها.. لمن تكون هذه الجثة.. ولماذا يصر ابنها على هذا الاعتراف.. ويقدِّم رقبته طيعًا مختارًا لحبل عشماوى.

لاشك أنَّ أسئلة كثيرة وتخيلات عديدة قد دارت في ذهن الكثيرين ممن حضروا جلسة المحاكمة.. والمتهم يخاطبهم داخل قفصه بكل ثقة وإصرار لا تصدقوا.. أنا القاتل.. غسلت شرفى بيدى.. أمام الشرف تهون الحياة.

وكانت المفاجأة التي زلزلت أركان القاعة.. مفاجأة من العيار الثقيل.. لم تدر بخلد أحد لا الدفاع ولا المحكمة ولا أي من الحاضرين.. كانت مرافعتى قد قاربت من الانتهاء عندما علا على باب قاعة الجلسة صوت سيدة تصرخ من أعماقها تناشد المحكمة أن تسمح لها بالكلام.. كانت تصطحب معها فتاة توشَّحت بالسواد الذى غطَّى جسدها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها.. وطلب منها قبل بدء حديثها أن تزيل النقاب وأن تكشف عن وجهها، ذلك الوجه الذى سيكشف بدوره عن وجه الحقيقة الذى غطَّاه أو طمسه التراب الكثيف الذى هاله عليه المتهم باعترافه الكاذب..

وزالت النقاب وكشفت عن وجهها إنَّها أخته التي اعترف بقتلها.. جاءت بصحبة أمها التي كانت تصيح صيحة مذعورة وهى تطلب الحديث إلى المحكمة.

ووافق رئيس المحكمة.. وتقدَّمت نحو المنصة.. وطلب منها أن تقسم بالله أن تقول الحقيقة.

قالت بعد أن أقسمت إيمانًا مغلظًا أنَّها لن تقول غير الحق ولا شيء إلا الحق:

أنا بصفتى أم أردت حماية ابنتى بعد أن شعرت بأنَّ ابنى وابن عمها قد اتفقا على قتلها، والبحث عن المهندس لقتله.. ولكم أن تتصوروا الجزع والفزع والرعب الذى من الممكن أن يستبد بمشاعر أم تسمع بأذنيها أنَّ ابنها سيقتل شقيقته التي تربَّت معه وعاشا في حب كل للآخر منذ أن تفتَّحت عيناهما على الحياة.. ستضيع منها ستفقدها إلى الأبد وهى التى احتضنتها فى طفولتها وربَّتها فى شبابها.. ولن يقف الأمر عند هذا الحد ستكون كارثتها مضاعفة تفوق الوصف والخيال.. سينال جزاءه.. سيعدم بسببها هو وابن عمه.. وناهيك عن العار والذلة والمهانة التي ستحلّ بالأسرة بأكملها.. إنَّه الوهم.. فأى عار ارتكبته ابنتى؟ لقد أحبَّت حبًا شريفًا نظيفًا نقيًا.. وهذا هو حقها الطبيعى.. كحق أي فتاة في الحياة.. لم ترتكب أى فحشاء.. كان المهندس صادقًا بدوره فى حبِّه لها متفانيًا فى الإخلاص والوفاء لها طالبًا وراغبًا الزواج منها على أعين الأشهاد وعلى كتاب الله وسنة رسوله.

كان حديث الأم أيقونة شعرية مسَّت شغاف القلوب ونفذت إلى فكرهم واستقرت في ضمائرهم.. تساءلت والدموع تملأ عينيها أى جرم ارتكبته ابنتها.. هل عندما يتقدَّم للزواج منها مهندس شاب تتمناه الكثيرات

زوجًا تفخر أي عائلة من الارتباط به.. هل فى ذلك ما يشين؟ هل فيـه جـرم؟ إنَّ الجرم هو أن يتم زواجها بـالإكراه رغمًـا عنهـا.. أن تسـلم جسـدها جثـة هامدة لا روح فيهـا ولا حـس ولا رغبـة لشـخص انقطعـت خيـوط المحبـة بينهما.. أن تعيش تحت سقف واحد مع زوج لا تطيقه.. فأى عيـب فى هـذا؟ ومن منا يستطيع أن يقهر أحاسيسه ومشاعره أن يطفى نـار الحـب المشـتعلة التي تزيد التهابًا وتأججًا بين ضلوعه؟

رغم أنَّ المهندس غادر البلدة ما وقف الأمر عند هذا الحدّ، فقـد أراد شقيقها أن يزوجها ابن عمها فى الأسبوع التالى رغما عنهـا ضـاربًا بمشـاعرها وأحاسيسها عرض الحائط .. كل ما كان يحرص عليـه ويسـعى إلى ترسـيخه وتوثيقه هو تلك التقاليد والعادات والأعراف البالية التي عفـى عليهـا الـزمن والتى مازالت تلك الأعراف الموروثة التي مازالت عالقة في النفوس مسـتبدة ومسيطرة على رؤوس أهل القرية.

إنَّها تحب ابن عمها كأخ لها.. لكنَّ مشاعرها تلفظـه كـزوج، ونحـن لسنا أحرارًا حين نحب أو أخيارًا عندما نكره.

أحسست بالانكسار فى عيون ابنتـى وأنَّهـا تحطَّمـت بالفعـل وباتـت شاردة ذابلة بعد أن كانت زهرة متفتحـة، أضـحت كارهـة للحيـاة، فـالموت أهون عليها من هذه الزيجة التي رأت فيها قتلاً لآدميتها وذبحًـا لمشـاعرها.. كان الزواج منه بمثابة انتحار.

كان علىَّ ألا أقف موقف المتفرج وأنا أرى النار تزداد اشتعالاً واقترابًا من الجميع.. تكاد تلتهم الأسرة بأكملها.. الابنة.. والابن.. وابن العم.. وسمعة الأسرة بأثرها.

فكرت سريعًا فى حلٍّ استخرت الله فيه وهدانى إليه وسط هذه الأمواج المتلاطمة التى كانت تملأ فكرى وتكاد تقضى علىّ.. ووسط هذا الفكر الملبَّد بالغيوم أصدرت قرارًا قاطعًا قررت أن أدفع ثمنه مهما كان هذا الثمن.. لن أسمح بهذه الزيجة.. سأقف بكل ما أوتيت من قوة أمام جريمة تدبر أمام عينى.. لن أسمح بأن أرى ابنتى تذبح قربانًا لتقاليد بالية عفى عليها الزمن.. طلبت من ابنتى الاختفاء بسرعة من القرية عند أحد أقاربنا في القاهرة وطلبت منها أن تطلب المهندس الشاب وتتزوَّجه على أعين الأشهاد وعلى سنة الله ورسوله.

وصمتت الأم وهى تلهث من الانفعال.. ومدَّت يدها إلى جيبها، وأخرجت ورقة قدَّمتها للمحكمة وقالت: اقرأوا هذه الورقة.. إنها قسيمة زواج ابنتى من المهندس.. وأضافت والفرحة الممزوجة بالإصرار والانتصار تشعّ من عينيها إنَّ ثمرة هذا الزواج جنين ينبض في أحشاء ابنتها.

وصرخت -بلا وعى- صرخة مدوية اهتزَّت لها أركان القاعة – لعنة الله على هذه المعتقدات البالية.. لقد آثرت أن أحطمها، أن أكون أول من يبدأ بالقضاء عليها ومحوها من فكر وعقول من أسلم نفسه عبدًا لها.. وتساءلت موجِّهة سؤالها لجموع الحاضرين في القاعة ومنهم ابنها في القفص طالبة

الإجابة.. هل كنت على حق عندما اخترت هـذا الطريـق.. عنـدما أصـدرت قرارى لأخمد نارًا كانت ستلتهم الجميع.. هل أجرمت ابنتى عنـدما تزوَّجـت ممن تحب؟ هل أجرم زوجها المهندس بدوره عندما تزوَّجها زواجًا شـرعيًا تتويجًا لحبهما؟

وقطع هذا الانفعال والناس صامتون وكأنَّ على رؤوسهم الطير صياح من جانب آخر.. إنَّه صياح ابن العم الذى تقدَّم من بين صـفوف الحاضـرين. وهو يحيى الأم ويصادق قولها ويؤيدها في كل خطـوة خطتهـا.. وكـل كلمـة تلفظت بها.. ويبارك هذا الزواج ويردد أنَّه لـيس أنانيًـا إلى هـذه الدرجـة.. إنَّ نخوة الشهامة والرجولة تأبى عليه أن يعيش تحـت سـقف واحـد فى بيـت لا يسوده الحب بين الزوجين.. مع زوجة لا تبادله مشـاعر الحـب.. إنَّـه يعلـن أمام الجميع أنَّه يبارك هذا الزواج إنَّه يحبها من كل قلبه ولكنَّه حب مـن نـوع آخر كأخت له وابنة عم.

وفى غمرة الفرحة التي استبدت بمشاعر الجميع فـوجئ الحاضـرون بالمهندس الشاب يصـحبه والـده ووالدتـه يـدخلون القاعـة مهنئـين بحكـم البراءة.

استقبلهم الكل بابتسامة ملؤها الترحيب والفرحـة والتكـريم وتعـانق الجميع في لحظة حب صادقة دعوهم فيها للاحتفال بهـذه المناسـبة السـعيدة بين أهالى القرية جميعا وكأنَّهم بذلك يعلنون تمردهم على خزعبلات الماضـى وتقاليد عفى عليها الزمن ليعلنوا عن مولد فكر جديد.

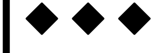
أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة

المحامي بالنقض

القضية السادسة

لقاء مع إبليس



■ ■ لقاء مع ابليس

فصول هـذه القضـية وأحـداثها كانـت أشـبه بالنـاى الحزين الذى يعزف على أشلاء الموتى.. بطلها فلاح مصـرى يقطن إحدى قـرى صـعيد مصـر.. أنجـب ولـدين كانـا قـرة عينيه.. عـاش عـلى مـا تعطيـه أرضـه مـن رزق وخيـر، لكـنَّ طموحاته كانت أكبـر مـن واقعـه.. أراد أن يقلـد أبنـاء قريتـه الذين باعوا أرضهم ونزحوا إلى العاصمة ووجدوا فى التجـارة شطارة ودخلـوا دنيـا الثـراء مـن أوسـع الأبـواب.. وبـدأت الهواجس تطارده.. لماذا لا يصبح مثلهم؟.. همّه أحسن منـى فى إيه.. ليه ما بقاش أحسن منهم.. وفعلا لم يصمد كثيرًا أمـام أفكاره.. قرر أن يبيع أرضه التى كانت بالنسبة لـه مثـل المـاء والهواء.. والبقرة الحلوب التى تدرّ عليه الخير كـل الخيـر.. وعاش من رزقها هو وأسرته طيلـة حياتـه.. وأغـراه طموحـه وعزم وتوكل وباع أرضه التى ورثها عن أجـداده وأفنـى فيهـا طفولته وشبابه وأغمض عينيه عن نظرات أبناء القريـة الـذين



كانوا يرمقونه فى «الجاية والرايحة» ولسان حالهم يقول فى سخرية «ليه ياعوضين بعت القيراطين».. «اللى يفرط فى أرضه زى اللى يفرط فى عرضه»..

وسافر هو وولداه إلى القاهرة أملاً في أن يفتح الله عليه باب رزق جديد يعوّضه ما فات.. كانت المرة الأولى التي يحضر فيها إلى القاهرة المدينة التى لا تنام والحيرة تستبد بفكره هل كان مخطئًا أم مصيبًا عندما باع أرضه وترك قريته ونزح إلى عالم المجهول.. فقد كان عالم القاهرة بأضوائها وسحرها وجمالها بمثابة المجهول بالنسبة له.

أحسَّ فى أول يوم نزح فيه إلى القاهرة أنَّه سقط فى بحر لا شاطئ له تتصارعه الأمواج.. وتتقاذفه الرياح.. فهل سيتحقق حلمه ويصل إلى شاطئ الأمان أمام هذه الأمواج العاتية؟ كان إصرار الرجل بلا حدود وعزمه وجلده لا يتوقفان اشترى على الفور منزلاً يجاوره مخبز، بدأ العمل فيه بجد منذ اليوم الأول.. كان ساعده الأيمن ابنه الأكبر الذى كان يعمل فى الفرن بلا توقف .. يصل الليل بالنهار، عيناه لا تغيب عن العمال حتى يزيد الإنتاج ويحقق حلم أبيه ويرفع رأسه وسط أهل قريته.

كان الله معه، فالله دائمًا مع الكادحين المخلصين فى عملهم.. زاد الإنتاج واتسعت رقعة التوزيع عامًا بعد عام.

أما الابن الأصغر فقد أصرَّ الأب والأخ على مواصلة تعليمه حتى يحصل على «الشهادة العالية» كما كانا يسميانها.. فقد كانت تلك أمنياتهما أن يرياه في مركز مرموق وقد شغل وظيفة يتفاخرون بها ويتباهون أمام أهل

قريتهم.. ويؤكدون لهم أنَّهم كانوا على حق عندما باع الأب أرضـه ونـزح إلى القاهرة ليعيش هو وأولاده في عالم خصب جديد مهيأ لاستقبال أحلامهم بـل دافع لتحقيقها.

وأدرك الأب أنَّ الأيام تسرق ابنه الأكبر.. وأنَّ قطار العمر يمضى به وهـو لا يفكر إلا فى المخبز ولا ينصرف ذهنه إلا فى العمل وجمع المال ليكون حصنًا لهم وأمنًا وأمانًا من خدر الأيام.. فصمم على ألا يتركه على هذا الحال.. لابد أن يـتمّ نصف دينه واختار له فتاة تسكن فى الحى الذى يقيمون فيه.

كانت حسناء ممشوقة القـوام شـعرها غجـرى.. عيناهـا كعيـون المهـا.. ضحكتها تنفذ إلى القلب وتحتل أكبر جزء منه إن لم تحتله كله فلا تتركه معافى سليمًا.

وعاش الابن الأكبر مع زوجته فى منزل الأسرة يعوّض الليالى الحالكة التى كان يقضيها سابحًا فى عرقه أمام نيران الفرن.. إنَّه أمام نار من نوع جديد لا تقل فى لهيبها عن تلك النار التى كانت تلفح وجهه أمام الفرن.

كانت زوجته كالقطـة السـيامى.. سـحرت الجميـع بأسـلوبها اللبـق وبهرتهم بجمالهـا الفتَّـان.. واحتلـت رؤوسـهم بقـدّها الممشـوق .. غطَّـت المنزل ببهجة لم يعهدوها من قبل.. بدلت ذلك السكون الذى كان يخيّم عـلى المسكن من قبل وكأنَّه منزل مهجور لا حس فيـه ولا حيـاة.. أصـبحت هـى الملكة المتوجة على عرش أفئدة الجميع الذى امتلأ بحبها والإعجاب بها.

ولم يستطع الابن الأصغر أن يقاوم سحرها وخفة دمها ودلالها بعد أن لطشت قلبه البكر وسرقت عقله المتعطش إلى الحب.. بدأت أحواله تتبدّل.. بدأ يهتم بمظهره.. بملبسه.. يقتنى الروائح النفاذة علَّها تنفذ إلى قلبها بعد أن أطارت النوم من عينيه وزرعت جذور حبها فى أعماق قلبه التي كانت تنمو بسرعة متزايدة يومًا بعد يوم وترفرف أوراقها داخل قلبه الخصب.. كان لا ينام الليل ولا النهار.. قلبه يخفق دائمًا يردد أنشودة حبها.. اقتنى أغانى الحب.. والغرام.. التي تحكى سهر الليالى في جفون المحبوب التي فارقت النوم.. واستعصت عليه.. كان يتعمَّد تشغيل الشرائط التي تحكى حلاوة الحب وجنته، اقتنى ما استطاع قراءته بنهم من حكايات الحب والغرام الرومانسية التضحية بكل شيء من أجل المحبوب.. غيَّر نبرات صوته ولهجته الصعيدية ليتحدَّث معها برقة ونعومة تعكس نبضات قلبه الذى ملأه حبها.. كان يطيل النظر إليها فتغمره سعادة لا حدود لها إذا ابتسمت خيّل إليه أنَّها تبتسم له وحده وأنَّه ملك الدنيا وما فيها.. معها كان يحس أنَّ السعادة فتحت له أبوابها على مصراعيها، ليدخل إلى جنة حبها.. استبدت الحيرة بالشاب واستحوذ عليه القلق وهو مازال كاتمًا حبها داخل أضلاعه.. لم يبح به لأحد سوى نفسه الحائرة الهائمة المتدفقة شوقًا وعشقًا وافتتانًا بجمالها.. كم تساءل فى ليله الطويل وهو شارد الفكر هائم في حبها لا يغمض له جفن ولا تنام له عين.. فقد عوَّد قلبه على أن يسهر معها يناجيها في خياله ويسأل قلبها هل نفذ الحب إليه.. هل تبادله هذا الفكر.. هل تسرَّبت نار نيرانه إلى أحاسيسها فباتت تتقلب كما يحدث له وكأنَّه ينام على الجمر.

كل هذه الأسئلة كانت تدور فى عقل الفتى وهو حائر هـائم لا يعـرف لها إجابة.

وقطع عليه هذه الحيرة وهذا القلق الذى يسـتبد بـه ذات ليلـة عنـدما طلبت منه أن يقابلها خارج المنزل بعيدًا عن عين شقيقه ووالده.

فى تلك اللحظة عمته الفرحة وكأنَّ الدنيا كلها ملك يديـه، واعتقـد أنَّ الطير قد وقع وأنَّ سهام الحب قد نفذت إلى قلبها فأدمته.. وأنَّ كيوبيد الحب قد احتلَّ عقلها وفكرها.. وأنَّها طلبـت لقـاءه لتبـوح لـه بحبهـا وتعتـرف لـه بأشواقها وهيامها به وأنَّه فتى أحلامها وأنَّ زواجها من أخيه كـان أكبـر خطـأ ارتكبته في حياتها وأنَّ عليهما أن يفكرا معًا بقلـب وبفكـر واحـد في تصـحيح المسار ولكن كيف؟ كان سؤالاً محيرًا.. خاصة وأنَّها أصبحت أما لطفلـين.. هو عم لهما.

التقى بها بعيدًا عن عيون العزَّال في مكان شاعرى على ضفاف النيـل.. قابلته بابتسـامة عذبـة.. ورمقتـه بنظـرة سـاحرة.. أحـسَّ لحظتهـا أنَّ ظنونـه وأحلامه أصـبحت حقيقـة.. إنَّهـا جـاءت لتصـارحه بحبهـا، وتلعـثم لسـانه وتحجَّرت الكلمات بين شفتيه حتى قطعت سكوت اللقاء وهى تضـغط عـلى يده قائلة:

- أنا حبيت

ولم يتركها تكمل الحديث عندما تشجع وهو يقول..

- أنا عارف كل حاجة.

ازداد رنين ضحكتها وهى تقول فى غرابة:

- والله ما أنت عارف حاجة. طيب قوللى إنت عارف إيه؟

أحبَّ أن يسمع منها حديث الحب، ذلك الحديث الذى سهر الليالى الطويلة يسمعه فى خياله الشارد.. لقد حانت اللحظة التى أصبح الحلم حقيقة ماثلة أمام عينيه.. ها هى جاءت إليه بقدميها.. بإرادتها.. باختيارها.. لتعلن له هذا الحب الذى طال انتظار سماعه.. عليه أن يتمهل قليلاً، فقد مضى الكثير وما بقى إلا القليل فليسمع منها هى إعلان حبها تنطق به من بين شفتيها وكأنَّه البلسم الذى يداوى جراح قلبه.

وبدأت فى الحديث والبسمة لا تفارق شفتيها.. وقلبه مازال يخفق وازداد خفقانًا عندما تحدثت..

- أنا.. جيت.. أقولك.. إنى عاوزاك تتجوز أختى هى بتحبك وانت مش حتلاقى أحسن منها.

تسمَّرت عيناه وجمد الدم فى عروقه وازداد قلبه خفقانًا وكسا وجهه حمرة لاحظتها وهو يسمع منها هذه الكلمات.. كانت مفاجأة قاتلة غير متوقعة.. كان حديثها كالصاعقة التى حلَّت برأسه وشلَّت فكره والمطرقة التي هوت على قلبه الجريح فقضت عليه.. فما عاد قادرًا على الإجابة أو مجاراتها فى الحديث.

ربما أحسَّت لحظتها بأنَّ الخبر كان مفاجأة له فقد كانت ذكية لمَّاحة.

وسألته:

- مالك .. اتخدت كده ليه؟ انت مكسوف ولا إيه؟

أكيد مكسوف وده واضح.. وشك شكله اتغير.. أقدر أقول مبروك.

لم يسعفه لسانه فى أن يرد عليها وهو مطأطئ الرأس كسير النفس، وقد استبدت به خيبة الأمل وأجابها بصوت متلعثم..

- أبدًا.. أبدًا..

واستمر يرددها وكأنَّه لا يدرى ماذا يفعل وماذا يجيب؟!

وتركته فى حيرته وقد قررت الانصراف حتى لا يراهما أحد منفردين قائلة:

- على العموم أنا حا أسيبك دلوقتى وأنا عارفه إنك حتوافق.. حا أسيب لك فرصة تفكر فيها برواقة.. لحظتها أحسَّ بعد أن فارقته.. أنَّه يتيم وحيد فى هذه الدنيا وأنَّ الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت وأنَّ آماله وأحلامه قد تحطَّمت بلا رحمة وبلا هوادة على صخرة الواقع المرير والأليم.. أحسَّ أنَّه عاش الأيام والليالى حالمًا واهمًا يغوص فى بحور الخيال يعذِّب نفسه فى نيران الحب الذى يكتوى بناره هو فقط.. فكَّر جديًّا فى أن يلفظها من حياته وأن يطردها من فكره وأن يقذف بها من قلبه الذى تربَّعت على عرشه.. فقذفته

الأفكار ولعبت برأسه الهواجس.. لكـن مـا لبـث هـذا الفكـر أن تبـدد أمـام وساوس الشيطان التى بدأت تتسرب إلى أوصاله وتنفـذ إلى مخيلتـه وتـنهش فكره من جديد.. أعـاده الشـيطان إلى عـادات أهـل الريـف عمومًـا وتقاليـد الصعيد خصوصًا .. إنَّ الزوج إذا مـا تـوفى فعـلى الأخ أن يتـزوج مـن أرملـة شقيقه خصوصًا أنَّ زوجة أخيه قد أنجبت طفلين سيكون هو الأولى بتربيتهما ولم يشعر بنفسه وهو يصيح من أعماقه صيحة استرعت والده وهو يصرخ..

- لا.. لا.. مش ممكن..

ويضرب بيده على المنضدة التى تحطَّم زجاجها فأدماهـا كقلبـه الجـريح الذى مازال يقطر دمًا.

صرخ من أعماقه لا وهو يتـذكَّر الليـالى الطويلـة التـى قضـاها شـقيقه فى المخبز، والعمل الشاق الذى كان يفوق قدرته، ومع ذلك كـان يتحامـل عـلى نفسه ليوفر له ولوالده الراحة والمال.. كان يقتطع من قوته ويعطيه له ليكمـل دراسته حتى يكون على قدم وساق مع أقرانه فى الدراسة.. لم يحرمه من شئ.. لم يجعله يحسّ فى يوم أنَّه أقل شيئًا من أى زميل له.. ولكن ما لبـث الشـيطان أن استحوذ على ضميره وكتب شهادة وفاته.. فقد زيَّن لـه الشـيطان صـورتها وهى بين أحضانه تغمره بدفئها وأنوثتها وحنانها.. تخيَّل صوتها وهـى تشـدو له أغانى الحب التي سمعها لها كثيرًا.. وكأنَّه صوت الكروان يشدو.

لم يستطع أن يقاوم نفسه التي جرَّدها منه شيطان العشق.. أمام بسمتها التي

لا تفارقه وصوتها الذى يتغنَّى بأعذب كلمات الحب.

وسط هذا البحر الخضم من الأمـواج المتلاطمـة مـن الأفكـار التـى تصارعت جميعًا فى رأسه الخاوى.

حسم إبليس الموقف لصالحه وتغلَّبت كفة الشر عـلى كفـة الخيـر.. غاب الضمير وانعدم الفكر.. انحنى الفتى أمام إبليس منفذًا خطته الجهنميـة التى زرعها فى أعماقه للتخلص من شقيقه حتى يغنم بزوجته.. فقد غـرس في نفسه المريضة وفى ضميره المعتل أنَّ ذلك هو الحل الأمثل الذى سيحقق لـه السعادة ويجلبها بين أحضانه.. صوَّر له شـيطانه أنَّهـا تحبـه.. وأنَّ أخـاه هـو الحائل بين أن ترتمى في أحضانه معلنة حبه الذى يحتـل قلبهـا.. وأنَّ الفكـرة التي طرحتها للزواج من أختها كانت لمجرد اختبار حبه لها.. وأنَّه كان عليـه أن يعلن لها في تلك اللحظة أنَّها هي التي تحتـل قلبـه.. وتملـك أحاسيسـه.. وتستحوذ على فكره.

سمع نداء الشيطان ولباه.. قتل أخيه هو المفتاح السحرى الذى سيفتح له أبواب السعادة.. هو الذى سيدخله إلى جنة قلبها.. بل سـيظهر أمـام الجميـع مظهر الشاب الشهم الذى لم ينس فضل أخيه عليه وعـلى الأسـرة.. فتزوَّجهـا لمًا لشمل الأسرة ووفاء وردًا لجميل..

ودوى نداء الشيطان في أذنيه.. لاحقها حتى أصمها فلا تسمع إلا نـداءه.. وأغلق على ضميره ونحاه بعيدًا عنه وشلَّ فكره فأضحى بلا أذن تسـمع.. بـلا

ضمير يحاسب.. بلا فكر يقدّر ويدبّر.. قاده الشيطان مغيبًا، حيث المخبز الذى يعمل فيه أخوه.

انتظره ليلاً حتى انتهى من عمله فى مكان مظلم داخل إحدى حجرات الفرن بعد انصراف العمال وانقضَّ عليه بساطور وظلَّ ينهال عليه به حتى تيقَّن من وفاته.. لم يتحرك قلبه الذى تحجَّر كالصخر وهو يسمع صرخات شقيقه ويستعطفه وينظر إليه في استغراب وحسرة.. نظرة الوداع وهو يتعجَّب ولا يصدق ما يرى.. وهو يردد كلماته الأخيرة.. مش معقول!! مش معقول.. انت!

حتى دماؤه التى نزفت أنهارًا لم تشفع لدى نفسه المريضة ولا عينيه التى أصابهما العمى.

وفى لحظة كان الشقيق الأكبر يلفظ أنفاسه الأخيرة تشبث ممسكًا بأخيه.. محتضنًا إيّاه آخر أحضانه ربما أراد أن يذكره فلربما شفعت الذكرى له وحالت دون استمراره في فعلته.. ولكن دون جدوى.. كيف كانت الحياة بينهما بالأحضان ونزع الأخ وهو ينازع سكرات الموت كم قميص أخيه القاتل وسقط على الأرض وهو مازال متشبثًا ممسكًا به وانصرف ومعه الشيطان دون وعى أو شعور، فقد حقق جزءًا من خطَّته وهو لا يعى أنَّه قد ترك الدليل المادى على فعلته.. كم قميصه الذى مازال فى يد أخيه قابضًا عليه ملوثًا بدماء أخيه.

وعاد إلى المنزل وكأنَّ شيئًا لم يحدث، وقام بتغيير ملابسه وأعاد إليه

إبليس الأمل بعد أن تخلَّص من شقيقه عليه أن يشكره لأنَّه هداه إلى طريق السعادة.. الآن أصبح الطريق خاليًا له مع زوجة أخيه.

واكتشف الأب والعمال في المخبز الجريمة صباح اليوم التالى، وكاد يصاب بالجنون، من القاتل؟ وما الدافع إلى ذلك.. وما زاد من حزنه أنَّه محبوب من الجميع وليس له أعداء.

وبكى الابن الأصغر على مصرع أخيه، كانت دموع التماسيح تعتيمًا على فعلته الشنعاء.. فمازال إبليس يلاحقه ويخطّط له ويرسم له معالم الطريق.

واستبدت به البجاحة وهو يعلن على قبره لحظة إيداعه مثواه الأخير.. أنَّه لن يترك القاتل سيتعقبه حتى يثأر منه.. وأنّه لن يغمض له جفن أو تقرّ له عين قبل أن يتوصّل إليه ويقتصَّ منه مهما كلفه ذلك من ثمن.

نشطت المباحث في جمع التحريات وأطلقت عيونها في كل الأماكن التي تحيط بالحادث، في الفرن، في الشارع الذى يسكن فيه القتيل.. عثر رجال الشرطة فور انتقالهم إلى مسرح الحادث على القتيل ممسكًا بكم القميص بين أنامله ملوثًا بالدماء، عرضت هذا الكم على عمال الفرن الذين أكدوا أنَّه كم القميص الذى كان يرتديه شقيقه ليلة الحادث.. وتمت مواجهته بهذا الدليل وعلَّة وجوده في قبضة أخيه فلم يستطع أن يقدم تبريرًا لذلك ولم يجد أمامه وقد حاصرته الأدلة سوى الاعتراف بجريمته.. روى

تحالفه مع الشيطان وصفقته مع إبليس وكيف أنَّ نار الغيرة من شقيقه حرقت قلبه ونهشت فكره وأماتت ضميره.. وأشعلت النيران بداخله، وسرت فى كل عروقه مسرى الدم.

كان كلما أغلق شقيقه باب غرفة النوم مع زوجته تشتعل فيه النيران.. ويزداد لهيبها اشتعالاً.. داخل نفسه السقيمة وقلبه المريض وفكره العليل.

وهداه تفكيره السقيم وخياله العقيم إلى التخلص منه بعد أن أقنعه الشيطان أنَّ أخاه هو العقبة الوحيدة في طريق الوصول إلى قلب زوجته.. إنَّ قتله هو الحل الوحيد والطريق الذى لا بديل عنه للاستحواذ عليها.

وأمام اعترافه وموت ضميره وبشاعة فعلته وتدنى فكره حكمت محكمة الجنايات بإعدامه شنقًا.

كانت تلك الصورة التى وضعها الأب أمامى من واقع الأحداث التى عاصرها وعصرته.. وسطّرت فى أوراق القضية التى قدَّم صورة منها لى، وطلب منى مستعطفًا كأب للقاتل والقتيل.. الدفاع عن ابنه القاتل جاء حانيًا باكيًا متكئًا على عصى.. وقد ترك هول الصدمة ووقعها على جسده الهزيل فبات مرتجفًا.. مرتعشًا.. شاردًا.. شاخصًا ببصره.. سابحًا في بحر من الظلمات.. لا أمل في النجاة منه.

أهم ما استوقف نظرى وهزَّ مشاعرى وسبح فيه خيالى أمران.

<u>أولهما:</u> أنَّ قصة قابيل وهابيل تعيد نفسها من جديد بصورة عصرية وبشكل

أكثر وحشية وبأسلوب أكبر تدنيًا وسقوطًا.. كانت الخيانة في أبشع صورها هي البئر التي سقط فيها الأخ.

وكدت أرفض الدعوى لولا تلك الدموع التى كانت تنساب بلا حساب من عينى الرجل، وهو يتوسل إلى ويستعطفنى حتى لا يفقد ابنه الثانى وهو يرفع وجهه وكفيه إلى السماء داعيًا الله أن يعجّل بحياته وأن يرحمه من هذا العذاب المقيم.

ثانيًا: فقد أحسست وأنا أتابع اعتراف الابن القاتل بين سطور القضية.. أنَّ الصورة قاتمة.. صورة الدليل بالنسبة له بل صورته كابن مدلل ومتعلم.. كانت أكثر إظلامًا وهو يعترف بكل جرأة ووقاحة أنَّه قتل شقيقه من أجل حب زوجته وحتى يزيحه من طريقه ويخلو له الجو معها.. لقد هانت عليه روح شقيقه واستباح دمه فى مقابل نزوة وشهوة جسد استبدت بفكره المريض وضميره الميت وأحاسيسه المتحجرة، خصوصًا أنَّ تحريات المباحث أكدت استقامة الزوجة وأنَّ ما كان يجول فى فكره من حب وهيام بها ما خطر لها ببال ولا ورد لها بفكر وأنَّه كان غارقًا في تخيلات وأوهام هو المسئول عنها بعيدة عن الصحة منفصلة تمامًا عن العقل والواقع والمنطق.

ووسط هذا الظلام الذى أحاط بالدليل وبظروف القضية ووقائعها وأحداثها ظهر لى بصيص من الأمل وأنا أطالع أسباب الحكم الذى قضى بإعدامه لعلّى أجد فيها من الأسباب ما ينقضه، أملاً فى إعادة محاكمته

خصوصًا وأنَّ الدفاع الذى حضر معه قد قصر دفاعه على طلب استعمال الرأفة.

تبين لى من أسباب الحكم أنَّه لم يدلل استقلالاً على نية القتل وهو بذاته سبب كافٍ لنقض الحكم.

وأوردت فى أسباب الطعن أنَّ جرائم القتل من الجرائم ذات القصد الخاص الذى يتعين أن يدلل عليه استقلالاً فى الحكم.. ألا وهو نية القتل.. وأنَّه يتعين لسلامة الحكم أن يدلل على هذه النية استقلالاً وأن يورد من الأدلة أنَّ المتهم عندما اعتدى على المجنى عليه لم يقف عند القصد العام.. وهو قصد المساس بجسده وإنما تعدّاه إلى ما هو أبعد من ذلك وهو القصد الخاص.. أى قصد إزهاق روحه.

وأوردت أيضا كسبب آخر أنَّ الدفاع الحاضر مع المتهم قد اكتفى بطلب استعمال الرأفة فحسب وهو دفاع قاصر لا يحقق الغاية التى تغيَّاها المشرع الدستورى والإجرائى فى أنَّه لابد أن يكون مع المتهم فى جناية أمام محكمة الجنايات محامٍ على درجة من القيد لا تقل عن ابتدائى ليدافع عنه دفاعًا جديًا لا شكليًا ينبئ أنَّه ألمَّ بظروف الدعوى وملابساتها، ويترافع مرافعة جدية لا شكلية نظرًا لما للاتهام بجناية من أمر له خطره وخطورته.. وتلك الغاية والحكمة التى تطلَّبها المشرع الدستورى والإجرائى لا تؤتى ثمرتها ولا تتحقق غايتها أمام تلك الكليمات القاصرات فى محضر جلسة المحاكمة من أنَّ الدفاع طلب استعمال الرأفة. وأخذت محكمة النقض بهذه الأسباب

وقضت بنقض الحكم أمام دائرة جديدة.

وأمام بكاء الأب وتوسلاته اهتزَّ وجدانى لحال هذا الأب وما حلَّ به من كارثة تنوء عن حملها الجبال ابن قتل بيد أخيه الابن الآخر الذى سيعدم.

ولم أجد بدًا غير الاستجابة لرجائه رحمة بأب شاء القدر أن يضعه في هذا الموقف الأليم.

وكان يوم إعادة المحاكمة..

ومنذ الوهلة الأولى التى اعتلت هيئة المحكمة المنصة رمقه المستشارون بأعينهم وهو قابع خلف القضبان أحسست أنَّهم يرون فيه الذئب الغادر الذى لا يتورَّع أن ينهش أقرب الناس إليه أحسست أنَّهم يرون فيه صورة مجسمة للخسة والندالة وانعدام الضمير.

وتبين لى اشمئزاز أعضاء الدائرة من هيئته وشكله وصورته.. وبان لى ذلك أكثر وضوحًا أثناء توجيه رئيس الدائرة الأسئلة إلى المتهم:

- انت متهم بقتل شقيقك واعترفت فى النيابة..

فتلعثم فى الإجابة

وعلا صوت رئيس المحكمة..

- لقد اعترفت بأنَّك قتلته طمعًا فى الزواج من زوجته.

فانهمر فى البكاء ولم يحس أحد ببكائه.. ولم يجد نحيبه طريقًا إلى القلوب

المستنكرة لفعلته الرافضة لمجرد إعطائه أملاً في إعادة محاكمته.

وطلب رئيس الدائرة منى المرافعة..

فطلبت من الهيئة أن يتسع صدرها وتسمع أقوال والده بناء على رغبته وإصراره في الحديث إليه.

وسمحت المحكمة للأب فى أن يتحدث ونادت عليه..

تقدَّم إلى المنصة هزيلاً مهمومًا يكسو الحزن وجهه، وقد خارت قواه وعجزت ساقاه عن حمله فحضر محمولاً على الأكتاف.. أشعث.. خفيض الصوت وكأنَّه يلفظ أنفاسه الأخيرة.. كان صوته باكيًا وحديثه نابعًا من القلب قال بصوت متحشرج وكأنَّه يخاطب ملك الموت..

- القضية كلها ممكن أقولها في كلمة واحدة..

أنا الضحية.. أنا الذبيحة التي ذبحتها سكين الأيام بلا شفقة ولا هوادة ولا رحمة.. وشخص ببصره وكأنَّه يستعرض شريطًا لهذا الكابوس، لهذه المصائب المجتمعة التي هوت على رأسه كالمطرقة.. ابن قتل وابن آخر سيقتل باسم القانون.. سقط على الأرض.. خيَّل للجميع لحظتها أنَّه فارق الحياة وغادر الدنيا حتى لا تواصل الحياة تسديد طعناتها إلى قلبه الدامى المثخن بالجراح ورفعوه بصعوبة وهو يقول:

- اعدمونى أنا وبلاش ابنى.. حياتى لم يعد لها ثمن لولا أن الانتحار حرَّمه الله لانتحرت.. واسترحت من هذه الحياة القاسية.. ما قيمة الحياة

عندما يفقد الإنسان أعز ما يملك «ابنيه» إنَّ الموت هو الراحـة الحقيقيـة لى.. أنا المجنى عليه الحقيقى فى كل ما حدث.. في هذا السيناريو المفزع.. أرجـو وأتوسَّل لكل واحد منكم أن يرى نفسه مكانى.. أن يعـانى آلامـى.. أن يـرى دموعى التي تنهمر ليلاً ونهارًا حتى أشدّ أنواع المهدئات والمنومـات فقـدت مفعولها معـى.. أنـا راضٍ بحكمكـم.. هـل سـيحس بعـد ذلـك بـأى طعـم للحياة.. أنا الحى الميت بل الميـت فعـلاً تصـوروا أنَّ كـل أحلامـى وآمـالى راحت أدراج الرياح وكل شقاء سنوات عمرى اختطفـه الشـيطان فى لحظـة! فلماذا أعيش؟ وما فائدة الحياة.. ثم توقف عن الكلام، ورفع يديه إلى السماء ينـاجى ربـه مسـتغيثًا فى صـوت جهـورى.. وقـال: اللهـم لا اعتـراض عـلى حكمك.. إننى مؤمن بقضائك وقدرك ومتحمـل لكـل العـذاب والألم الـذى حلَّ بى.

ثم التفت إلى طفلتين كانتا كزهرتين ذابلتين، وقد كسا وجههما الحزن والذلة والانكسار.. كانتا تجلسان فى الصف الأخير فنادى عليهمـا وبـان مـن ملامحهما الأسى والهم والحزن والانكسار وهو يناشد رئيس المحكمة:

- «البنتين دول بنات ابنى اللى اتقتـل وعمهمـا هـو الـلى محكـوم عليـه بالإعدام».

وأجهش الرجل فى بكاء عميق وهو يردد في أسى وحسرة.

- أنا حاسس إنَّ أيامى فى الحياة معدودة.. من سينفق على البنتين دول؟.

مين يربيهم؟ مين يراعيهم؟ الحكم بإعدام ابنى إعـدام لى وللبنتـين دول.. مـا مصيرهما وزاد إجهاشًا بالبكاء.. الشارع طبعا.. حيشـحتوا أو ينحرفـوا.. أو.. وتوقف لبرهة وهو يجهش في البكاء على نحو أدمى قلـوب الحاضـرين وهـزَّ مشاعرهم خاصة بعد أن انهمرت دموع الطفلتين في بكاء متواصل.. وإذا مـت مين يدفنى؟..

ظلَّ الأب يتحدَّث من قلبه ما يقرب من نصف ساعة، صمت الحاضـرون جميعًا.. المستشارون والمحامون والجمهور والمتهمون القـابعون فى قفـص الاتهام وهم ينصتون إلى هـذا الـنغم الحـزين لصـوت القلـب قبـل أن يكـون صوت اللسان.

كان الجميع مشدوهًا وكأنَّهم يشاهدون تراجيديا مأساوية الأحـداث جسَّدها الأب.. وصوَّر سيناريو أحداثها وكأنَّهم يرونها رؤيـا العـين.. بـل إنَّ البعض من الحاضرين.. دمعت أعيـنهم.. إشـفاقًا عـلى حـال الأب وتعاطفًـا معه.. أحسّوا أنَّه الضحية الحقيقية لكل هذه الأحداث..

أحسست أنَّ تـأثرًا واضـحًا عـلى وجـوه أعضـاء الـدائرة، وقـد بـات واضحًا فى عيونهم ذلك، بل لقد تأثرت أنا شخصيًا بحديث الأب، فقـد كـان نابعًا من القلب هـزَّ وجـدانى ونفـذ إلى أعمـاق قلبـى واسـتولى عـلى فكـرى واستحوذ على مشاعرى.

كان حديث الرجل وطريقة أدائه ينفطر لهـا القلـب.. أحـسَّ الجميـع بمأساته التي استقرَّت صورتها في وجدانهم.

وفى غمرة هذا المشهد المأساوى طلب منى رئيس الـدائرة مـن فـرط انفعاله وتأثره أن آخذ الرجل وأخرج به إلى خارج القاعة، فقد فهموا مضمون الرسالة وأدركوا فحواها.

ورفع رئيس المحكمة الجلسة بعد هذا الحديث الدامى من الأب.

فما عاد أحد فى القاعة قادرًا على أن يصـمت أمـام دمـوع الأب أو يغالـب هذه الدموع التى بدأت تجد لها طريقًا على خدود الحاضرين.

أحسست فى فترة الاستراحة براحة عميقة، فتلك هى مهمة المحـامى فى كيفية تحريك وجدان المحكمة وفنية كيفية الوصول إلى مشاعرها.

وقطع هذا الصمت صوت الحاجب..

- فتحت الجلسة..

بدأت مرافعتى قائلاً:

إنَّ الأصل فى الشريعة الإسلامية وهى أصل للتشريع وفقًا للدستور أنَّها فرَّقت بين جرائم الحدود وجرائم النفس، فجرائم الحدود حق خالص لله يغلب فيها حق الرب على حق العبد.. لا شفاعة فيها.. ولا يرد عليها الصلح أو العفو.. أو الدية.. أما فى جرائم النفس فحق الفرد يغلب فيها على حق الرب إذ إنَّ علَّة العقاب فيها هو إشفاء غيظ المجنى عليه إعمالاً لقوله تعالى.. في سورة الإسراء ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.. أى (ولى الدم) وقوله تعالى: في سورة البقرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ

وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾.

وإعمالاً للآيتين الكريمتين فإنَّ ولى الدم له أن يعفو أو يتصالح أو يتنازل أو يقبل الدية على نحو يمتنع معه وبإجماع آراء الفقهاء القصاص شرعًا لأننا أمام نص معلوم في الدين بالضرورة أورده الله لحكمة بالغة أنَّه تخفيف ورحمة من الله.

وها هو الأب ولى الدم شرعًا يقف أمامكم.. يلوذ بمحرابكم العادل فى أن ترحموا شيخوخته.. أن تنتشلوه من عذابه.. أن تهوّنوا عليه فداحة المأساة.. ألا يفقد ابنيه الاثنين فى وقت واحد.. استجيبوا لصرخاته.. لرجائه.. لتوسلاته.. ودعواته لله في أن يرحمه من هذا العذاب المقيم.. أنقذوا ابنه الآخر فذلك حكم الله ومن أحسن من الله حكمًا عندما أورد فى كتابه الكريم.. ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾.. حديثًا لا ريب فيه ولا مراء من أنَّ ولى الدم إذا عفا فلابد أن نأخذ بعفوه، فهو التخفيف من الله الذى يتعيَّن له أن تنفتح له كل الأبواب، والقول بغير ذلك إغلاق لباب الرحمة الذى فتحه الله وأوجب العمل به إنقاذًا لهذه الأسرة الأب.. والبنتين قبل المتهم.. إنَّهم المجنى عليه الحقيقيون كما جاء فى حديث الأب العفوى، وهو حديث يعجز أبلغ الكتَّاب فى أن يصوروه.. وأبرع الممثلين في أن يؤدوه ولكنه صوَّره بعفوية لأنه حديث القلب بلا زينة ولا رتوش.

ورفعت الجلسة.. وران الصمت على القاعة.. الكل ينتظر سماع حكم

المحكمة.

وتباينت الآراء توقعًا للحكم.. واختلفوا في قـدر العقوبـة التـي سـتوقعها المحكمة

وقطع هذا الجدل صوت الحاجب من جديد..

- محكمة..

ووجه رئيس المحكمة قبل النطق بالحكم حديثه للمـتهم مؤنبًـا وموبخًـا ومستهجنًا فعلته:

- انت متستهلش أى رحمة.. إنَّ جريمتك لا تطهرها ميـاه المحيطـات.. إذا كنا استعملنا الرأفة معاك عشان أبوك وولاد أخوك البنتين.

ونطق بالحكم..

حكمت المحكمة حضوريًا بمعاقبة المتهم بالأشغال الشاقة لمـدة خمـس سنوات.

ومرَّت الأيام سريعًا.. مضى ما يقرب من عامين عندما طرق باب مكتبـى الأب.. كان مبتسمًا سعيدًا حليق الذقن.. منتصب القامة، وقـد تحلَّـى بثـوب ناصع البياض وهو يتأبط ذراع ابنه بعد أن أفرج عنه بمناسبة عيـد الفطـر بعـد قضاء ثلاثة أرباع المدة جاء لشكرى بعد الإفراج عنه..

ما أغرب القدر وقدرته على إسدال ستائر النسيان على الماضى.. لقد نسى

الرجل مقتل ابنه فى غمرة الفرح بنجاة الابن الثانى من حبل المشنقة.. وسألته على استحياء ما حال الزوجة بعد مقتل زوجها.. كان جوابه غريبًا.. كان يعض بنان الندم ويعتصر الحزن والأسى كلماته.. وهو يتردد في الإجابة..

مش عايز أسمع سيرتها.. وأعدت المحاولة أستدرجه وأستنطقه ما يختزنه داخل خزينة نفسه..

ألم تحاول أن تتصل بك بعد الحادث..

سرح لبرهة وأحسَّ أنَّ من حقى أن أقف على الحقيقة كاملة.. وقد عاصرت كافة أحداث القضية التي كان لابد للوقوف على نهايتها من معرفة حقيقة هذه المرأة..

أجاب..

بعد اتهامى في القضية وانقضاء عدتها بعدة أيام تزوَّجت من ابن الجيران.. وسافرت معه إلى أحد بلدان النفط تاركة بنتيها لافظة حياتها السابقة ونبذتها وراء ظهرها..

راودته وساوس الشيطان وهو في سجنه ينتظر حكم الإعدام أنَّ علاقة كانت تربطها بهذا الفتى الذى تزوَّجته، أنَّها هي التي رسمت وخططت وفتحت له أبواب الشيطان كى يخلو لها الجو مع هذا الشاب.. راودتنى فكرة الانتقام منها.. انتظرت لحظة الإفراج عنى بعد الحكم الأخير لتنفيذ ذلك..

وقطعت عليه حديثه بسؤالى..

وما الذى حال دون ذلك؟

أجاب.. بعفوية وبلا تفكير..

مشهد والدى في المحكمة كان هو العاصم الذى حال بينى وبين الاستجابة لنداء الشيطان.. كان لابد أن أطرد إبليس من حياتى.. أن أتجه إلى الله.. أن أوفر لوالدى وابنتى أخى الراحة والأمن والأمان..

عاهدنى أن يصر ويداوم على ندمه على ما فات.. وأن ينسى الماضى بكل آلامه وأحلامه وأن يفكر في مستقبله لابد أن يبدأ من جديد ويستغفر الله ويندم على ما فات وذكَّرته بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾..

وسار قطار العمر ومرَّت سنون عندما كنت أترافع في قضية في أحد بلدان الصعيد رأيت شابًا يلبس وشاح المحاماة ويترافع في ثقة وإقناع وإلمام وإيمان بقضيته..

قدم إلى مصافحًا معانقًا مؤكدا أنَّ كلماتى له مازالت ترن في أذنيه لا تفارقهما كانت حافزًا ودافعًا في أن يبدأ من جديد.. في أن يبدد ظلمات الطريق المجهول.. الذى أسلم نفسه للسير فيه.. صمَّم وجدَّ في تصميمه وحصل على ليسانس الحقوق وآثر أن يعمل في مهنة المحاماة التي أقسم أنَّه أحبها بسببى.. وأصرَّ على أن يفضى إلى بأسرار حياته الخاصة.. لقد تزوَّج من زميلة محامية وأنجب ولدين هما كل حياته.. دنياه.. أمله في حاضره

ومستقبله.

أما زوجة أخيه فقد طلَّقها زوجها بعد أن شكَّ في سـلوكها معلنًـا أنَّ حبـل الخيانة لا ينقطع.. وتنهد في حسرة فقـد سـارت في طريـق الرذيلـة.. بعـد أن عقدت صفقة مع إبليس.. وتم ضبطها وقدّمت للمحاكمة ونالت جزاءها.

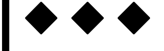
ودَّعنى بعد هذه الكلمات بالقبلات والأحضان وهـو يـردد أنّـه القـدر لا يمكن لأى منا الهروب منه.. فهل يملك النهر تغييرًا لمجراه؟!

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة
المحامي بالنقض

القضية السابعة

نصابون لكن ظرفاء



■ ■ نصابون لكن ظرفاء

أحـداث هـذه القضـية متعـددة الفصـول لم تحـدث وقائعها كما هو الحال في القضايا الجنائية دفعة واحدة.. وإنما تعددت فيها المواقف على نحو جعـل مـن كـل موقـف منهـا حدثًا مثيرًا شكَّل في ذاته قضية كاملـة.. فالأحـداث وإن ربـط بينهـا ووحـدها أشخاصـها إلا أنَّ أحـداثها مغـايرة مختلفـة الخيال فيها أقرب من الواقع.

كانت بداية لقائى بأحداثها في بداية السـتينيات عنـدما كنـت وكيلاً لنيابة الجيزة الكلية أجلس في مكتب رئيس النيابة والـذى كانت له سلطات المحامى العام في ذلك الوقت عندما كان زميل لى يعرض قضية قتل اتهم فيهـا مهنـدس -يعمـل مـديرًا في أحـد المصانع الكبرى بأحد مراكز الجيزة- بقتل زوجته الشابة.



كانت وقائع الجريمة وأدلتها مثيرة للحيرة، فقـد تضـمَّنت حسب عرض زميلى لها أنَّ زوجته عثـر عليهـا مقتولـة داخـل شـقتها الفـاخرة في إحـدى العمـارات الشـاهقة أمـام حديقـة

حيوان الجيـزة، حيـث فوجئـت الخادمـة عنـد عودتهـا عقـب شـراء بعـض الحاجيات ومتطلبات المنزل بها غارقة في دمائها.. وهو ما قررته بالتحقيقات وأنَّها لا تعلم شيئًا عن الجريمة أو دوافعها أو الجـانى، إذ وقعـت في غيبتهـا، وأضافت أنَّ باب الشقة كان مفتوحًا على غير العادة وأنَّهـا صـرخت مسـتغيثة بمجرد رؤيتها هذا المشهد البشع الذى ما كان يخطر لها ببـال أو يجـول لهـا بحسبان.

وبانتقال الشـرطة فـور إبـلاغ أحـد الجيـران بالحـادث ومعاينـة مسـرح الجريمة تبيَّن أنَّها مصابة بعدة طعنات نافـذة إلى صـدرها وقلبهـا.. ومـا أثـار الغرابة أنَّه بتفتيش دولاب ملابسها تبيَّن أنَّ مصوغاتها ومجوهراتها لم تمسسها يد ولم تتعرض للسرقة حتى أساورها الذهبية ودبلة الزواج وخاتم ثمـين مـن الماس كانت في يدها.. كما أنَّه لم يتبين سرقة أى مـن محتويـات الشـقة، ممـا رجَّح أنَّ جريمة القتل لم تكن بقصد السرقة.. وأثار العديد من التساؤلات عن الباعث الحقيقى لارتكابها.

ونشطت التحريات وانتهت إلى صحة ما سردته وأنَّ ما قررته من أقوال هو الحقيقة وأنَّها ليس لها أي يد في أحـداث الجريمـة.. غيـر أنَّ أصـابع الاتهـام أشارت إلى الزوج.. وأنَّـه هـو الـذى دبَّـر جريمتـه بإحكـام، ومـا عـزَّز هـذه التحريات وعضَّدها وقوَّى من شأنها ما أشارت إليه من باعث ودافـع لقتلهـا، إذ كشفت التحريات عن وجود علاقة آثمة وحب قديم كان يـربط بينـه وبـين سيدة أخرى، وأنَّها تزوجت وعاشت مـع زوجهـا الـذى اصـطحبها إلى أحـد

بلدان النفط تزوَّجته طمعًا في ماله، إلا أنَّه قد توفى مـؤخرًا، ومـا إن عـادت إلى القاهرة حتى سارعت بالاتصال به إحياءً لعلاقتهما القديمة وسال لعابه أمـام ثرائها وما تكتنزه من أموال ثمنًا لهذه الزيجة من ذلك الكهل الذى اسـتبدَّ بـه المرض، وقد تأكد عودة هذه العلاقـة ولقاءاتهمـا المسـتمرة في شـقتها التـي ورثتها عن المرحوم.. ولكن السـؤال المحيـر مـا الـذى يـدفع الـزوج إلى أن يغامر بمركزه ومستقبله بـل وحياتـه ليرتكـب جريمـة قتـل زوجتـه، إذ إنَّ في إمكانه أن يطلقها ليعود إلى ماضيه الذى يجد فيه المتعة ولذة الحياة.

غير أنه ما لبث أن تراجع هذا الشك أمام ما ثبت من اطـلاع وكيـل النيابـة المحقق على دفتر الحضور والانصراف فتبيَّن أنَّه حضر ووقع السـاعة الثامنـة والدقيقة الرابعة وأنَّه انصرف ووقـع فـور علمـه بالحـادث السـاعة الواحـدة ودقيقتين.. كما تبين أنَّ بروتوكول ونظام المصنع الذى يعمل فيه يفرض على أي موظف أو عامل مهما كان مركزه بعد دخوله المصنع عدم الانصـراف أو الخروج إلا بتصريح يسجل بدفتر البوابـة الـذى يلـزم الجميـع بـالتوقيع فيـه ويثبت ساعة ودقيقة الحضور وكذلك الحال بالنسبة للانصراف.

ولكن ما استوقف النظر ما انتهت إليه التحريات حسـبما عـرض الزميـل لأحداث القضية أنَّها كانت دميمة بدينة فاتها قطار الـزواج عنـدما تزوَّجهـا.. وأنَّه ضعيف الشخصية أمام زوجته وأسرتها، فقد كانت من أسرة لها جبروتهـا وسطوتها، كما أنَّ زوجتـه كانـت قويـة الشخصـية شـديدة البـأس مسـموعة الكلمة لا يستطيع أن يرد لها قولاً أو يعصى لها أمرًا.. كان مقهورًا مغلوبًا على

أمره يحس في اعماقه بالذل والانكسار والمهانة والندامة لزواجه منهـا.. فقـد تزوَّجها في لحظة يأس بعد زواج محبوبته وسفرها مع زوجهـا.. كـان يتـذكر من حين لآخر الأيام الخوالى التي عاشها عاشقًا ولهانًـا مـدللاً مـن محبوبتـه ملكًا متوجًا على عرش حبهما.. كانت تلك أحاديثه كلمـا خـلا لنفسـه لائمًـا ومعاتبًا ومحاسبًا على تلك الزيجة التي قذفت به في قفص موصد بين قضـبان من الذل والمهانة.. كان لا يمل الشكوى إلى أصدقائه المقـربين طالبًـا مـنهم النصح والتفكير معه في مخرج من هذه الورطـة.. كـان يجـد في شـكواه لهـم متنفسًا يخرج ما يؤرق فكره من سوء معاملة زوجته وأسرتها له وكـم نصـحه أصدقاؤه بأنَّ الحل الوحيد كى يخرج من هـذا السـجن هـو طلاقهـا.. لكـنَّ العقبة التي كانت تحول بينه وبين ذلك هو مؤخر الصداق الكبير الـذى التـزم به، هذا فضلاً عن شيكات وقعها على بياض كانت تهدده دائمًا بها.

كانت القضية على نحو ما سلف من عـرض الزميـل.. خاليـة مـن أى دليل معتبر سوى قولة مرسلة لا ترقى إلى مرتبة الدليل الذى يصـلح كأسـاس للإدانة.. إذ من المسلمات أنَّ الأدلـة المعتبـرة التـي تصـلح أساسًـا للإقنـاع الجنائى الذى تبنى عليه الإدانة إما قولية أو فنية أو مادية.

كما أنَّه من المبادئ المستقرة فقهًا وقضـاء أنَّ الـدليل الجنـائى يبنـى بالجزم واليقين ولا يبنى على الظنون والشكوك والافتراضات. وأنَّ التحريات مهما كانت قوتهـا لا ترقـى إلى مرتبـة الـدليل الـذى يصـلح منفـردًا كأسـاس للإدانة.. ولما كان من اللازم على نحو ما سلف أن نكون أمام دليل واحد على

الأقل من الأدلة المعتبرة كاعتراف المتهم على نفسه أو آخر عليه أو شاهد رؤية للواقعة أو دليل مادى.. خاصة أنَّ السكين المضبوط فى مكان الحادث قد تم رفع البصمات من عليه بمعرفة الأدلة الجنائية وتبيَّن خلوه من أى بصمة وهو ما يؤكد ويفيد أنَّ القاتل إما أنَّه كان يرتدى «جاونتى» أو تعمَّد مسح البصمات بعد أن ارتكب الواقعة وترك السكين أو ألقى سكينًا آخر بعد ان احتفظ بالسكين أداة الجريمة ليضلل العدالة.

وكان رأى زميلى وكيل النيابة الذى حقَّق القضية وقام بعرضها على النحو السالف، وقد خلت القضية من دليل.. إصدار قرار بألا وجه لإقامة الدعوى الجنائية قبل المهندس الزوج لعدم كفاية الأدلة «أى حفظها».. وتكليف الشرطة بالبحث عن القاتل الحقيقى.

وفى تلك الأثناء التي أمسك فيها رئيس النيابة بقلمه وهمَّ بالتأشير بتأييد ما انتهى إليه وكيل النيابة تأسيسًا على ما سلف.. قطع ذلك دخول أحد كبار رجال القضاء، حيث همَّ رئيس النيابة باستقباله فانصرفت أنا وزميلى حتى صباح اليوم التالى ليصدر تأشيرته.

وتشاء الأقدار أن يصاب زميلى فى اليوم التالى بمغص كلوى حاد وتم نقله إلى المستشفى، حيث أجريت له عملية جراحية «مرارة» حصل معها على إجازة مرضية لمدة شهر، فأحال رئيس النيابة القضية إلىَّ للتصرف وطلب منى أن أعد قرارًا فى قضية زميلى المريض سالفة الذكر التى سبق عرضها عليه «قرارًا بألا وجه لإقامة الدعوى الجنائية لعدم كفاية الأدلة».

كـان عـليَّ أن أقـرأ أوراقهـا مليًـا.. انتهـى بـى إلى ضـرورة اسـتيفاء التحقيقات للتحقق من عملية دخول وخروج المهنـدس مـن بوابـة المصـنع وقوفًا عما إذا كان قد حضر وانصرف فى اليوم نفسه الذى وقعت فيه الجريمة وفقًا لما ثبت فى دفترى الحضور والانصراف، غيـر أنَّ رئـيس النيابـة بـادرنى وأنا أعرض عليه وجهة نظرى بأنَّ وكيل النيابة المحقـق سـبق أن اطلـع عـلى الدفترين وتبيَّن منهما توقيع المتهم أمام ساعة الحضور وتوقيعـه أيضًـا أمـام ساعة الانصراف، وهنا عرضت وجهة نظرى المخالفة وفحواهـا والأسـاس الذى كوَّنت عليه عقيدتها في هذا الخصوص من التحقيقات قد جاءت قاصرة من التثبت على نحو يقينى أنَّ التوقيعين بالحضور والانصراف – هما للمـتهم، وهو ما لا يمكن القطع به إلا بتحقيقه فنيًا عن طريـق الطـب الشـرعى «قسـم الأبحـاث والتزييـف» لإجـراء مضـاهاة بـين توقيـع المـتهم وبـين التوقيـع المنسوب إليه بدفترى الحضور والانصراف.

ففكر برهة يقلب فيها هذا الرأي وسبح وكأنَّه يضع هذا الرأي عـلى ميـزان العقل والمنطق فانساب، حيث أصدر قراره باستيفاء التحقيقات عـلى النحـو الذى انتهيت إليه.

وقال باسمًا.. «على العموم الاستيفاء مش حيضر.. لما نشوف النتيجة».

كان واضحًا من هذه الكلمات وما استشعرته مـن طريقـة أدائهـا ومـا لمحته فى عينيه أنَّه غير مقتنع تمامًا بالنتيجة وأنَّها تحصيل حاصل وأنَّ التقرير الفني سينتهى إلى أنَّ التوقيع توقيع المتهم.

وبالفعل تم الاستيقاء المطلوب وأرسل المتهم ودفترى الحضور والانصراف إلى الطب الشرعى «قسم الأبحاث والتزييف» لبيان عما إذا كانا متطابقين من عدمه، «أى لشخص واحد أم لشخصين».

وكانت المفاجأة التى أكدت صدق توقعى، وقد تعلَّمت من هذه الواقعة أنَّ على رجل القانون سواء أكان محققًا أو قاضيًا أو مدافعًا – ألا يصادر على المطلوب ويستهين بتحقيق واقعة مهما قدر عدم جدواها لما فى ذلك من حكم سبق على دليل قبل أن ينحسم أمره بتحقيقه خاصة إذا كان الأمر يتعلَّق بمسألة فنية بحتة لا يستطيع أن يقول قالته فيها غير أربابه من المختصين فنيًا كل فى مجاله – إذ لا يمكن التنبؤ سلفًا بما تسفر عنه نتيجة تحقيق الدليل والرأى الذى من الممكن أن يتخذ بناء على ما يسفر عنه.

لقد أثبت إجراء المضاهاة أنَّ التوقيع المنسوب للمتهم على دفترى الحضور والانصراف ليس توقيعه.

وإزاء هذه المفاجأة قمت باستدعاء موظف الاستعلامات بالمصنع المسئول عن دفترى الحضور والانصراف في يوم الواقعة.. وواجهته بهذا الدليل الجديد.. فلم يملك غير الاعتراف بأنَّ الخط المنسوب إلى المتهم فى الدفترين خطه هو.. وأضاف أنَّ المتهم هو الذى طلب منه التوقيع بدلاً منه لأنَّه لن يحضر فى هذا اليوم، إذ لديه أمر مهم يريد أن ينهيه، وألح عليه فى ذلك وأصرَّ على أن يكون الأمر سرًا بينهما لا يعلم به أحد، وأقسم الموظف أنَّه لم

يكن يدرى ما وراء ذلك، ولم يكن يعرف أنَّ هناك جريمة سوف ترتكب تحت ستار هذه المجاملة التى قام بها له خاصة وأنَّه رئيسه بالعمل وله سلطان أدبى عليه.

كان من موجبات فن التحقيق استدعاء المتهم ومواجهته بهذا الـدليل الجديد فانهار واكفهر وجهه وكسته صـفرة واضـحة وأصـبح فجـأة كـالعود الذابل المترنح ثم سقط على الأرض وأجهش فى البكاء.

وطلبـت منـه أن يقـدم تفسـيرًا أو تبريـرًا لمـا سـلف، ولكنَّـه عجـز، واعتصم بالبكاء والانكار.

وكان لا بد من المسير فى الطريق حتـى نهايتـه تجميعًـا لأدلـة أخـرى حتى نهايته.. فاستدعيت الخادمة التى نفت أقوال المتهم تمامًا، وأكدت أنَّهـا لم تتصل به فى عمله، حيث ذكر ذلك في بداية التحقيقات من أنَّه علم بالحادث من بلاغ الخادمة.. وأصرَّت على أنَّه قد حضر بعد حضور الشرطة بدقائق ولا تعلم من الذى أخبره بالحادث.

فاستدعيت المتهم وسألته مجددًا: كيف علمت بالحادث؟

فأجاب بأنَّ الشغالة هى التى اتصلت به فى العمل وأخبرته بالحادث.

فواجهته بإنكار الخادمة، وأنَّها لم تحدِّثـه تليفونيًـا بالحـادث إذ إنَّـه لم يكن موجودًا أصلاً فى العمل يوم الحادث، فازداد اضطرابًا وعصبية وإجهاشًا فى البكاء مرددًا عبارة «مظلوم ... مظلوم».

وبانتهاء ما سلف من نتـائج وتحقيقـات عرضـت القضـية بأحـداثها الجديـدة عـلى رئـيس النيابـة الـذى ذهـل مـن النتـائج التـى أسـفرت عنهـا التحقيقات.

وقال لى بالحرف الواحد: «كان عنـدك بعـد نظـر ومعـاك حـق.. ودم المجنى عليها كان سيضيع هدرًا».

فشكرته على هذه الإرهاصة، وكنت قد أعددت قائمـة بأدلـة الثبـوت قبل المتهم وقيدًا ووصفًا جديدًا للتهمة الموجهة إليه وهى القتـل العمـد مـع سبق الإصرار فوافق عـلى ذلـك، وأصـدر قـرارًا بإحالـة المـتهم إلى محكمـة الجنايات بالقيد والوصف الجديد للتهمة قبله.

وبجلسـة المحاكمـة حضـرت ممـثلاً للنيابـة وترافعـت فى الـدعوى وطلبت معاقبته بأقصى العقوبة جزاءً لجرمه وقتل زوجته وهـى قتـل للـنفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق.. فجريمة القتل مؤثمة شـرعًا وقانونًـا أيًـا كـان المجنى عليه أو كان الباعث أو الـدافع عـن الجريمـة.. إذ كـان فى وسـعه أن يطلق زوجته بالحسنى ويتركها لحال سبيلها وينطلق هو حرًا لحـال سـبيله.. ولكنَّ شيطانه هداه إلى الجريمة فلطَّخ يديه بدمائها غيلة دون ذنـب أو جريـرة فحق عليه العقاب.

وانتهت محاكمته وقضى بمعاقبته بالأشغال الشاقة المؤبدة.

ومضت السنون لنكون أمام الفصل الثانى من أحداث هذه القضية.

بعد سبع سنوات تقريبًا انتقلت للعمل وكيلاً لنيابة بنى سويف، وأثناء وجودى فى مكتبى عرض علىَّ ضابط المباحث محضرًا بصحبته شاب يرتدى ملابس الشرطة العسكرية وقرر أنَّه ليس ضابطًا بالشرطة العسكرية أو بغيرها من فروع القوات المسلحة أو الشرطة.. ولكنَّه نصاب محترف غارق من رأسه حتى أخمص قدميه فى الاحتيال وسلب أموال الأبرياء، وله ملف متخم بالعديد من قضايا النصب، وسجل حافل بالأحكام التي سلب وتفنَّن في نهب أموال ضحاياه.. وقد تم القبض عليه فى دائرة القسم، وهو يرتدى هذه الملابس، ومن المؤكد أنَّه في سبيله إلى تنفيذ أحد مخططاته الاحتيالية.

وقد تبيَّن لى من استجوابه أنَّه اعتاد النصب على جميع فصائل البشر، وكانت هوايته النصب على الفنانين وأصحاب النفوذ.. وعلى وجه الخصوص الفنانات، وأنَّه يحتفظ بأجندة تحمل أسماء وعناوين وتليفونات العديد من الشخصيات المهمة، وبسهولة تثير الغرابة والعجب أنَّه أدلى باعترافات تفصيلية بارتكابه جرائم نصب واحتيال على كثير ممن وردوا فى الأجندة، إذ قمت بسؤاله عن مدى صلته وعلاقته بهذه الأسماء كان ببساطة يعترف بحيلة جديدة أو بطريقة غير مسبوقة أوقع في شباكها ضحيته.. بل توسَّع فى طرقه الاحتيالية ووطَّد علاقته وصداقته بكبار الدجالين.. وتعلَّم منهم الحيل والأفانين والإيهام بالقدرة على الاتصال بالجن وتسخيره لجلب الحبيب وتطويع القلوب والأحاسيس بل ووصل به التمادى والفجر إلى حد ارتداء الزى العسكرى وانتحاله صفة ضابط بالشرطة العسكرية.. كان يوقف أى

سيارة شرطة ويطلب منها التوجه به فى مأمورية ويطلب من قائـدها الوقـوف أمام مسكن الضحية، ويطلب منه الانتظار لحين عودته، فلا تملـك الضـحية إزاء هذا «السيناريو» المحكم إلا أن تصدق حديثه وتستسلم لطرقه الاحتيالية بل وبلغت درجة إجرامه أن خدع مطربة مشهورة راحلة بعـد أن أفهمهـا بأنَّـه ضابط بالمطار وأنَّ أحد المعجبين العرب أرسل إليها هدية ثمينـة تـم تقـدير جمارك عليها قدّرت بمبلغ خمسمائة جنيه – وقتها كان هذا المبلغ يمثـل قيمـة كبرى – وأوهمها بأنَّه حضر إليها من منطلـق وفـرط إعجابـه بفنهـا وأنَّ أمنيـة حياته أن يراها، وقد حقَّق الله له هـذه الأمنيـة واستسـمحها فى أن يـدفع هـذا المبلغ من جيبه الخاص إعجابًا بفنها وتقديرًا متواضعًا منه لها.

وازداد إصرارًا على الدفع أمـام إصـرارها عـلى دفـع المبلـغ، وبعـد جهـد ومكابرة بينهما حصل منها على المبلغ ووعدها بأنـه سيحضـر لهـا الهديـة فى اليوم التالى.. وطبعًا لم تكن هناك هدية بل كان وهمًا وضاع عليها المبلـغ.. ولم تبلغ لأسباب قدرتها بينها وبين نفسها عن الحادث.

وإزاء اعترافاته التفصيلية أمرت بحبسه على ذمة القضية.

وتم إيداعه سجن بنى سويف العمومى وإمعانًا في طرقه وأساليبه الحديثـة والمتجددة في الاحتيال أرسل إلى السلطات العليا خطابًا من سجنه بأنَّ هنـاك مؤامرة على الدولة وأنَّه ممسك بخيوطها ويريد أن ينقـذ البلـد مـن شـرورها فأجرى النائب العام اتصالاً برئيس النيابة بعد إبلاغ السلطات لـه بهـذا الأمـر وطلب إحضار هذا النصاب لسؤاله عـلى وجـه السـرعة بهـذه المعلومـات..

ولكنَّه استطاع بأفانينه وحيله أن يهرب من رجال الضبط ويختفى عـن عيـون الشرطة.

ومرَّت الأيام والشهور والسنون وكأنَّه الفصل الثالث من فصول هـذه القضية فوجئت بخبر غريب بإحدى الصحف.. كان مثار اهتمام كافة وسائل الإعلام وترديدها بل مثار دهشة وغرابة الرأي العام لهذا الحدث.

الزوج المهندس قاتل زوجته بـرىء وأنَّ القاتـل الحقيقـى هـو النصـاب الذى اعترف له بذلك وأنَّه هو القاتل الحقيقى.

كان المهندس قد قضى عليه بعقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة ثم طعن على الحكم بالنقض، وقبل نقضه وأخلى سبيله تمهيدًا لمحاكمته مجددًا أمام دائرة أخرى، وفى هذه الفترة التى كان فيها طليق السراح تـزوَّج مـن محبوبتـه التـى ارتكب جريمته وقتل زوجته هيامًا فى حبها، وأنجب منها طفلاً.

ثـم كانـت المحاكمـة الثانيـة بعـد عـدة سـنوات وقضـت المحكمـة فى المحاكمة الثانية بمعاقبته أيضًا بالأشغال الشاقة المؤبدة.

وطعن من جديد بالنقض فى الحكم الأخيـر، وتأيـد الحكـم وأصـبح باتًا، وكان عليه أن ينفذ العقوبة..

وشاءت إرادة الله وقدره أن التقى فى السجن بالنصاب الذى اعترف له بأنَّه قتل زوجته وأنه كان على علاقة بها وكان يستحوذ على مالهـا، إذ كانـت تنفـق عليه بسخاء، وقد استحوذ على فكرها ولعب بأوتـار قلبهـا وأسـمعها عـذب

حديثه وهيامه وحبه لها وأنها هي أول حب دخل قلبه فاستحوذ على كل مشاعره وأحاسيسه.. استغل دمامتها المنفرة لتكون الوتر الذى عزف عليه منظومة احتياله وحبه المزيف.

وتلقَّفت أجهزة الإعلام هذا الخبر الغريب حتى أنَّ التليفزيون عرض القضية من الزاوية الإنسانية البحتة وجمع على نحو بات كل مشاهد لما دار من حديث بشأنها متعاطفًا إلى حدّ الرثاء والبكاء لحال هذا المهندس الذى ظلمه القدر طيلة هذه السنين التي قضاها بريئًا وراء القضبان وهو يستمع إلى حديث النصاب الذى بدا نادمًا ساهمًا واجمًا على فعلته.. طالبًا العفو من المهندس الذى أخذ يبكى بكاءً مرًا على زهرة شبابه التي قضاها وراء القضبان.. بكى معه المشاهدون رثاءً لحاله.. والنصاب يطلب منه الصفح والغفران معلنًا أسفه وندمه ورغبته فى تصحيح هذا الخطأ الجسيم الذى ارتكبه فى حقِّه، وأنَّه سيكفِّر عن هذا الخطأ مهما كان الثمن.. وأنَّه على استعداد لأن ينال جزاءه بأى عقوبة حتى لو كانت الإعدام إذ إنَّ ما يعنيه فى المقام الأول أن تعود له سمعته وشرفه وكرامته واعتباره، وأن يعود إلى زوجته وإلى طفله الذى حرم منه.

واستطرد المهندس باكيًا فى هذا المشهد المأساوى «الميلودراما» فى أعنف صورها، وهو يروى كيف مرت عليه الليالى قاتمة سوداء طويلة، وهو يبكى ظلم الأيام وظلم العباد ولكن الشئ الذى جعله يصبر على محنته هو أنَّ الإيمان كان يملأ قلبه والثقة بالله كانت تغمر نفسه وأنَّ الله لن يتخلَّى عنه.

كان لابد من تحقيق هذه الواقعة الجديدة.. وتشاء المقادير أيضًا أن أحقق هذه القضية باعتبار أنَّ هذه الحالة من حالات التماس إعادة النظر قانونًا لظهور دليل جديد كان مجهولاً.

واستدعيت النصاب وواجهته بالاعتراف المكتوب الذى كتبه على نفسه وسلمه للمهندس يعترف فيه بأنَّه قاتل زوجته وأنَّه كان على علاقة بها وأنَّها كانت تحبّه حبًا جنونيًا وتغار عليه من خيالها.. فصمم أن يتخلص منها وأن يتخلص من قيودها وأن يحيى حياته بعيدًا عن مطاردتها بعد أن حصل منها على ما يكفيه لمدد طويلة من أموال.. فتم سؤاله عن سر عدم سرقة مجوهراتها، فقرر أنَّه كان في عجلة من أمره حتى لا ينكشف فاستغل فترة غياب الخادمة لشراء بعض المستلزمات للمنزل وقام بتسديد طعناته إليها حتى تأكد من قتلها وهمَّ بالفرار بعد أن أزال بصماته من على السكين.. فقد كان هدفه الأساسى هو الخلاص من ملاحقاتها ومطاردتها له.

واستدعيت المهندس وسألته عن معلوماته على ضوء هذا الاعتراف.

كان يتحدث والدموع تنساب من عينيه، وبدنه يرتجف بالكامل وهو ينظر إليه نظرة فيها عتاب ومحاسبة عن كل لحظة قضاها محطمًا يائسًا، وقد حطَّم حياته كلها وهو يردد بنبرة ملؤها التأكيد والثقة: «برىء.. برىء.. برىء». أنا قلتها من الأول ما حدش صدقنى.. لكن ربنا أراد أن يظهر الحقيقة وينصف الحق.. لكن بعد إيه! بعد ما اتخرب بيتى واترفدت من شغلى واتعذبت فى السجن!!

وطلبت تحريات الشرطة على ضوء التحقيقات الجديدة.

كانت المفاجأة غير المتوقعة.. لقد كان القدر يقف للمهندس بالمرصاد كادت الحيلة تنجح.. الحيلة الجديدة التى لجأ إليها النصاب كحيلة من حيله المبتكرة والمتجددة والدائمة.. كانت بدورها قاب قوسين أو أدنى من النجاح.. من تحقيق هدفها، فقد تبيَّن لسوء حظّ المهندس العاثر أنَّ النصاب يوم مقتل زوجته كان مسجونًا ينفذ عقوبة بالسجن عن إحدى جرائمه.. ولم يكن مطلق السراح إذا حديثه حديث كاذب.

وبات من المتعيَّن الوقوف على سرّ هذه الحيلة الجديدة لهذا النصاب المبتكر بأحدث أنواع الطرق الاحتيالية.. التساؤل المطروح.. ما تفسير كل هذه الأحداث؟ وما سر هذه المسرحية المتقن توزيع الأدوار فيها؟. وما الدافع لاعتراف النصاب بجريمة عقوبتها الإعدام عن واقعة لم يرتكبها؟

استدعيت النصاب وواجهته بكل ما سلف وأنَّه كاذب، إذ إنَّ وقت مقتل زوجة المهندس كان يقضى عقوبة بالسجن.. وقدَّمت له الأدلة الدامغة التي لا يستطيع أن يكذِّبها.

ابتسم فى سخرية وهو يردد – «يابيه.. أنا رجل نصاب ورزق الهبل على المجانين.. والنصاب لازم يكون ذكى ويعرف نقطة الضعف عند الضحية ويضرب ضربته على الوتر الحساس فى الوقت المناسب».

وأضاف.. «أنا بالصدفة كنت مسجون معاه وعادتى دائمًا أننى أنفذ

إلى أعماق من مجـرد أن أجاذبـه الحـديث فعرفـت قصـته وفكَّـرت في حيلـة جديدة على ضوء هذه الأحداث.. حسبت المدة لقيت أنَّه مضى أكثر من عشر سنين ما بين اعترافى ووقوع الجريمة أى أنَّ الدعوى العمومية انقضت بمضى المدة القانونية وهى عشر سنوات.. وعرفت من كلامه إنَّه مـش وش بهدلـة.. ومراته الجديدة معاها فلوس كتير وبتحبه وأنَّها على استعداد بأن تضحى بـأى مبلغ فى سبيل إنَّه يخرج لها حتى ولو اقتضى الأمر تدبير خطـة لهروبـه.. وأنَّ هناك محاولة لتدبير هذا الهروب نظير مبلغ مالى كبير.. وأنت عارف يا بيه بأنَّ الصنعة تحكم.. وأنا نصاب ودى شغلتى فقلـت أنـا أولى.. وعرضـت عليـه فكرة الاعتراف وحرّرته مكتوبًا وسلَّمته إليه بعد أن استلمت مبلغًا كبيـرًا مـن زوجته.. وهو بسلامته يخرج وأنا ألهف القرشين.. ويا دار ما دخلك شر لأنَّ أى محاكمة أنا عارف أنَّ القضية انتهت وانقضـت الـدعوى بمضـى المـدة.. لكن الفرحة ما تمت (قليل البخت يلاقى...) وباقى المثل سعادتك عارفه.

وأنهى حديثه وهو يغادر غرفة التحقيق مبتسمًا ومتسائلاً..

«الناس ليه بيقولوا عليه نصاب.. يا بيه أنا فهلوى موش نصـاب.. أنـا بأجد لذة وراحة نفسـية لمـا أعمـل شـوية فهلـوة وأشـوف القناعـة والرضـا والاطمئنان في عيون اللى قدامى وهوه بيسلمنى كل اللى طلبته.. كنت بـاحس بانى أذكى منهم.. علشان كده عمرى ما تعاملت مع شخص محتاج.. كانـت كل واقعة بطلها شخصية مرموقة وعلى قدر كبير من الفهم والذكاء.. كنـت في منتهى السعادة والرضاء النفسى وأنا باحس إنى أذكـى مـنهم.. كنـت بـاحس

إنى بأرضى عقدة مش قادر اتخلص منها.. انى فشلت في إكمال تعليمى كنت حاسس إنى لو كملت حابقى أحسن من مراكز كتيرة كانوا زملاء لى.. لكن في النهاية الدنيا حظوظ وكل واحد ونصيبه.

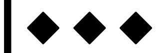
أدركت من معايشتى وقائع هذه القضية وأحداثها أنَّ عدالـة السـماء هـي التي فرضت نفسها في هذه القضية وأبت إلا أن يلقى القاتل جزاءه.. فقد كـاد يفلت من العقاب مرتين الأولى عندما همَّ رئيس النيابة بإصدار قرار بألا وجـه لولا دخول أحد كبار رجال القضـاء ومـا أعقبـه مـن انصـراف وكيـل النيابـة المحقق والعارض لأحداث القضية والذى أجرى ليلتها جراحـة بـالمرارة في أعقابها أسندت القضية إليَّ فهدانى الله إلى هذا الاستفتاء الذى غيَّر وجه الـرأي في الدعوى، وقاد إلى الحكم عليـه بالسـجن المؤبـد.. والمـرة الثانيـة كانـت باعتراف هذا النصاب المحكم الذى كاد يخرجه مـن السـجن بريئًـا.. إلا أنَّ إرادة الله شاءت أن تحـول دون تحقيـق هـذه الخطـة المحكمـة التـي كانـت ستنجح حتما لو لم يثبت أنَّ النصاب كان مقيد الحرية يوم مقتل الزوجة.

إنَّها إرادة الله التي تغلب على كل إرادة وحكمه الذى يعلو على كـل حكـم إنَّها عدالة السماء.

بهاء الدين أبو شقة
المحامي بالنقض

القضية الثامنة

عدالة السماء



■■ عدالة السماء

عاش طفولته وصباه وشبابه محرومًا من دفء الأسرة وحنان الأبوين.. فقد مات أبواه في حادث سيارة وتركاه طفلاً.. فتجرع مرارة اليتم وهو صغير، حرم بفقدهما ينابيع الحنان ومرافئ الأمان التى تعين الإنسان على مواجهة الحياة، لكنَّه لم يفقد إصراره وعزيمته على شقّ طريقه.

ساق الله له رجلاً من أقربائه وقف بجانبه وتبنَّاه وساعده حتى أكمل دراسته وحصل على بكالوريوس الهندسة.. ووقف فى طابور الانتظار فى قطار التعيين من قبل القوى العاملة، ورأى أنَّ كل المنتظرين الذين سبقوه فقدوا الأمل فى الحصول على عمل.



كان طموحه فى الحياة بلا حدّ فانضم إلى أسراب الطيور المهاجرة التى تحطّ على أرض النفط والبترول، حيث فرص العمل متاحة للجميع.

وتحمَّل عذاب الغربة والبعد عن الأهل والأصدقاء والأحباب سعيًا وراء المال.

وامتدَّت غربته عشرين عامًا أفنى خلالها زهرة شبابه فى العمل الذى وصل فيه الليل بالنهار حتى استطاع أن يجمع ثروة كبيرة.. عاد بها إلى أرض الوطن وتذكَّر فى غمرة غربته وكفاحه أنَّه قد نسى نفسه وبدأ يشغله ويؤرقه حرمانه الطويل من متع الحياة فلم يعرف عالم النساء ولا خفق قلبه بحب، فقد تعمَّد أن يغلق بابه حتى لا يكون فيه فراغ لشىء إلا عمله وجمع المال.

التقى بها رآها فتاة جاوزت سن العشرين بقليل.. حباها الله جمالاً يدير الرؤوس .. تتفجَّر أنوثة طاغية وتتمتع بجاذبية آثرة.

سعى للتعرف عليها وتودَّد إليها وتكرر اللقاء وأحسَّت باختلاقه الفرص للقائها، عاملة في كافيتريا في وسط القاهرة.. لمحت في بريق عينيه إعجابه بها وفى نبرات صوته حبًا دفينًا يكتمه في صدره.. كان سخيًا معها في البقشيش الذى يقدِّمه مع حساب طلباته.

طلب لقاءها بعيدًا عن العمل.. حكى لها قصة حياته.. طفولته.. سنوات عمره التى عاشها يعمل حتى جمع ثروة كبيرة.. وعن حرمانه من العطف والحنان.. وبحثه عن إنسانه تعوِّضه ما فات.. تكون له بمثابة الأم والصديقة بعيدًا عن الرغبة والجنس.

واتفقت معه ورحَّبت به، وأفهمته أنَّها معجبة بكفاحه ومثابرته وإصراره على النجاح رغم الظروف الصعبة التى أحاطت به.

وبدَّدت مخاوفه التى كانت تستبد به من فارق السن بينهمـا، وأعطتـه الأمان والثقة.. وأقنعته أنَّها أكبرت فيه رجاحة عقله وحسن تفكيره.. وأحبَّت فيه رزانته وخبرته فى الحياة، فلا وجه للمقارنة بـين كـل هـذه الميـزات التـى يفتقدها الشباب فى مثل سنه.

كم كان سعيدًا وهو يسمع منها هذه الكلمات.

أخيرًا وبعد عناء الغربة آن لهذا الطير المهاجر أن يسـتقر فى بلـده.. أن ينعم بدفء الأسرة وعش الزوجية.

واتفقت معه على أن يتقدَّم لأسرتها، فهى موافقة على زواجها منه رغـم فارق العمر بينهما.. فهى تبحث عن رجـل مثلـه يـوفر لهـا حيـاة الاسـتقرار ويبعدها عن حياة الشقاء في عملها وما تلاقيه من عبث واسـتهتار مـن بعـض رواد الكافيتريا.

وتم زواجهما.

انتقلت إلى شقته الفاخرة المطلَّة على النيـل.. عاشـت فى ظلّـه الحيـاة المترفـة.. ارتـدت الملابـس الغاليـة المسـتوردة.. وتحلَّـت بـالمجوهرات الثمينة.. واستعملت فى تنقلاتها أحدث السيارات التى اشتراها لهـا.. وغـرق فى بحور أنوثتها يطفئ عطش الحرمان.

ولكنَّ السعادة لا تدوم.. فقد أصيب فى عموده الفقـرى أثنـاء عملـه، فأقعده المرض الفراش، وأحسَّ بتغيير سريع فى معاملتها له.. لم تقف بجانبـه

فى مرضه الذى امتد لأكثر من ثلاث سنوات.

أطلقت يدها فى أمواله التى وضعها فى البنوك بعد أن حصلت منه على توكيل عام يتيح لها صرف ما تريد.. وأطلقت لنزواتها ورغباتها العنان.. تسهر حتى ساعة متأخرة من الليل، فإذا سألها أجابته ساخرة بأنَّها شابة.. وأنَّها لن تبقى شبابها أسيرة مرضه.. كان يحبس مرارته وتعاسته وعجزه فى صدره.. لا ينام من النهار والليل إلا قليلاً رغم الأدوية والمهدئات والمنومات التى كان يتعاطاها.. وفى الوقت الذى كان يسبح فى خياله.. يستعرض تاريخ حياته ولحظات السعادة التى عاشها فى بداية زواجهما.. كانت تنبعث من شقة جاره خريج معهد الموسيقى الذى سكن حديثًا إلى جوارهما وكان يعيش وحيدًا فى شقته بعد أن أتم دراسته فى المعهد وعاش يقضى ليله ونهاره يعزف ويلحن ويغنى.

وأحسَّ بأنَّ زوجته بدأت تطيل المكوث فى المنزل وعزفت عن حياة السهر وهى تمعن فى السماع إلى صوته الدافئ وموسيقاه وألحانه الحالمة.

وذات ليلة صحا من نومه، وقد استبدَّ به الأرق ولم تفلح في التغلب عليه جرعة المنوم الزائدة التى تناولها فلم يجد زوجته بغرفة نومها.. بحث عنها فى كل أرجاء الشقة فلم يجدها.

احتبس في داخله الممزق ونفسيته المحطَّمة هذا الأمر.. بدأ يراقبها على حساب أعصابه المنهارة وعيونه الساهرة التي لا تنام.

اكتشف أنَّها تتسلل إلى هذا الشاب كل ليلة وقد تزيَّنت بـأزهى وأبهـى ملابس النوم وتعطَّرت بأغلى العطور وأنفذها.. بعد أن تتأكد من تناوله جرعة كبيرة من المنوم كانت تقدِّمها له فى كوب اللبن دون أن يـدرى، بالإضـافة إلى الأدوية التى كان يتناولها ومن بينها دواء منوم آخر.

ومنذ أن اكتشف خيانتها وتأكد منها طار النوم من عينيه إلى الأبد.. ولم تفلح كل المنومات فى أن تغمض له جفنًا واستبدَّت الأفكار السـوداء بفكـره المثقل.. وتزايدت حيرته.. ماذا يفعل؟

وفجأة عثر على هذا الزوج مقتولاً فى غرفة مكتبه.

تضـمنت مذكراتـه التـى كـان يسـجلها ويحـتفظ بهـا فى درج مكتبـه تفاصيل حياته على النحو السابق منذ أن تلقى صدمة اليتم وهـو صـغير حتـى واجه صدمة الحياة فى شيخوخته على يد زوجته الخائنة.

وأضاف فى مذكراته أنَّه يشعر أنَّ نهايتـه فى الحيـاة قـد قربـت بعـد أن واجهها بخيانتها فصـدمته في مشـاعره وأحاسيسـه، وكـان جوابهـا في منتهـى الفجر والبجاحة، إذ طلبت الطلاق منـه.. عايرتـه في رجولتـه وأنَّهـا وجـدت ضالتها في هذا الشاب الذى أخرجها من ذلك القبر الذى تعيش فيه الذى مـلأ حياتها بهجة وحيوية وأملاً في الحياة.. وأنَّه فوجئ بما هو أكثر من ذلك بمـا لم يكن يتوقع.. هددته بالقتل إن لم يستجب لمطلبها بالطلاق.. ويفتح لها الباب على مصراعيه.. باب الخيانة.. الذى لم تجد حياء في أن تعلنه مدويًا في وجهه..

أيقن بما أحسَّه من نظرات الشر في عينيها من تهديدها وتوعّـدها لـه أنَّ حياتـه في خطر.. هددها بأنَّه سيبلغ النيابـة العامـة بخيانتهـا واسـتيلائها عـلى أموالـه ولكنَّها لم تكترث.

كانت تلك هي مذكراته التي عثر عليها بدرج مكتبه.. كمـا عثـر عـلى شريط مسجل بصوته يتضمن ويوثق هذا الإقرار.

كما عثر وكيل النيابة المحقق على بـلاغ للنيابـة العامـة يـتهم زوجتـه بالزنا مع هذا الشاب والاستيلاء على أمواله.

وأورد فى مذكراته المكتوبة والمسجلة أنَّه يخشـى عـلى حياتـه منهـا، وأنَّه فكَّر كثيرًا فى أن يتحرر من عبودية حبها وأن يطلقهـا، ولكنَّـه فى كـل مـرة كان يرى نفسه ضعيفًا أمام حبها.. أسيرًا أمام فتنتها وجمالها.

أشارت أصابع الاتهام منذ الوهلة الأولى إلى أنَّ الزوجـة هـى صـاحبة المصلحة الأولى فى قتله وفى الخلاص من أسره وفى التحرر من تلـك الورقـة التى تربط بينهما، فما عاد بينهما سوى ورقـة الـزواج التـى باتـت حبـرًا عـلى ورق، وقد آن الأوان أن تتخلص منها.

كانت تلك هى الصورة التى واجهتنى كمحقق للقضية..

بدأت التحقيقات بعـد أن اطلعـت عـلى مـذكرات الـزوج واسـتمعت إلى شريط التسـجيل، وأفرغـت مضـمونهما فى محضـر تحقيقـات النيابـة، كمـا أفرغت مضمون التحريات المبدئية بأنَّ الزوجة صاحبة المصلحة وأنَّها عـلى

علاقة آثمة بالجار الموسيقى الذى تبين أنَّه منذ حوالى شـهر غيـر متواجـد فى الشقة وأنَّه مسافر لإحدى البلاد العربية فى عمل مع إحدى الفرق الموسـيقية وأنَّه سيعود بعد شهرين.

وتبين أنَّ الخادمة كانت موجودة بالمسكن وقت الحادث فاستدعيتها وسألتها، فأكدت ما كانت تراه من تصرفات قاسية وحـادة فى معاملـة المـرأة لزوجها بعد مرضه، وأكدت أنَّ الزوجة قد تخلَّصت من زوجها بعد أن طلبت الطلاق ورفض وأنَّها رأتها بأم عينيها وهى تدسُّ له السم فى طبق البامية الذى قدَّمته له للغذاء فى مكتبه.

ولكن الشىء المحيّر أنَّ الزوجة كانت غارقة في البكاء مصرة على الإنكـار نافية أنَّها قتلته.

واعترفت بحبها لهذا الشاب.

- نعم أحببت ذلك الشاب الموسيقى، فقد رأيـت فيـه فتـى أحلامـى.. أعجبت بحلاوة صوته وطلاوة حديثه.. كنـت أتمنـى أن أرتـبط بـه إلى الأبـد ليعوضنى أنوثتى التي افتقدتها مع هذا الكهل.. طلبـت الطـلاق مـن زوجـى لأرتبط به ولكنَّه رفض.

وأقسمت أغلط الأيمان بأنَّها لم تقتله ولم تخنه.

واستوقف نظرى أثناء معاينة جثة المجنى عليه أنَّه تقيـأ فعـلاً، وكـان لون القىء بنيًا غامقًا، فطلبت رفع هذه الآثار بمعرفة الأدلة الجنائية لتحليلهـا

وبيان عما إذا كانت تحتوى على مادة سامة من عدمه ونوعها إن وجدت.

واستوقفنى وأنا أناظر جثته.. وجود إصابة بجبهة المجنى عليه تقطر دمًا.

وواضح من شكل الإصابة أنها إصابة رضية أى نتيجة اصطدام الجبهة بآلة رضية كعصا أو ما شابه ذلك.

فأعدت سؤال الخادمة على ضوء ما سلف عن ظروف هذه الإصابة.

قررت أنَّها شاهدت الزوج بعد أن تناول طبق البامية وبدأت تطغى عليه آثار السم وبدأ فى القىء وهو يقول لها:

- قتلتينى يا خاينة..

فاعتدت عليه بـ «عدة» التليفون كى تخمد صوته للأبد.

تم حبس الزوجة على ذمة التحقيقات.

وأصدرت قرارًا بتشريح جثة الزوج لبيان ما إذا كانت به إصابات والآلة المستخدمة فى إحداثها وعما إذا كانت حيوية من عدمه، وكذلك بيان ما إذا كان تناول مادة سامة ونوعها وأثرها في إحداث الوفاة وهل كانت الوفاة نتيجة هذه المادة أم الإصابة التي في جبهته.

يقتضى فن التحقيق فى أمثال هذه القضايا قص أظافر المتهم ومن تحوم حوله الشبهة فى الجريمة بحثًا عن مواد سامة، إذ إنَّ تلك المواد تعلق

غالبًا بالأظافر وتحتها وتظهر فى التحليل وتكون بمثابة دليل مادي على مقارفة من يثبت أنَّه عالقة بأظافره للجريمة.

كما أمرت بقص أظافر الخادمة أيضا باعتبار أنَّها مقيمة إقامة مستديمة مع الزوجين.

كانت المفاجأة التى حملتها التقارير الطبية:

لقد ثبت من تقرير معامل التحليل أنَّ أظافر المتهمة والخادمة خالية من أى مواد سامة، فى الوقت الذى ثبت فيه من تقرير الصفة التشريحية لجثة المجنى عليه وتحليل أحشائه أنَّه تناول فى مشروب القهوة مادة سامة شديدة المفعول وأنَّها هى سبب الوفاة.

كما تبيَّن أيضًا من تحليل آثار القىء أنَّها لمشروب القهوة وبها نفس المادة السامة.

ولكن ما أدهشنى وأثار شكوكى فى أقوال الخادمة التى تعتبر الدليل القولى قبل الزوجة أنَّ معدة المجنى عليه كانت خالية من الطعام.

إذن حديث الخادمة وروايتها أنَّ الزوجة دسَّت السم فى طبق البامية الذى تناوله المجنى عليه حديث كاذب، فمعدة المجنى عليه ليس بها طعام أصلاً، كما أنَّ السم كان فى مشروب القهوة الذى تناوله على معدة خاوية.. وهو ما لم تقل به الخادمة.

وما زاد شكوكى أنَّ إصابة الجبهة إصابة رفيعة وطولية لا تحدث وفقًا

لتصوير الخادمة من عدة تليفون، ذلك أنَّه من خلال خبرتـى فى التعامـل مـع الدليل الجنائى وقراءاتى المستفيضة لكل ما كتب عـن الطـب الشـرعى.. أنَّ الآلة الراضة تترك صورتها على موقع الإصابة منها فى جسم المجنى عليه وهو لا يتصور أن تكون آلة الاعتداء على جبهة المجنى عليه بعدة تليفون فلا تتـرك أثرها الكبير على عموم الوجه ولا يكون من أثر سوى الخيط الرفيع فى الجبهة الذى جاء بالتقرير الطبى الشرعى أنَّه نتيجة الاصطدام بجسم راض كعصا.

وإزاء ذلك التصور ووقوفًا على اليقين فنيًا بتحديد الآلـة المسـتخدمة في إحداثها وعما إذا كانت حسب الوصف الذى شاهده وأثبته في تقرير الصفة التشـريحية تحـدث مـن الاعتـداء بعـدة تليفـون مـن عدمـه.. لـذلك قمـت باستدعاء الطبيب الشرعى وطلبت منه إجابة صريحة على هذا السؤال.

جاءت إجابته مؤكدة لما توقعت.. وأكد أنَّه يستحيل علميًا أن تحدث من الاعتداء بعدة تليفون.

سبحت عميقًـا في تصـوراتى واحتمـالاتى واستعرضـت في مخيلتـى وفيما أثبته في محضر معاينة مكان الحادث من أنَّ المجنى عليـه كـان منكفئًـا بوجهه على المكتب الذى كان يجلس عليه.

فأعدت سؤال الطبيب الشرعى ورسمت له الصورة التي كـان عليهـا المجنى عليه لحظة معاينتى للجثة على النحو سالف البيـان.. وسـألته سـؤالاً صريحًا عما إذا كان من الممكن أن تحـدث إصـابة الجبهـة نتيجـة اصـطدام رأس القتيل بأحد أضلاع المكتب.

جاءت إجابته واضحة وقاطعة فى أنَّ ذلك هو التصور الصحيح من ارتطام رأس المجنى عليه بحافة المكتب بعد أن خارت قواه نتيجة سريان السم فى جسمه والهبوط الحاد فى الدورة الدموية، فهوى برأسه على حافة المكتب دون قصد، حيث أسلم أنفاسه الأخيرة.

وأيقنت أنَّ الخادمة كاذبة وأنَّ هناك سرًا وراء هذا الكذب لابد من كشفه إذ إنَّ حقيقة الحادث تكمن في كشف هذا السر.

تذكَّرت على الفور صورة الزوجة وهى تصر على الإنكار وتدفع عن نفسها التهمة بكل ثقة رغم اعترافها بخيانة زوجها مع الشاب الموسيقى.

وراودتنى التساؤلات العديدة.. ما الذى حدا بالخادمة أن تتهم مخدومتها بهذه التهمة الخطيرة وتلف حبل المشنقة حول عنقها، فالتهمة الموجهة إليها هى القتل بالسم وعقوبتها الإعدام وفقًا لنص المادة ٢٣٣ من قانون العقوبات.

هل الخادمة هي المتهمة الحقيقية بالقتل وما الذى دفعها إلى ذلك والزج بالزوجة في هذا الاتهام بأدلة تفوح منها رائحة الكذب.

لا شك أنَّ هناك لغزًا ولا بد من فك طلاسمه والوقوف على الحقيقة.

من الذى دسّ السم للزوج؟

لماذا تقرر الخادمة أنَّها رأت الزوجة وهى تدسُّ السم فى طبق البامية ويثبت –بعد ذلك– أنَّه لم يتناول أية أطعمة ومنها بلا شك البامية ويثبت أنَّ

المادة السامة كانت فى القهوة.

لماذا قررت الخادمة أَنَّها رأت المتهمة وهى تهوى بعدة التليفون على رأس زوجها، بينما تثبت استحالة حدوث إصابة الجبهة من عدة تليفون؟!

إن وراء أقوال الخادمة سرًا لابد من كشف القناع عنه.

واستدعيت الخادمة وواجهتها بأكاذيبها وأنَّ عليها أن تدلى بالحقيقة إذ إنَّها بهذه الأقوال الكاذبة ترتكب جريمة تضليل العدالة.. بل إنَّ شكوكًا تقترب من اليقين أَنَّها وراء مقتل المجنى عليه.

وانهارت مؤكدة أَنَّها ستقول الحقيقة كاملة ولن تخفى شيئًا.. وقد أحسست في نبرات صوتها أَنَّها صادقة فيما ستدلى به بعد أن أحسَّت بأنَّ سهام الاتهام في طريقها إليها.

كانت أقوالها الجديدة أنَّ الزوجة بريئة إنَّها لم تقتله.. لقد انتحر الزوج.. هو الذى وجد فى هذا الانتحار خلاصًا لحياته وإنهاء لآلامه ووضع حدّ لعذابه.

ولكن أيترك زوجته تنعم بماله الذى أفنى عمره فى جمعه وتتزوَّج ذلك الشاب الموسيقى لينعم بماله ويسعد بفتنتها وجمالها.. لن يحقق لها ذلك مهما كان الثمن.. لن يسمح لنفسه أن يعيش محطمًا ذليلاً كسير النفس، لقد أصبحت حياته بلا أمل ولا ثمن ولا معنى لها.. عليه أن يحطّمها كما حطّمته.. أن يقضى عليها كما قضت عليه.. هي وعشيقها أن يسلمهما بيديه

إلى حبل المشنقة، فقد قتلت فيه كل شـيء ومـلأت نفسـه المحطّمـة باليـأس والزهد في الحياة.. سيكون انتقامه من نوع جديد.

استطردت الخادمة قائلة:

- نعم إنَّه قرر أن ينتقم من زوجته ومـن عشـيقها الشـاب الموسـيقى.. أحسَّ أنَّ حياته باتت معدومة.. هو والميت سواء.. سواء أمام نفسـه أو أمـام عينيها بل إنَّ حياته باتت عذابًا.. يستحيل تحمله وفى الموت الراحة الوحيـدة له.. أعطانى مبلغًا كبيرًا من المال، ووضع السم أمام عينى فى فنجـان القهـوة وارتشفه أمامى بعد أن اتفق معى على اتهام الزوجة بوضع السم والتأكيد عـلى خيانتها لزوجها حتى لا ترث منه.

- تلك هى الحقيقة.

كان علىّ كمحقق ألا آخذ هذه الرواية مأخـذ اليقـين وخصوصًـا أنَّهـا كذبت فى البداية.

لماذا لا يكون حديثها الجديد منـاورة أخـرى أرادت أن تخفـى بهـا الفاعل الحقيقى.

واستمرارًا فى الوصول إلى دليل يقينى على صدق روايتها أو هدمها تـم استخراج جثة المجنى عليه.. وتم قص أظافره وإرسالها إلى معمل التحليل.

وجاءت النتيجة لتؤكد.. ما توقعت.. فقد تبين من تحليل الأظافر أنَّـه عالق بها المادة السامة نفسها التى ثبتت من التشريح وجودها فى أحشائه أدَّت

لوفاته.

وكادت خطة الزوج فى الانتقام من زوجته ولفّ حبل المشنقة حول رقبتها.. كادت تفلح فقد أحكم خيوطها ابتداء من مذكراته وشريط التسجيل وشكواه المكتوبة إلى النيابة.. التى كان يعلم – بلا شك – أنَّ النيابة ستتطلَّع على ما جاء فيها.. وبعد أن وجَّه فيها أصابع الاتهام نحو زوجته، وأنّه تيقَّن من غدرها وتهديدها له بالقتل إذا لم يطلقها، وقد لمح فى عينيها الإصرار على ذلك ورغبتها فى التخلص منه.

لقد أحكم نسج خيوط خطة انتقامه عندما اتفق مع الخادمة ورسم معها خطة اتهام زوجته بعد وفاته.

وكادت خطته أن تنجح بالفعل وأن يطوّق حبل المشنقة رقبة زوجته.

وفى اليوم التالى لسؤال الخادمة واعترافها الذى غيَّر مسار الأحداث والدليل فى الدعوى حضر الشاب الموسيقى من تلقاء نفسه وقد عاد من السفر وعرف الحادث.

كان حديثه بدوره يتسم بالغرابة ويؤكد أنَّ الزوجة رغم غدرها لزوجها وتمردها عليه وخيانتها لحبه.

قال الشاب الموسيقى:

- نعم كانت تتردد علىَّ فى شقتى المجاورة عندما يخلد زوجها للنوم.. كانت تشكو لى قسوة حياتها مع الرجل الذى أصبحت بالنسبة له ممرضة لا

زوجة.. كيف أنَّها أصبحت فريسة للوحدة والملل.. وكيف أنَّ هذه الحياة فرضت عليها قبل أن تعرفه.. حياة السهرات الماجنة ولكنَّها عندما أحسَّت بدفء الحنان فى صوته وهو يشدو بأعذب كلمات الحب اهتزَّ قلبها الذى ذبل وتغيَّر كيانها الذى تحلم.. عشقت الحياة بعد أن زهدت فيها.. وأحسَّت بالأمل بعد أن استبد بها اليأس.

- بدأ نبض الحب يتسلل إلى قلبها ويتملك عليها مشاعرها.. كانت تحس بحرارة لا حدود لها وهى تشكو إليه.

ويستطرد قائلاً:

- كنت أستمع إليها وأمسح دموعها وأهوّن عليها حياة الفراغ والملل والعذاب الذى تعيش فيها وأطلب منها أن تتذرَّع بالصبر.. «أن تكون زوجة وفية لزوجها حتى آخر لحظة فى حياته».

وواصل حديثه..

- وذات مرة طلبت منى فجأة وبصراحة وإصرار لا يخالجه أدنى شك أن أساعدها فى التخلّص من زوجها في قتله.. إنَّه يرفض طلاقها، لقد طلبت منه الطلاق من أجلى حتى نتزوج ونعيش سويًا.. طلبت منى أن أفكر معها فى الوسيلة التى أنهى بها حياة زوجها.. إنّها ما عادت تطيق العيش معه.. كل لحظة تعيش فيها إلى جواره كانت تحسُّ فيها أنَّها حبيسة إلى الأبد بين جدران سجن مظلم لا أمل فى الخروج منه.

ويستمر مستطردًا فى حديثه:

- هدَّأت من روعها.. رفضت تمامًا أن أشاركها فكرها أو أجاريها فيما تنوى الإقدام عليه.

وأحسست لحظتها أننى كنت مخدوعًا فيها.. رأيت فى عينيها لأول مرة الخسة والدناءة والخيانة.. رأيت فيها ما يتنافى مع مبادئ الحب والإحساس المرهف الذى زرعه حب الموسيقى والغناء فى وجدانى.

واتخذت قرارًا بينى وبين نفسى لا رجعة فيه أن أترك الشقة وأن أسافر للغناء فى إحدى البلاد العربية تلبية لرغبة متعهد طلب منى ذلك.. صممت أن أختفى من حياتها نهائيًا.

وأقسم الشاب بأغلظ الأيمان وهو يقول:

- صدقنى إننى لم ألمسها.. كنت متعاطفًا فقط مع ظروفها، كان اعتقادى بأنَّ سماعى لشكواها يهوّن عليها الأحاسيس التى كانت تسيطر عليها.

وأنهيت ما كان بينى وبينها من صداقة بريئة من وجهة نظرى وتركتها وقد صممت على أن يكون ذلك بلا عودة إلى الأبد.

وأنهى الشاب الموسيقى حديثه فى التحقيقات.

وطويت دوسيه القضية.

حقًا ما أغرب القدر. لقد وقف إلى جوارها القدر فى أن تفلت من حبل

المشنقة مرتين.. مرة عندما أثبتت التحقيقات أنَّها لم تقتل زوجها وإنما مات منتحرًا.. ومرة ثانية عندما صدَّها الشاب الموسيقى ولم يسايرها فى هواها ورفض تنفيذ رغبتها المدمرة فى قتل زوجها.

ولم يكن أمامى وقد ثبتت براءتها فى التهمة الموجهة إليها بقتل زوجها إلا إخلاء سبيلها.

لمحت الفرحة بلا حدود تكسو وجهها.. لقد ثبتت براءتها وها هى تخرج للحياة منطلقة بلا قيود وقد أصبحت تمتلك ثروة كبيرة.

وظننت بعد أن أصدر قرارًا بألا وجه فى إقامة الدعوى.. أى براءة المتهمة أنَّ الأحداث قد توقفت عند هذا الحد. حتى كان اليوم التالى عندما حضر إلى ضابط المباحث الذى شارك البحث فى قضية القتل ليعرض علىَّ - والابتسامة تكسو وجهه- محضرًا لقضية جديدة.

فسألته عن سر ابتسامته فابتدرنى قائلاً – عارف سيادتك الست اللى أفرج عنها امبارح بعد ما ثبت أنَّ جوزها انتحر وإنها مقتلتهوش..

فسارعت فى سؤاله

- أيوه.. وإيه علاقة ده بالمحضر اللى معاك دلوقتى.

فازدادت ضحكته وأحسست أنَّها ضحكة تكتم سخرية فى أعماق نفسه وهو يقول:

- فعلاً المحضر ده خاص بيها.

وبسرعة أمسكت المحضر وأدركت على الفور سر الدهشة التى أحسست بها فى ابتسامة الضابط، لقد هالنى ما رصد به.. لقد انقلبت بها سيارتها الفارهة وسقطت بها فى النيل وبجوارها شاب مخمور لقى المصير نفسه.. كانت تنطلق بها كالمجنونة بعد سهرة صاخبة نفضت بها عن نفسها غبار الماضى وباتت طليقة من قيد الزوجية الذى كان يربطها بزوجها.. الذى هدَّه المرض.. وأصبحت حرة.. تعيش بلا رقيب أو حبيب.. وقد قررت أن تنعم بحياتها الجديدة بالأسلوب الذى خططت له ورأت فيه إشباعها لأنوثتها التى توقفت فى السنوات العجاف الماضية وكانا في طريقهما لإكمال ما بقى من الليل وممارسة الرذيلة في شقته.

لقد أثبت القانون الوضعى براءتها من قتل زوجها ولكنَّ عدالة السماء لم تتركها لعبثها ولهوها، فقد كانت سببًا فى تدهور أحوال زوجها وشلّ أفكاره.. كانت سببًا فى انتحاره خلاصًا من العذاب الذى كان يعيش فيه..

ولم أتمالك نفسى وأنا أشارك الضابط الابتسامة.. ابتسامة السخرية من القدر.. أدركت على الفور أنَّه يشاركنى الفكر نفسه الذى راودنى وأنا أقرأ المحضر.

لقد أفلتت من حبل المشنقة مرتين ولكنها لم تفلت من عقاب السماء.. إنَّها حقًا.. عدالة.. السماء.

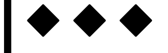
أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة

المحامي بالنقض

القضية التاسعة

قاتل رغم أنفه



■ ■ قاتل رغم أنفه

من منَّا يملك أن يهرب من قدره.. أن يغيّر مجرى حياته.. أن يحقق كل ما يريد، فالمثل الشعبى الشائع أصاب كبد الحقيقة.. «المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين».

سيناريو الأحداث لهذه القضية يؤكد أنَّ الإنسان ليس حرًا في اختيار طريق حياته بل ليس حرًا في تحديد خطواته، فمن كتبت عليه خطى خطاها ومن كانت منيته بأرض فلن يموت في أرض سواها.

كان شيخًا فانيًا حانيًا نحيل الجسد، كسا الشيب رأسه وأظهرت بصمات الزمن علاماتها على وجهه الذى امتلأ بالتجاعيد وغطَّته الهموم كان يسير حانيًا وكأنَّما حملته الدنيا كل أعبائها على كتفيه رغم أنَّ عمره لم يناهز الخمسين عامًا.. كان واضحًا من نبرات صوته أنَّه يعانى الكثير، وأنَّه يختزن بداخله من الآلام ما ينوء جسده الهزيل عن حمله.. كان أشبه بجثة متحركة.



جاء يوكلنى للدفاع فى قضية قتل.. فسألته عن صلته بالقاتل أو بالقتيل.

وكانت المفاجأة وهو يجيب بصوت مرتجف..

القتيلة بنتى.. ثم تنهَّد تنهيدة ملؤها الحسرة والألم الذى بـدأ يطـرح نفسـه من داخله..

فسألته عن المتهم وصلته ودافعه على القتل.

فأجاب..

ابن أخويا.

فعجبت مستغربًا هذا المشهد الـذى يقـدم فيـه الأب عـلى توكيـل محـامٍ للدفاع عن قاتل ابنته.

ودار في ذهنى الكثير من الأسئلة الحـائرة التـي لم أجـد لهـا جوابًـا.. وأنـا أحاور الرجل علِّى أستشف منه ولو نذرًا يسيرًا من حديث يفسـر هـذا الأمـر الذى يجافى طبائع الأمور.. وإزاء صـمته وإصـراره قـدَّم لى دوسـيه القضـية، وقال بصوت مرتجف الحقيقة كلها في أوراق القضية.

ولمح الشيخ علامات الاستغراب والتعجب فى عينى، وهـو يسـلِمنى ملف الدعوى.. فبادرنى معلنًا موقفه الغريب بأنَّه هو رب الأسرة وأنَّ المتهم فى مقام ابنه.. إذ إنَّه ابن أخيه.

بـدأت أتصـفَّح أوراق القضـية.. كانـت القتيلـة هـى زوجـة شـقيق

المتهم..

كانت بداية الأحداث حسبما سطَّر فى أوراق الـدعوى عنـدما أصـرَّ والـد القتيلة على زواجها من ابن عمها رضـوخًا للتقاليـد والعـرف الجـارى الـذى يأخذ حكم القانون فى بلدتهم ولا يستطيعون بل لا يملكون منـه فـرارًا.. وإلا فاللعنة والعار ستحل بالأسرة بأكملها عـلى نحـو يفقـدها اعتبارهـا ويطـأطئ رؤوس أبنائها إن لم ترضخ لهذه التقاليد.

كانت فتاة ريفية.. حلوة الطلعة.. فى العشرين من عمرها تعيش في إحـدى قرى محافظة سوهاج التي تـرى في هـذه التقاليـد دسـتورًا مجـرد التفكيـر في الخروج على طقوسه جريمة لا تغتفر.. كان أمنية كـل شـباب القريـة الـزواج منها.. إلا أنَّ والدها كان له رأى آخر إرضاء وتنفيـذًا لحكـم هـذه التقاليـد.. صمم على زواجها مـن ابـن عمهـا المقـيم فى امبابـة.. رغـم أنَّ جسـده كـان مستودعًا للأمراض.. كان مريضًا بمرض صدرى خطير.. السـعال لا يفارقـه ليلاً ونهارًا، وقد هدَّ المرض جسـده فأصـبح هـزيلاً منهـك القـوى.. يلهـث وتتلاحق أنفاسه لأقل مجهود.. وفوق كل ذلـك كـان يكبـر ابنـة عمـه بربـع قرن.. لم يعبأ الأب بكل هذه الفوارق، وساق ابنته ضاربًا بإرادتها وأحاسيسـها ومشاعرها والفارق الكبير بينهما عرض الحائط.. كان قد فاته قطـار الـزواج ورفضت كلَّ من تقدَّم إليها الزواج منه، ولكنَّ عمه قرر أن يلحقه «بالسبنسـة» بعد أن تحرك قطار العمر، وزوَّجه من ابنته الحسناء كممرضة قبـل أن تكـون زوجة تسهر الليل على نغمـات سـعاله وموسـيقى أنينـه وهـو يطـرب أذنيهـا

بشكواه التى لا تنقطع من آلامه المبرحة.. ولما كان فاقد الشئ لا يعطيه، فقد ظلَّت كما دخلت بيت الزوجية عـذراء لم يمسسـها أو بمعنـى آخـر زواج مـع إيقاف التنفيذ.. وفى الوقت نفسه الذى كانت تتزايد فيه متاعب الزوجة نفسـيًا وجسديًا، وقد وضعها زوجها في طريق مظلم مسدود مـع زوج لا حاضـر لـه ولا مستقبل.. أمراضه المستعصية تهدد حياته في كل لحظة.

كان يقطن فى مقابل الشقة التى يقطن بهـا شـقيقه الأصـغر.. كـان يمتلـئ رجولة وفتوة.. فى الثلاثين من عمره.. يعيش حياتـه بـالطول والعـرض حيـاة ماجنة صاخبة بوهيمية وقـد سـبح في ملذاتـه وأشـبع شـهواته بعـد أن مسـح «بأستيكة» تلك المبادئ والقيم والعادات التي تشبَّث بها أهل قريتـه.. أحـسَّ بمدى معاناة زوجة أخيه وهى الأنثى التي تطلّ من عينيها الحسـرة المقرونـة بالحيرة على شبابها وأنوثتها اللذين قبرا مع هذا الزوج العليل وهـى لا تملـك من أمرها شيئًا.. فما عاد أمامها سـوى أن تواصـل المسيرة في هـذا الطريـق المظلم مستسلمة بلا حيلة لا تعرف أين ومتى ستكون النهاية.

إلا أنَّ أخاه في غمرة حياته الماجنة المستهترة أحسَّ بما تعانيـه مـن أنوثـة وفتنة طاغية وفراغ عاطفى.. أعطى لنفسه الحق في أن يكون رجلها القادر على حل كافة مشاكلها وتبديل حياة المعاناة والحرمان العـاطفى إلى حيـاة ملؤهـا الحب والعشق والهيام ولكن على طريقته البوهيمية والتي تطرد كـل قيمـة أو مبدأ أو شرف.

بدأ فى مطاردتها فى غدوها ورواحها، تفنَّن وانتقى أعـذب كلمـات الحـب

وأرشـف أذنيهـا بكـل عبـارات الغـزل ووعـدها بأنَّـه سـيكرّس كـل حياتـه لإسعادها.. وسيعزف عن حياة اللهو والعبـث التـي يحياهـا.. سـتكون هـي السبب في إصلاحه.. وتغيير مسار حياته التي أصابها الضياع والمجون بسبب زواجه من زوجة منفرة تنغص عليه حياته بالليل والنهار فأسلم نفسه لتعـاطى الخمور والمخدرات حتى يهرب من واقعه الأليم.. وأنَّه عندما رآها والتقـت عيناه بعتينيها أفاق من غفوته وغاص في بحـور الحـب التـي كانـت تسـبح في هذين العينين.. فأقلع عن ملذاته بعد أن طهره حبها أمـلاً في أنَّ تجاوبـه هـذا الإحساس وتبدَّل شقاؤه بالهناء والسعادة.. خاصة وأنَّ الأطباء في آخر كشف على زوجها توقعوا موته قريبًا، فقد أصبح يستعصى مع مرضه العلاج.

وأحسَّت هى بما يدور فى ذهنه وما يعتمل فى فكره فصدَّته منذ البدايـة ونهرته فى أكثر من موقف، فقد كانت تقاليد ومبادئ أهل الصعيد تحتلّ فكرها وجسدها على نحو يستعصى معه أي محاولة لاقتحام هذه المبـادئ.. ولكـن في كل مرة كانت ترفض مجرد سـماع حديثـه.. وتنهـره بشـدة.. كانـت النـار تزداد اشتعالاً فى قلبه.. ورغبة في تملّكها واستحواذه لها تتزايد يومًا بعد يوم.

أحسَّت زوجته وأم أولاده بما يعتمل في نفسه ويـدور في فكـره.. أدركـت رغبته المحرَّمة، فقد كانت تعرف الكثير من نزواتـه وطيشـه ولهـوه ومجونـه فنهرته أكثر من مرة وأنَّبته على هذه التصرفات المحرمة شرعًا.. فهى مازالـت زوجة أخيه.. وعليه احترام هـذه الصـلة خاصـة مـع ظروفـه المرضـية التـي تقتضى أن يقف إلى جواره في محنته المرضية.. لا أن ينهش في عرضه بما تأباه

ويرفضه منطق وحوش الغابة.. وحذَّرته بأنَّ تصرفاته الطائشة لم تصل بعـد إلى علم أخيه وأنَّها تخشى لو علم بذلك في أن تقضى الصدمة عـلى حياتـه، وهـو في هذه الحالة المرضية المتأخرة.. لكنَّه لم يرتـدع وأصـم أذنيـه وأغلـق بـاب فكره وحبس ضميره وصمم على أن يستمر في تنفيذ ما هداه إليه شيطانه.. فكَّر ودبَّر كيف يوقع فريسته فى شباكه بأية طريقة.. سيصل إليها مهما كـان الـثمن وأيًّا كانـت العوائـق التـي تقـف حـائلاً بينهمـا سـيدمّرها وينسـفها بأسـلوبه الخاص.. فقد كانـت سـهراته العابثـة والماجنـة مليئـة بأصـدقائه مـن ذوى السوابق ومعتادى الإجرام.

لم تمـض عـلى تلـك الزيجـة – مـع إيقـاف التنفيـذ – سـوى سـتة أشـهر ومطارداته المستمرة والمتلاحقة لهـا.. حتـى كـان صـباح ذات يـوم عنـدما اختفت الزوجة، وبحثوا عنها فى كل مكان فلم يجدوا لها أثرًا.

فى ليلة ذات اليوم الذى اختفت فيه تم العثور على جثة محترقة لفتاة فى «مقلب» قمامة قريب من المسكن.

انتقلت الشرطة والنيابة لمكان الحـادث لمنـاظرة الجثـة ومكـان العثـور عليها ولم تكن هناك وسيلة للتعرف على صاحبة هذه الجثة سوى بعـض بقايـا ملابسها التى تعرَّف عليها الزوج، وقال إنَّها ذات الملابس التى كانت ترتديها زوجته ليلة اختفائها وأيَّدته في هذا زوجة أخيه.

كانت الجثة مشوّهة تمامًا، فقد أتت النيران على معظم الجزء العلـوى من جسدها وأصبح من المستحيل التعرف على ملامحهـا، وبالتـالي الوقـوف

على شخصية المجنى عليها.

نشطت تحريات المباحث بحثًا عن صاحبة هذه الجثة وعن القاتل والدافع للقتل.

وقطع حيرة التفكير في الإجابة عن الأسئلة السابقة بمفاجأة لم ترد بخاطر فقد تقدَّمت زوجة الأخ من تلقاء نفسها إلى النيابة طالبة الإدلاء بمعلومات تكشف بها عن الحقيقة وتزيل الغموض الذى أحاط بشخصية المجنى عليها وشخصية القاتل ودافعه على ارتكاب الجريمة.

قالت بنبرة ملؤها الثقة الممزوجة بالحسرة والندامة.

القتيلة هي.. زوجة شقيق زوجى.

والقاتل هو.. زوجى.

وانهمرت دموعها على خديها وأجهشت في بكاء عميق وهى تشخص ببصرها وكأنما تستعرض شريط حياتها المفعمة بالأسى والألم.

إنَّه للأسف زوجى وأبو أولادى ولكنَّه كان منحرفًا بوهيميًا لا يبحث إلا عن ملذاته وما يشبع غرائزه ولا يعنيه بعد ذلك أي شيء حتى ولو كان الثمن أسرته، أولاده، أقرب الناس إليه.

كان لا يستطيع أن يكبح جماح نفسه أمام غرائزه الفيَّاضة والتى تجنح دائمًا نحو الحرام.

وسألها المحقق كيف توصَّلت إلى أنَّه القاتل.. وما الدليل على ذلك؟!

فأجابت مؤكدة.. نعم.. هو القاتل وأنا واثقة من ذلك.

فقد خرج في تلك الليلة وهو يحمل سكينًا حادة أخفاها بين طيَّات ملابسه وعاد إلى المسكن قرب الفجر وملابسه ملوثة بالدماء وكان يحمل السكين ذاتها، حيث قام بغسلها.

وسألها المحقق..

أين تلك السكين؟!

فأجابت.

تخلَّص منها ولا أعرف مكانها.

فسألها عن الجلباب.

فأجابت.

إنّه أمرها بغسله لإزالة آثار الدماء من عليه.

وقدَّمت لسلطات التحقيق الجلباب وعليه بقايا بقع داكنة زالت ملامحها بعد غسلها، ولم يستطع تقرير المعامل الوقوف على حقيقتها وعما إذ كانت دماء بشرية من عدمه.

وسئلت..

كيف توصلت إلى أنَّ الجثة التى عثر عليها زوجة شقيق زوجك؟!

فأجابت.

بقايا الملابس المحترقة التي عرضتها الشرطة عليَّ فور الحادث هي بقايا الملابس ذاتها التي كانت ترتديها يوم اختفائها.

وسئلت.

عن الدافع الذى دفعه إلى قتلها؟!

فأجابت.

كانت أفعاله دنيئة وتصرفاته ساقطة وأنَّها نصحته مرارًا أن يتقى الله من أجل العشرة والأولاد التي تجمع بينهما وأنَّ ما يفكر فيه من إقامة علاقة آثمة مع زوجة أخيه ضرب من الجنون.. ينحدر به إلى مصاف الوحوش، بل إنَّ الوحوش الكاسرة ترفض هذا المنطق ولكنَّ شيطانه أعماه واستنتجت أنَّه اغتصبها بجبروته ووحشيته وأرضى نزوته فخشى افتضاح أمره.. قتلها سترًا لفعلته الشنعاء.. وأضافت باكية وفرائصها ترتعد خوفًا فما عادت ساقاها قادرتين على حمل جسدها وطلبت الجلوس..

أنا واجهته بهذه الحقيقة بأنَّه هو اللى قتلها فلم ينكرها، بل هددنى بالقتل أنا وأولادى إن تفوهت بكلمة أو تلفَّظت بلفظ.

كان الدليل القولى مطابقًا لتقرير الصفة التشريحية من أنَّ المجنى عليها تعرَّضت قبل قتلها لعملية اغتصاب، ومن ثم فقد أطبقت الأدلة على المتهم دامغة له بارتكاب قتل المجنى عليها بعد اغتصابها.

إلا أنَّ ما استوقفنى واستبدَّ بى حيرة هو ما جاء بتقرير الصفة التشريحية من أنَّ سن صاحبة الجثة التى تم تشريحها أربعون عاما، في حين أنَّ المجنى عليها عمرها حسبما هو ثابت في قسيمة زواجها ورواية والدها عشرون عامًا..

فطلبت من والدها أن يحضر لى مستخرجًا رسميًا من شهادة ميلاد ابنته.

ولم تمض أيام حتى أحضر تلك الشهادة الرسمية والتى تبيَّن منها أنَّها تبلغ عشرين عامًا وشهرين.

وجاءت لحظة المحاكمة..

كانت الجريمة فى صورتها الماثلة على النحو السالف للوهلة الأولى، تتسم بالوحشية والتجرد من الإنسانية.. أخ يقتل زوجة شقيقه بعد أن يغتصبها ثم يحرقها وتشهد عليه زوجته وأم أولاده!.

كان هذا هو سيناريو الأحداث الذي ملأ مخيلتى عندما قطع هذه الصورة صوت الحاجب وهو يعلن بدء الجلسة.

وبدأت إجراءات المحاكمة..

وسألنى رئيس الدائرة عما إذا كنت جاهزًا للمرافعة، أحسست من حديثه ولمحت فى عينيه وعيون بقية أعضاء الدائرة اقتناعهم التام بإثم المتهم وبشاعة جرمه ونذالة فعلته واستعجالهم القصاص منه.

فأجبت..

أنَّ لى طلبًا جوهريًا وهو مناقشة الطبيبة الشرعية التى أجرت التشريح.

وقبل أن يسألنى رئيس الدائرة عن علَّة هذا الطلب استمررت فى حديثى موضحًا أنَّ الدفاع ينازع فى شخصية الجثة التى عثر عليها وأنَّها ليست الشخصية المنسوب للمتهم قتلها.

فسألنى رئيس الدائرة عن الأساس الذى ستبنى عليه المناقشة.

فأجبت طالبًا مراجعتى فى الصحيفة ١١٤ من الملف المطبوع «الخاص بتحقيق القضية».

فقام أعضاء الدائرة بمراجعتى بما ورد بهذه الصحيفة تحت بند «الكشف الظاهرى».

قرأت ما ورد به «الجثة لفتاة تبلغ من العمر أربعين عامًا».

أى أنَّ الجثة التى عثر عليها لفتاة فى الأربعين من عمرها، والتهمة التى يحاكم المتهم من أجلها وهى قتل زوجة أخيه وهى تبلغ من العمر عشرين عامًا، وقدَّمت تأكيدًا لذلك للمحكمة صورة المستخرج الرسمى لشهادة ميلادها التى أحضرها الأب.

وأجلت المحكمة -تحقيقًا لدفاعى- القضية لليوم التالى.

لحظتها أحسست بأنَّ هزَّة قد أصابت الدليل الرئيسى فى الدعوى ولكن ما يعنى فى المقام الأول ليس قناعتى ولكن هو قناعة المحكمة بالخطة التى

رسمتها للوصـول إلى الحقيقـة وإزالـة الغمـوض الـذى أحـاط بالحقيقـة فى الدعوى الماثلة.

وجاءت الطبيبة الشرعية فى اليوم التالى وسـألتها المحكمـة عـن سـن الجثة التى شرحتها فأصرت على أنَّها تبلغ من العمر أربعين عامًا.

فسألتها المحكمة كيف استطاعت أن تتوصل إلى ذلك؟!

فأجابت أنَّ ذلك تحكمه أصول علمية وأجهزة حديثة وأشعَّة تسلطها على العظام يمكن من خلال كل ما سلف تحديد السن على وجه مؤكد.

فسألتها سؤالاً زيادة فى تأكيد ما أريد أن أصل إليه..

هل الأجهزة من الدقة بحيث تستطيع أن تحدد السن على نحو يقينى.

فأجابت الطبيبة على الفور:

نعم وعلى درجة أكبر من الدقة بحيث يمكن تحديد شهر الميلاد..

ومن ثنايا خبرتى أحسست فى عيون هيئة المحكمة القلق الذى يـدور فى خلدها بعد هذه الشهادة.. هل اقتنعت بها كـدليل فنـى قـاطع بـأنَّ الجثـة المعثور عليها ليست للفتاة المدعى قتلها؟ أم أنَّ الشك يساورها في ذلك.

ورفعت المحكمة الجلسة للمداولة،

وعادت من جديد لتصدر قرارًا بتأجيل القضية لليوم التالى،

استدعت كبير الأطباء الشرعيين لمناقشته.. وبالفعل حضر فى اليوم التالى.

فعاودت المحكمة سؤاله الأسئلة ذاتها التى وجهتها للطبيبة الشرعية فأيَّـد روايتها، وأكد -من جديد- أنَّ سن الشخص يمكن تحديدها بأجهزة حديثـة على وجه الدقة.

وفوجئت بالمحكمة توجه لى سؤالاً عن مصدر المستخرج الرسمي.

فقدَّمت لها صورته وعليها توقيع والدها، وقد مهره بتوقيعه أسـفل عبـارة «استخرج بمعرفتى وتحت مسئوليتى» وتلك سنة انتهجتها بأنَّ كل مسـتخرج أو دليل يقدمه الخصم أستوقعه على صورة منه ضمانًا لصحته.. بل أعلنت أنَّ والد المزعوم قتلها موجود فى القاعة.

فنادت المحكمة عليه.. ومازالت الشكوك بادية في عينيها.. وطلبـت منـه أن يقسم اليمين القانونية.

فأقسم بالله أن يقول الحق ولا شـيء غيـر الحـق عـن صـحة المسـتخرج الرسمى فأكد أنَّه هو الذى استخرجه وأنَّ ابنته تبلغ من العمـر عشـرين عامـا وشهرين وقت اختفائها، وأكد أنَّها ابنتـه وأنَّـه يعلـم سـنها بداهـة عـلى نحـو محدد.

رغم كل ما سلف فإنَّ قناعة المحكمة مازالت يداخلها الريبة والشك خاصة مع إصرار الأب على تبرئة القاتل لابنته.. وأنَّ هناك حقيقة قدِّر لهـا أن تقبر فى القضية المطروحة على المحكمة أن تواصل البحـث والتحقيـق حتـى تكشف الغطاء وتزيل النقاب عنه.

وتحقيقًا لذلك أصدرت المحكمة قرارًا بتكليف نيابة سوهاج بالانتقال للسجل المدنى والاطلاع على تاريخ الميلاد الحقيقى للفتاة وإحضار مستخرج رسمى بمعرفتها من واقع السجلات الرسمية.

وكان اليوم الذى تحدد لنظر الدعوى بعد تنفيذ طلبات المحكمة،

وتبيَّن من المستخرج الذى أحضرته النيابة وقدَّمته للمحكمة صدق حديث الأب من أنَّ ابنته فى العشرين من عمرها.

وبدأت مرافعتى قائلاً:

سيادة الرئيس.. حضرات السادة المستشارين.. بعد هذا التحقيق الجلى الذى رفع الستار وأزال النقاب عن الحقيقة المفقودة فى الدعوى الماثلة، فقد ظهرت الحقيقة جليةً واضحةً فى أنصع صورها وأبهى مشاهدها، وصدق ما أثاره الدفاع منذ الوهلة الأولى من أنَّ الجثة المشوهة التى تم العثور عليها والتى ثبت فنيًا أنَّها فى الأربعين من عمرها ليست للفتاة المزعوم قتلها والتي تبلغ من العمر عشرين ربيعًا يوم اختفائها، إنَّها لفتاة أخرى مجهولة، ولا يقدح من ذلك تعرف زوجها أو زوجة المتهم على أشلاء من الملابس المحترقة التي تكسوها ألسنة اللهب والنيران وهى من المثليات التى لا تنهض بذاتها دليلاً على أنَّها جثة زوجته التى يبين وتكشف عن نفسية حاقدة ناقمة مدمرة.. انتهزت فرصة العثور على الجثة والأحداث المحيطة بالأسرة والارتباط من زوجها العليل فزجَّت بزوجها في آتون هذا الاتهام للخلاص منه إما بدافع الغيرة أو لأغراض أخرى لم تكشف عنها التحقيقات.. إنّ ما

يعنى الدليل في الدعوى الماثلة إجابة عن سؤال.. هل الجثة المعثور عليها لزوجة شقيق المتهم أم لا.. الإجابة بالطبع ومن واقع تقرير الصفة التشريحية وسن المجنى عليها وسن الجثة وسن الزوجة.. وما أكده الطب الشرعى من استحالة حدوث هذا الفرق في السن.. إنّه حديث المستحيل الذى يصطدم بما أوجبته المادة ٣٠٧ من قانون الإجراءات الجنائية من أنَّ المحكمة ملزمة بالوقائع والأشخاص موضوع الاتهام.. أما، وقد ثبت أنَّ واقعة قتل المتهم لزوجة أخيه غير قائمة على أساس من الواقع المعتبر المؤسس على دليل فنى فإنَّه يتعين على القضاء تبرئته من هذه التهمة.

رفعت المحكمة الجلسة للمداولة..

عادت لتنطق بالحكم بعد وقت ليس بالقليل استمر لعدة ساعات في المداولة في تلك القضية.

قضت المحكمة ببراءة المتهم مما أسند إليه..

خرج المتهم من سجنه مذهولاً.. شاردًا.. وهو يسترجع تصرفات زوجته.. ما الذى دفعها إلى أن تتقدم بشهادتها لتطوّق عنقه بحبل المشنقة.. لتتخلّص منه وهى تعلم أنَّه برىء.. بحث عنها في كل مكان فلم يجدها.. كانت النيران تشتعل في أعماقه وهو يستعرض أمام عينيه مشهدها وهى تشهد ضده في النيابة وأمام المحكمة وتؤكد أنّه هو القاتل.. واستمر بحثه لأيام وشهور ونار الانتقام تزداد اشتعالاً في أعماق نفسه المثخنة بالجراح

المتعطشة للانتقام.

وذات صباح استيقظ أهالى إحدى المناطق الشعبية بالجيزة على صوت أنين لسيدة تستغيث فهرعوا إليها وتم نقلها إلى المستشفى.

إنَّها الزوجة التى اعترفت على زوجها.

أدلت وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة بآخر كلماتها..

قالت أمام النيابة..

زوجها هو الذى سدَّد إليها الطعنات القاتلة.

تركها بعد أن اعتقد أنَّها جثة هامدة فارقت الحياة.. ولكنَّها كان مغشيًا عليها وأفاقت.. وشاءت إرادة الله أن تكتب لها الحياة في لحظات لتكشف الحقيقة.

إنّها على يقين أنَّه لم يقتل زوجة أخيه.. لأنَّها عندما أحسَّت بغدره وخسته وملاحقته لها ورغبته في أن يصحبها إلى طريق الرذيلة الذى اعتاد السير فيه اتفقت هي ووالدها على أن تهرب إلى الإسكندرية لتقيم لدى صديقة لها هناك لا يعرف أحد مكان إقامتها سوى والدها.

وباستدعاء والدها أكد هذه الحقيقة بل وأحضر ابنته من الإسكندرية وأدلت بأقوالها أمام النيابة بما يؤكد الأقوال الجديدة.. وأنَّها لولا هروبها على نحو ما سبق لما تورَّع شقيق زوجها في اختطافها واغتصابها وقتلها إن حاولت فضح أمره.

أما الجثة التي عثر عليها فقد قتلها فعـلاً.. كانـت زوجـة لأحـد أصـدقائه لاحقها وطاردها وعندما نهرته ورفضت مسـايرته وتحقيـق أغراضـه الدنيئـة اغتصبها وقتلها بالطريقة ذاتها التي أشرت إليها في شهادتى مع تغيير شخصـية المجنى عليها.. ولكنَّه حصل على البراءة لسبب لم أكن أتوقعه وهـو اخـتلاف السن.. وأفصحت عن شخصية القتيلة، حيث أكدت التحريات صحة روايتها واختفاء تلك السـيدة في تـاريخ معاصـر وإبـلاغ زوجهـا باختفائهـا وتحريـر محضر بذلك.

وباستدعاء زوج القتيلة أكد اختفاء زوجته وأنَّه قـد حـرر محضـرًا بـذلك وكان دائم البحث عنها حتى علم أخيرًا بمقتلها على يد صديقه النذل.

وهكذا حافظت على شرف الفتاة وقمـت بتهريبهـا بعلـم أبيهـا وموافقتـه لأننى أيقنت أنَّها لن تفلت من أنيابه وفى الوقت ذاته تيقَّنت مـن قتلـه للسـيدة الأخرى بعد اغتصابها، فكانت شهادتى انتقامًـا منـه وتخليصًـا للأبريـاء مـن رذائله وجرائمه المتعددة والمستمرة التي لا تغتفر.

وهكذا كان القدر للمتهم بالمرصاد فرغم أنّه قضى ببراءته من تهمـة قتـل زوجة شقيقه التي ثبت أنَّها على قيد الحياة إلا أنَّه حكم بإعدامه شنقًا عن تهمة خطف واغتصاب وقتل زوجة صديقه.. وكـذا قتـل زوجتـه عمـدًا مـع سـبق الإصرار والترصد والتي لفظت أنفاسها الأخيرة فور إبداء أقوالها أمام النيابة.

حقًا إنَّه القدر فقد كان من الممكن أن يفلت من قتل زوجته لعـدم وجـود

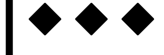
أية أدلة قولية أو فنيـة أو ماديـة عليـه لـولا اعتقـاده بعـد تسـديد العديـد مـن الضربات أنَّها فـارق الحيـاة ولكـن إرادة الله شـاءت أن تمـد في حياتهـا عـدة ساعات حتى تكشف جرائمه.

حقًا إنَّه القدر الذى فرض عليه أن يكون «قاتلاً رغم أنفه».

بهاء الدين أبو شقة
المحامي بالنقض

القضية العاشرة

في بيتنا شيطان



■■ فى بيتنا.. شيطان

ليلة لا أنساها عندما حضرت إلى مكتبى فتاة فى مقتبل العمر.. كان الحزن والكآبة يكسوان وجهها ويعتصران عينيها التى احمرَّت من كثرة البكاء.. كانت الكآبة واليأس يستبدان بقسمات وجهها، فضاعت مع كل ما سلف مسحة الجمال التى تبدو لأول وهلة عندما حلَّت غرفة المكتب.

طلبت منها أن تركن إلى الهدوء والسكينة حتى أستطيع أن أتفهم مشكلتها.. حاولت جاهدة أن تتماسك لكن الانفعال كان باديًا فى عينيها التي احمرَّت من كثرة البكاء.. ملحوظًا فى قسمات وجهها التي ارتسمت عليها مظاهر اليأس.



وسألتها عن مشكلتها التي قدمت من أجلها.. ازداد بكاؤها، انفجرت الدموع من عينيها وانهمرت وكأنَّها المطر وقالت وهى تنتحب:

- مش معقول.. أنا مش مصدَّقة.. أنا كـأنى عايشـة في كـابوس مفـزع.. والله ده ظلم.. ده حرام.. وسقطت مغشيًا عليها قبل أن تنبس بكلمة أخرى.

طلبت لها أحد الأطباء من عيادة مجـاورة لمكتبـى، ووقـع الكشـف عليها وقال إنها لا تعانى من حالة مرضية، وكل مـا تعانيـه هـو حالـة انفعـال شديدة أصابتها بهيستيريا نتيجة تأثرها بحالة ما لم تكن فى الحسـبان فأصـابتها بصدمة خارت معها قواها لعدم قدرتها على تحملهـا، وأعطاهـا حقنـة مهدئـة فعادت إلى وعيها.

وأفصحت لها – من وجهة نظرى – أنَّ الوقت ليس مناسبًا للحـديث مع الحالة التى هى عليها، ولكنَّها – وفى إصرار واضـح – اسـتجمعت قواهـا وقالت فى صوت خفيض ملؤه الحسرة والأسى والحزن واليأس:

- خطيبى اتحكم عليه بالإعـدام.. حيتشـنق وأنـا متأكـدة أنَّـه بـرىء – وحملقت فى وجهى وهى تردد:

- تصور إنسان برىء يعدم من غير ذنب لم يرتكب أي جريمة.

سألتها وقد أحسست مـن بريـق عينيهـا ونظـرات صـوتها إصـرارها عـلى براءته.

– كيف تأكدت من براءتـه خصوصًـا أنَّ المحكمـة قـد حكمـت بعـد أن استعرضت الأدلة وأوجه الدفاع، وانتهت بإجماع الآراء على إدانتـه بالإعـدام، خاصة أنَّ حكم الإعدام له طبيعة خاصة وضمانات كبرى تفوق الضمانات فى

قضايا الجنايات العادية ومنها ضرورة أخذ رأى المفتى ليقول كلمته من واقع أوراق الدعوى التى ترسل إليه عما إذا كان يستحق القصاص منه شرعًا إعمالاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ﴾ كما أنَّ عقوبة الإعدام تقتضى ضرورة إجماع الآراء بعكس أى جريمة أخرى فيكفى لثبوت الإدانة والعقاب أن تسفر مداولة أعضاء المحكمة على الأغلبية وليس الإجماع.

أعدت عليها السؤال.. عن سندها الذى تركن إليه مؤكدة براءته.. رغم حكم المحكمة، وتمحيصها لكافة الأدلة وأوجه الدفاع فيها خاصة وأنَّه إذا كان لديها دليل براءته – كما تدَّعى – فلماذا تقاعست عن تقديمه للمحكمة.. وما الذى حجب المتهم أو دفاعه أو منعها من تقديمه.

أجابت:

- إحساسى يؤكد لى أنه برىء.. نظرات عينيه لى أقنعتنى بذلك.. كلامه بعد النطق بالحكم.. طول عمرى ما هنساه.. منظره يستحيل هيفارق عينيه وهو بيقول لى: أنا ميهمنيش الدنيا كلها.. كل اللى يهمنى إنت.. باحلف لك بحبنا الطاهر إنَّ أنا برىء.. إنى ما قتلتش عمى.. كل اللى يهمنى أنت.. صورتى قدام عينيك لازم تفضل حلوة زى ما هى.. الدنيا كلها ما تهمنيش.. قوليلى إنك مصدقانى.. كلامك ده هو الله حيهون علىَّ حبل المشنقة وحا أفارق الدنيا وأنا راض مادام أنت راضية ومقتنعة ببراءتى.. لم تشعر بنفسها والدموع تملأ خديها وتبلل ملابسها.. كانت قناعتها بصدق حديثه بلا

حدود.. فقد لعب الحديث بأوتار قلبها وملأ هذا القلب الجـريح، فمـا بـات فيه مكان آخر غير الإيمان ببراءته.

ولم أتمالك نفسى وأنا أتنهَّد تنهيدة عميقة بعد كل ما سمعت ورأيت.

كان مشهدًا مأساويًا بكل معانى «التراجيـديا».. الفتـاة مقتنعـة تمامًـا بكلماته وبراءته، وهو حديث لا يسمن ولا يغنى من جـوع، لأنَّ الأحاسـيس والمشاعر المجردة لا تكفى بمفردها فى أن تحرك حكم الإعدام أو أى حكـم بالإدانة قيد أنملة، ومن ثم فقد كان علىَّ أن أقرأ «دوسيه» القضية والمحاكمـة التى دارت وأتصفّح أسباب الحكم لعلِّى أجد لهـا مخرجًـا، فإنكـار المـتهم وحديثه الوردى المشحون بالعواطف الملهبة لخطيبته لا يكفى لإبعـاد حبـل المشنقة عن رقبته خصوصًـا وأنَّ خبرتـى علمتنـى أنَّ كثيـرًا مـن المجـرمين الغارقين تمامًا فى بحر الجريمة يلوذون في أغلـب الأحيـان – بالإنكـار مهمـا كانت الأدلة مطبقة عليه سواء ما كان منها قوليًا أو ماديًـا أو فنيًـا رغـم تعـانق هذه الأدلة وتآزرها بعضها مع البعض الآخر إلا أنَّ الغالبية العظمى يصـرون على الإنكار.

أحسَّت الفتاة بما يدور فى رأسى.. ونظرة الحيرة التـى تكسـو عينـى، فبادرتنى قائلة:

- أرجوك تقف معاه ما تسيبوش.. الدنيا كلها تخلَّت عنـه حتـى أهلـه.. أخوه الوحيد صدق إنَّه قاتل وابتعد عنه وتركه لحبل المشنقة.

طلبت منها أن تمهلنى حتى أقرأ القضية بإمعان، وبدأت فى تصفّح أوراقها.. كانت التهمة حسبما رصد فى تكييفها.. جريمة قتل عمد مع سبق الإصرار والترصد.. كان القتيل عم المتهم الذى ربَّاه.. فى حكم والده.. مما أثار الاشمئزاز من فعلته ودفع أهليته إلى التنصل والتبرؤ منه.. بل والتحامل عليه والوقوف ضده وانتظار اليوم الذى يطهّرون ثوب الأسرة الأبيض من دنسه.. يرونه معلّقًا فى حبل المشنقة إرواءً لغليلهم وجزاءً وفاقًا لدم ذلك الرجل العظيم الذى لم يتوان يومًا فى إسعاده.

ولنبدأ القضية من أولها..

كانا شقيقين لا ثالث لهما.. «أشرف» وشقيقه «سمير» الذى يكبره بحوالى ست سنوات عندما أصيب والدهما بمرض خطير أقعده عن العمل، أصبح لا يستطيع حراكًا.. فقد الأمل فى الشفاء، وأدرك الرجل أنَّ أيامه – فى الحياة – معدودة – لم ينس الرجل –وهو يحتضر– ولديه الصغيرين فأوصى أخاه «محمود» بهما وهو فى النزع الأخير.. أوصاه برعاية ولديه.. أن يعاملهما كما لو كانا من صلبه خاصة وأنَّ أمهما كانت أيضا تعانى «كوكتيل» من الأمراض المستعصية.

ومات الرجل وترك أسرة لا تملك من حطام الدنيا شيئًا.. زوجة مريضة فى أمس الحاجة إلى العلاج والأدوية المستمرة.. وولدين أكبرهما فى العاشرة من عمره.. وكان شقيقه «محمود» من الطيبة والأصل عند حسن

ظنّه.. عمل بوصيته بل وأكثر.. واعتبر نفسه أبًا فعليًا لهما.. وكرَّس حياته من أجلهما وبدأ فى تعليمهما وأغلق على مشاعره بـ «الضبة والمفتاح» وتزوَّج من أرملة شقيقه رغم علمه بمرضها ورغم ما كانت تعانيه من مرارة من هذا الزواج وإحساس بالتقصير فى حقّه وأنَّها لا تستطيع إسعاده كزوج شأن كل الزوجات، إلا أنَّها كتمت أحزانها فى داخلها.. كان الرجل يحسُّ بأحاسيسها ومشاعرها ويواسيها ويهون عليها.. كان يسهر بجوارها الليالى الطويلة ليقدم لها الدواء.. كان صالحًا ورعًا تقيًا، يرعى الله فى كل تصرفاته ويتقيه فى كل أعماله لدرجة أنَّه طلب من ابنى شقيقه أن يناديا به «بابا محمود».. وظلَّ يواصل كفاحه معهما ويقف إلى جوارهما ولا يبخل عليهما بأي شيء حتى يكملا تعليمهما.. والأيام تمرّ والشقيقان يكبران وتخرجا فى الجامعة.. وماتت أمهما، وهى تدعو له وتقدِّر شهامته وتعترف بمروءته وأنَّه لولا وقوفه إلى جوارهم هى وابنيها لدهمتهم عجلة الحياة.. وكتب عليهم الضياع.

ماتت بعد أن احتلت من عمره الكثير وقطفت زهرة شبابه عشر سنوات، وأضافت إلى عمره سنوات لم يعشها، ورغم ذلك فقد حزن عليها حزنًا شديدًا.. كان يرى فيها الوفاء والإخلاص والطيبة والرغبة الصادقة فى إسعاده.. فرغم ما كانت تعانيه من آلام المرض كانت تسعى قدر جهدها فى أن تعتنى به وأن تقوم على شؤونه، وكان وقع ذلك فى نفسه عظيمًا، فقد قرَّر بعد وفاتها أن يحبس نفسه داخل «بوابة» حديدية وأيقن أنَّه جرَّب حظَّه فى الحياة وأنَّ السعادة نسبية يختلف مفهومها من شخص لآخر، وأنَّ سعادته

الحقيقية التى بات يراها تملأ عليه حياته هى ابنا شقيقه «أشـرف» و«سـمير».
كان يرى أنَّه أب لهما بالفعل، وكانت كلمة «بابا» أشبه بالموسيقى التـى تهتـزّ
لها أوتار قلبه.

ولكنَّ السعادة لا تدوم، ففى الوقت الذى كان يسير بـه قـارب الأيـام
فى نهر الطمأنينة والحب ظهـرت «صـخرة» عاتيـة اعترضـت طريـق القـارب
وقطعت عليه نشوة فرحته.. كانت تلك المرأة التى ظهـرت فى حيـاة الأسـرة
فجأة فبدلت حالها رأسًا على عقب. تقابـل معهـا مصـادفة والشـعر الأبـيض
يكسو رأسه.. كانت أشبه بالجليد الذى لا يـذوب وبصـمات الـزمن التـى لا
ترحل.. تركت آثارها على وجهه فملأته بالتجاعيد.. هكذا كان حـال الرجـل
عندما التقى بها.. كان قلبه خاويًا من الحنـان.. خاليًـا مـن الحـب.. متعطشًـا
ينتظر أول كأس ترويه.. أما هى فقد كانت أرملة مـات زوجهـا فى حـادث ولم
ينجب منها أولادًا.. كانت ممشوقة القـوام.. حلـوة الطلعـة.. بيـاض بشـرتها
المختلط بحمرة الوجه يزيدها فتنة وبهاءً.. وقد كسا رأسها الشـعر الأصـفر..
كان أشبه بخيوط الذهب التى تهفهف على خديها.. والثوب الأسـود – رغـم
قتامته – يزيدها حسنًا وبهاء. نظر إليهـا ولم يسـتطع أن يقـاوم النظـرة الأولى..
ظلَّ يختلس النظرات بلا وعى فقد نفذت نظرتها إلى قلبه البكر المـتعطِّش إلى
من يطفئ ظمأه.. ورمقته هى الأخرى بنظرة فاحصة لهـا معناهـا.. ارتسـمت
أمام عينيه واستقرت في أعماق مخيلته لا تفارقه.

ليلتها فارق النـوم عينيـه.. لم يغمـض لـه جفـن.. بـات قلقًـا مسـهدًا

وصورتها وملامحها العذبة ونظراتها الساحرة تتراقص أمام عينيه.

واستبدَّ به الخيال وسبح بـه فى فضـاء عـريض وانهـارت التسـاؤلات والتخـيلات والأفكـار عـلى رأسـه.. قـارن بـين نفسـه وبينهـا.. بـين الصـبا والشيخوخة.. وتساءل والفكـر يكـاد يحطِّـم رأسـه.. هـل مـن الممكـن أن يجتمعا فى سلة واحدة؟

وبينما كان الرجل شاردًا سابحًا فى أفكاره ونور الصباح بدأ يطلُّ عـلى الدنيا دون أن يدرى، عندما دخل عليه ابن شقيقه «سمير» يناديه أكثر من مرة:

- مالك يا بابا «محمود».. سرحان فى إيه؟

أحسَّ الفتى أنَّ عمه وقد كست الحمرة عينيه وذبلت جفونه مـن السـهر.. أنَّه غير طبيعى وأنَّ هناك ما يؤرقه فازداد فى سؤاله:

فيه إيه يا بابا؟

إلا أنَّ إجابته لم تكن مواكبة لحاله عندما أجاب..

- أبدًا مفيش حاجة

وقطع عليه حديثه:

- لا.. فيه حاجة.. وحاجة مهمة شاغلة بالك بتفكَّر فيها.. انـت علّمتنـا الصراحة.. قول فيه إيه يابابا ممكن أساعدك؟

وتحدَّث الرجل وقد انفرجت أساريره على استحياء.

- لو قلت لك عاوز أتجوز حتضايق انت وأخوك.

فابتسم وهو يهدئ من روعه ويقول فى ثقة:

- «كل اللى يهمنا أن نشوفك مبسوط وسعيد.. أنا كان نفسى أعرض عليك الموضوع ده من زمان.. انت اتحملت وقاسيت كتير.. وجه اليوم اللى لازم تشوف فيه نفسك».

نظر الرجل إلى المرآة وهو يتفحَّص شعره الأبيض ويحصى تجاعيد وجهه وكأنَّه أراد أن يرجع عن قراره.

- بس مين اللى ترضى بى بعد السن دى؟

فعاوده بابتسامة ملؤها الطمأنينة والتشجيع:

- انت بس شاور ومليون واحدة تتمناك.. انت بس اللى قافل على نفسك الدنيا.. لازم تنطلق.. لازم تعوَّض نفسك وتتمتع بالحياة.

- انت بس عليك بكام بدلة كده «شبابى» وكرافته مزهزهة وتروح «لكوافير» كويس حترجع آخر شباب.. انت فعلاً شباب لكن مش واخد بالك.

ورغم تشجيع «سمير» لعمه بالزواج بل بارك زواجه حتى الأرملة التى حدَّثه عنها رحَّب بها بل وأيَّده فى أنَّها الزوجة التى ستسعده وتعوَّضه الأيام الخوالى.. إلا أنَّ «أشرف» كان على نقيض ذلك.. لقد توجَّس خيفة من تلك

المرأة.. كان يرى أنَّ زواج عمه منها غير مناسب، فهى من «عجينة» أخرى غير عجينته.. إنَّها امرأة «سبور» تهوى «الشياكة» والمظاهر.. بينما عمه عاش حياته على نقيض ذلك.. منطويًا على نفسه.. متفانيًا فى إرضاء زوجته المريضة.. منكبًا على تعليمهما، وقد علَّق حياته الخاصة على الرف»!.. واعتبر «أشرف» أنَّ إصرار العم على الزواج هو عصيان لتقاليد الأسرة خصوصًا أنَّه يكبرها بأعوام كثيرة وأنَّ جمالها الأخاذ يثير التساؤل والدهشة فى علّة زواجها منه رغم أنَّ كفتى الميزان غير متعادلتين.. فبجمالها وصباها وأنوثتها الفيَّاضة تستطيع أن تتزوَّج الشاب المناسب لها.. أما وقد ألقت بشباكها على هذا النحو على عمه فقد وجدت فيه «صيدًا» ثمينًا أو بمعنى آخر هو «زواج مصلحة» بعد أن سال لعابها أمام ثروته وممتلكاته التى جمعها بشقاء عمره.

وتم زواجهما.. بارك الأخ الأكبر هذا الزواج وأبدى سعادته وترحيبه به فكل ما يسعده يجعله فرحًا يريد أن يرد له جزءًا يسيرًا من جميله عليه وعلى أخيه والمرحومة والدته.. لكنَّ الأخ الأصغر أصرَّ على تمرده ورفضه لهذه الزيجة وأعلنها صراحة وبملء فيه أنَّه رافض لهذه الزيجة غير المتكافئة.

ورغم أنَّ الأخ الأكبر كان متزوجًا ويقيم مع زوجته وابنه الصغير فى شقة بعمارة العم.. كان شقيقه الأصغر مازال يقيم مع عمه وزوجته، فقد أبى كرم العم وهو الذى اعتبره بمثابة ابن له أن يتركه ليعيش بمفرده بعد الزواج خصوصًا أنَّه كان قد تقدَّم لخطبة فتاة، وكان على مشارف عقد قرانه بها، فأيامه

– مع عمه – معدودات ريثما وهو يعدُّ شقة الزوجية ليعيش فيها.

كان الليل هادئًا عندما قطعت سكينته صرخات زوجة العم وهى تبكى بهيستيريا!

- زوجى اتقتل.. اتقتل وهو بيصلى.

كانت صرخاتها بلا وعى:

- أشرف قتل عمه.. أنا شفته بيقتله بساطور على رأسه وهو بيصلى.

تم إلقاء القبض على «أشرف» وهو لا يصدق هول ما حدث، واعتصم بالإنكار.

أكدت شهادة زوجة العم بتحقيقات النيابة أنَّها رأته وهو يهوى على رأس عمه وهو ساجد فى الصلاة بـ «ساطور» كان فى يده.

وكانت المفاجأة أنَّ شقيقه الأكبر شهد ضده أيضًا، وأكد صحة ما قررته زوجة عمه.

وأضاف فى التحقيقات أنَّ شقيقه ناصب عمه العداء منذ أن فكر فى الزواج بل وهدَّده أكثر من مرة وتوعَّده بأنَّه سيقاوم هذا الزواج ولن يسمح باستمراره.

واستطردت الزوجة مضيفة أنَّها نجت من الموت بأعجوبة.. إذ هوى عليها بالساطور عندما فاجأته وهو يرتكب فعلته الشنعاء ولكن من حسن

حظها اندفعت من أمامه وابتعدت وهى تصرخ فلاذ بالفرار.

وصدَّقت الأسرة خصوصًا بعد شهادة الأخ الذى اتهم أخاه بالقتل وأصـرَّ على ذلك، وأصرَّ الجميع على القصاص منه والثأر لدم هذا الرجل الـذى قتـل بلا ذنب على يد ناكر للجميل.. جاحد للمعروف.. ناسـيًا مـا بذلـه عمـه مـن تضحيات، وكيف أنَّه نذر حياته من أجل أمه المريضـة وتربيتـه أحسـن تربيـة وتعليمه حتى تخرج فى الجامعة هو وشقيقه.. أى وحشية هـذه؟ إنَّـه الضـمير الذى مات.. إنَّه الإحساس الذى تيبس.. إنَّه القلب الذى تحجَّر وتوحَّش فما عرفت الرحمة ولا الإنسانية إليه سبيلاً.

كانت تلك هى وقائع وأحداث القضية حسبما سطرت فى أوراقها.

كان علىَّ ابتداء أن أحرر أسبابًا للنقض أملاً في إلغاء الحكـم بالإعـدام لتتاح للمتهم فرصة المحاكمة من جديد أمام دائرة أخرى، وأسسـت أسـباب النقض على أنَّ هناك خطأً فى الإسناد ونقلاً من عيـون الأوراق يجـافى الثابـت فيها، إذ إنَّ شهادة الزوجة انصبَّت على أنَّها رأت واقعة الاعتـداء عـلى زوجهـا من المتهم، وقد أحال الحكم المطعون فيه فى خصوصية شهادة الأخ على مـا شهدت به الزوجة، حيث روى وشهد شقيق المتهم بمثل ما شهدت به زوجة المجنى عليه.

ولما كان فحوى حديث الأخ أنَّه حضر على صوت صراخ زوجة عمه وأنَّه لم ير واقعة الاعتداء على عمه.. بل سمعها من زوجته، ومن ثم فقد باتـت شهادته سماعية.. ورتوبًا على ذلك فإنَّ إحالة الحكم فى شهادته على أنَّه شـهد

بمضمون ما شهدت به الزوجة مفاده لزومًا أنَّه رأى بـدوره واقعـة الاعتـداء، وهو ما لم يقل به الأخ.. ولما كانت الأدلة في المواد الجنائية ضمائم متسـاندة يشد بعضها أزر البعض الآخر، بحيث إذا سـقط أحـدها أو اسـتبعد سـقطت الأدلة جميعًا لأنَّه لا يعرف مدى تأثير الدليل الفاسد أو المسـتبعد عـلى قناعـة المحكمة.. لما كان ذلك، فإنَّ الحكم المطعون فيه إذا اعتقد خطأ أنَّ الشقيق قد شاهد واقعة الاعتداء – وهو ما لا أصل له فى الأوراق – يكـون قـد أخطـأ فى الإسناد وأقام قضاؤه على ما يخالف الثابت بالأوراق مما يصمه بـالبطلان، إذ إنَّ الأحكام الجنائية يجب أن تبنى على أسس صحيحة فى أوراق الدعوى.

وتم نقض الحكم لهذا الوجه من الطعـن وتحديـد محاكمـة جديـدة للمتهم أمام دائرة أخرى.

حضرت معه مدافعًا أمام محكمة الجنايات

كان أول ما استوقف نظرى بعـد اطلاعـى عـلى أوراق الـدعوى عـدة أمـور.. أولهـا: عـدم العثـور عـلى أداة الجريمـة «السـاطور».. وثانيهمـا: أنَّ الصورة التى صوَّرت بها الشاهدة كيفية وقوع الجريمة حسبما رصدها وكيـل النيابة تفصيلاً في المعاينة التصويرية التي صوَّرت بها الشاهدة الحالة التي كان عليها المجنى عليه لحظة اعتداء المتهم بالساطور عليه أنَّه كان سـاجدًا أثنـاء الصلاة.. راكعًا على جبهته، ثالثًا: أن المتهم قام بضربه بسـاطور عـلى مـؤخرة رأسه.

غير أنَّ ما استوقف نظرى تعقيبًا على هذا التصوير ما جاء بتقرير الصفة التشريحية لجثة المجنى عليه.. إذ استخلصت منه الحقائق الآتية:

١) أنَّ الاعتداء أحدث تفتتًا بمقدمة الجبهة وهو ما يستحيل حدوثه مادام أنَّ المجنى عليه كان ساجدًا يصلى وجبهته على الأرض.

٢) أنَّ إصابات مقدمة الجبهة قطع الطبيب الشرعى أنَّها أحدثت تفتيتًا في عظام الرأس، وهو ما يحدث من الاعتداء بآلة راضة كعصا ولا تحدث فنيًا من الاعتداء بساطور يتعيَّن أن يخلف إصابات قطعية رضية.

من أجل ذلك طلبت من المحكمة طلبًا جازمًا.. مناقشة الطبيب الشرعى الذى أجرى تشريح الجثة والذى حضر بالجلسة في اليوم التالى..

وسألته:

- هل تبيَّنت من تشريح الرأس وجود إصابات بمؤخرة الرأس؟

فأجاب.. نفيًا وقال..

إنَّ الإصابة الوحيدة كانت فى الجبهة من الأمام.

فسألته.. عن الآلة التي أحدثت تلك الإصابة المتفتتة على النحو الذى بان له من تشريح الرأس وأثبته في تقريره.

فأجاب الإجابة التى كنت أتوقعها..

أنَّها حدثت من آلة رضية، وأنَّ الإصابة الرضية تحدث نتيجة ضربة أو ضربات على الجبهة بآلة رضية ثقيلة كقطعة حديد أو «شومة».

- وسألته.. وقد استبشرت خيرًا من هذه الإجابة.. قد كنت أبغى من هذه الأسئلة أن أصل إلى نتيجة، وكل سؤال أوجهه كان له مرمى أريد أن أصل إليه.. وأعلم سلفًا عن أبعاده من الناحية الفنية، فقد كانت خبرتى فى فن الطب الشرعى وأصوله من أنَّ الإصابة التفتتية التى تأخذ وضعًا مستعرضًا لا تحدث إلا من آلة راضة تأخذ شكلها على موضع الإصابة ولا يمكن أن تحدث من «ساطور».

وأعدت سؤال الطبيب الشرعى قائلاً:

- قررت الزوجة وهى الشاهدة الوحيدة أنَّ المتهم اعتدى على المجنى عليه أثناء سجوده بساطور، فهل من المتصور حدوث إصابات المجنى عليه التفتيتية بمقدمة الجبهة وفقًا لهذا التصوير؟

فأجاب:

- مستحيل طبعًا من الناحية الفنية، إذ إنَّه وفقًا لتصورها ما دام ساجدًا يتعيَّن أن تكون الإصابة بمؤخرة الرأس وليس بمقدمة الجبهة، كما أنَّه يستحيل أن تحدث إصابات الجبهة التفتيتية على النحو الموصوف بتقرير الصفة التشريحية بساطور وإنما يتعين أن تحدث بآلة راضة كعصا أو شومة غليظة، بينما إصابة الساطور تحدث إصابة قطعية رضية، هذا فضلاً عن أنَّه لا

توجد أية إصابات خلف الرأس.

وترافعت فى القضية.. لم تكن مرافعة طويلة.. بدأتها..

الآن حصحص الحق وانقشع الزيغ الذى كان يحول بين المتهم وبين الحقيقة المجردة.. لقد بان فرى الحديث وإفك الكلمة وفساد التصوير.. لقد ظهر جليًا أنَّ الزوجة كاذبة وأنَّ حديثها افتراء وبهتان مبين، وأنَّ الحقيقة لها صورة أخرى تعمَّدت الزوجة أن تخفيها، إنَّها تعلم علم اليقين أنَّ للواقعة صورة أخرى مغايرة تمام التغاير ومخالفة كل الاختلاف لهذا الادعاء الباطل على هذا البرىء.. فقد ثبت تناقض أقوالها وعدم مواءمتها مع الدليل الفنى وقولة أهل الفن وهو الطبيب الشرعى باستحالة حدوث الواقعة وفقًا لتصويرها، واستحالة أن تحدث إصابة المجنى عليه وهو ساجد ويكون موضع الإصابة مقدمة الرأس، بل وثبت أيضًا استحالة حدوث الإصابة من ساطور وإنما حدثت من آلة راضة كعصا أو شومة، والآن سطع نور الحقيقة على الواقعة التى قدّر لها على لسان الشاهدة أن تظلّ فى غياهب الظلم والظلمات.. آن للمتهم أن يحظى بحريته.. وآن لكم أن تنطقوا ببراءته.

وقضت المحكمة ببراءته.

لكن باب الحقيقة مازال موصودًا حتى الآن.. مغلقًا عليها.

وبات التساؤل الذى يحيّر بال الجميع ويقلق فكرهم..

- من القاتل إذا؟ ما الدافع الذى حدا به إلى قتل هذا الشيخ الطاهر النقى

الذى لقى ربه وهو ساجد؟

ما أقسى على ضمير الحقيقة وذمة العدالة أن يزال القاتل حرًا طليقًا.. وبات من المتيقن فى ضميرى أنَّ وراء مصرع المجنى عليه سرًا تخفيه هذه السيدة، ولكن ما هذا السر.. هل بعد أن أصبحت تحمل جنينًا منه ستكون بمولده هى المهيمنة والمسيطرة على ثروة زوجها، يكمن هذا السر بعد أن أصبحت هى المستفيدة وواضعة اليد على كل أملاك زوجها بلا منازع، ولكن ما الدليل؟

لقد علَّمتنى خبرة الحياة وعملى مع الجريمة والمجرمين.. ألا أطلق خيالى للظنون، كما علَّمنى تكوينى القانونى أنَّ الدليل يبنى بالجزم واليقين ولا يبنى على الفروض والاحتمالات المجردة.

ومرَّت الأيام والشهور وصورة أحداث هذه القضية بالذات لا تفارق فكرى وأنا أتساءل دائمًا بينى وبين نفسى.. ترى من القاتل؟ هل ستتركه عدالة السماء يرتع في الأرض فسادًا وهو القاتل الأشر.

لم تمض على حكم البراءة الذى حصلت عليه بالنسبة لأشرف حتى حضر إلى مكتبى وطلب منى أن أترافع فى قضية جديدة.

ونظرت إليه مستغربًا وأنا أتساءل:

- عن ماهية هذه القضية ونوع التهمة فيها؟

فابتسم ابتسامة لا تخلو من الأسى والحزن والحسرة وهو يقول:

- أخويا سمير متهم.

فسألته فى شوق عن التهمة الموجهة إليه..

فقال والأسى يتزايد فى داخله..

- لقد قتل زوجة عمه وطفلها الصغير.

وقدَّم لى «دوسيه» القضية، وقرأته على الفور والدهشة والفضول يملأ رأسى.. كانت أحداثها أكثر ضراوة وأسى من أحداث القضية الأولى، فقد قتل «سمير» زوجة عمه وابنها الطفل الصغير، واعترف اعترافًا تفصيليًا وصريحًا وواضحًا بأنَّه القاتل.. وأنَّه آثم لا غفران لإثمه.. ومذنب أمام نفسه.. وأمام عمه.. وأمام الأسرة والقانون.. ذنوبًا لا تطهّرها مياه المحيطات.

اعترف أنَّه سار فى طريق الغواية.. تعانق مع الشيطان عندما أحب هذه السيدة.. إنَّه العشق الذى يفهم خطأ بأنَّه حب.. عشق الجسد المجرد البعيد كل البعد عن الحب بمعانيه السامية المقدسة.. عشق فيها شهوة الجسد وبات أسيرًا له لا يستطيع أن يبتعد عنه، وهداه فكره الهزيل وقاده خياله العليل كى يحتفظ بجسدها إلى جواره — أن يزج بها فى طريق عمه، وهو يعلم أنَّ قلبه مازال بكرًا خصبًا ظمآنًا تواقًا إلى من يرويه، وزيَّن له الزواج منها وباركه ورعاه وأوهمه أنَّ ذلك عرفانًا لجميله وإسعادًا لنفسه التي عاشت مع

الحرمان.. وألقى فى روع عمه تحدى أخيه لهذه الزيجة.. ومحاربته لها أنانية منه واستكثارًا للسعادة التي أدخلتها تلك الزيجة في حياته.. وأنَّه هو الوحيد الذى يتفانى فى سعادته والإخلاص له.. ومرَّت الأيام وعمه «زوج على الورق» أما هو فهو الزوج الفعلى.

ويضيف فى اعترافه الذى يقطر ندمًا وخزيًا..

- وفى ذات ليلة فاجأتنى بأنَّها حامل، لقد حدث ما لم يكن فى الخاطر أو الحسبان.. ما لم يكن متوقعًا.. فعمى عقيم.. وهو يعلم ذلك جيدًا.. إنَّ الجنين الذى يدبُّ فى أحشائها ابنى! ما العمل؟ لابد من التصرف وبسرعة قبل أن ينكشف الأمر ويضيع كل شئ.. طلبت منها التخلص من الجنين منعًا للفضيحة ولكنَّها رفضت فأفصحت أنَّها تعمَّدت ذلك حتى تستولى على كافة ثروته ونعيش بعدها معًا في ثراء ورخاء وحب.. وإزاء إصرارها واقتناعى بفكرها هدانى شيطانى إلى ضرورة قتل العم.. كنت مسلوب الفكر.. منعدم الإرادة.. أسيرًا لملذاتى والمتعة الحرام معها.. زيَّنت لى فكرة الجريمة كى يخلو الجو لنا سويًا ونستولى على ثروة العم ونعيش بلا منغِّص، وتم تدبير جريمة قتل العم.. أنا الذى قتلته وضربته على رأسه وهو يصلى، ولكن تصوير الشاهدة فى الحادث قد تبدد أمام تفنيد الدفاع وإثباته براءة أخى «أشرف».. وولدت طفلاً هو ابنى، وما كان أحد يعلم بهذا السر غيرى أنا وهى.. فقد كان أخى الأصغر لا يعلم أنَّ عمى عقيم، كنت أنا الوحيد الذى لازمه أثناء كشف

الطبيب عليه وإجراء التحليلات التى أثبتت عقمه. تمرغت معها فى الحـرام.. كانت شيطانة بكل معنى الكلمة.. بل إنَّ كلمة شيطانة تتضاءل أمام أفعالها.

واستطرد فى اعترافه..

كان حديثه يقتر دمًا وهو يروى كيف هانت عليه حياة عمـه الـذى ربـاه.. قتله من أجلها.. بلغت به النذالة والحطّـة منتهاهـا عنـدما هانـت عليـه روح أخيه.. التى كانت قاب قوسين أو أدنى من حبل المشنقة بل وشهد ضده..

ومما زاد من حسرته وندمه بعد فوات الأوان أنَّها أنسته زوجتـه.. أهملهـا بل وأهمـل ابنـه الصـغير.. الـذى مـرض وتركـه دون عـلاج فريسـة لمـرض لالتهاب بسيط في الشعب الهوائية تفاقم بسبب عدم علاجه وتطوّر إلى التهاب رئوى حاد قضى على حياته..

لكن هل وقف إجرامها وفجرها عند هذا الحد؟

لقـد اكتشـف – فجـأة – أنَّ الأفعـى لا تكتفـى بلدغـة واحـدة، فقـد وجدت فريسة أخرى.. اكتشف أنَّها على علاقة برجل آخر تجـد متعتهـا معـه بعد أن بدأت تبتعد عنه تدريجيًا وتغيب عن المسكن في فترات طويلة وتعـود في أوقات متأخرة من الليل.. ورائحة الخمر تفـوح مـن فمهـا.. أحـسَّ بأنَّهـا طردته من حياتها ولآخر أمل راوده راقبها عن بعد.. فأيقن الحقيقة التي قتلتـه وأفاق من الوهم الذى عاش فيه.. انـتفض مـن بئـر خيانتهـا التـى تسـرى فى عروقها مسرى الدم.. أحـسَّ بأنَّهـا تـدبر لـه أمـرًا للخـلاص منـه.. واجههـا بخيانتها، بحبهما الذى حكمت عليـه بالإعـدام.. لكنَّهـا لم تعبـأ لمشـاعره..

لأحاسيسه التي حطَّمتها.. لمستقبله الذى أحسَّ بأنَّـه لا وجـود لـه بـدونها.. فهدَّدته بأنَّه إن لم يبتعد عن طريق حياتها وواصل مطاردته لها فإنَّها سوف تبلغ النيابة عن أنَّه هو قاتل عمه..

تمالك نفسه وهو يعضّ على بنانه من الندم ويقول:

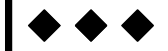
- هنا أفقت من غفوتى.. استيقظت من نومى وصحا ضميرى .. صدّقونى .. كان عندى من المثل والمبادئ والقيم قبل أن أعرفها ولكنَّها قبرت كـل ذلـك فى جسدها اللعين.. كانت شيطانة أغوتنى.. قررت وصـممت أن أطهـر نفسـى وأكفر ذنوبى وأثأر لعمى وأخى ونفسى وابنى الذى كانت سببًا في موتـه بسـببها ونفسى التى دنَّستها.. أن أخلص الناس من شرورها مهما كان الثمن.. لابد مـن قتلها وقتل طفل الخطيئة معها.. وبالفعل نفذت ذلك.. أحسست بأنَّ نفسى قـد اطمأنت وضميرى قد استراح.. والآن افعلوا بـى مـا شـئتم.. اعـدمونى.. فـإنَّ الإعدام أقل جزاء لمن يفتح الشيطان بابًا فى عقله وفكره.

ولم تمض أيام حتى حضر «أشرف» وقدَّم لى رسـالة طالبًـا منـى قراءتهـا.. رسالة من شقيقه سمير.. آخر كلمات كتبها قبل أن ينتحـر فى السـجن.. أنهـى حياته بنفسه بعد أن اعتذر وطلب الصفح من الجميع مقررًا أنَّه طهَّـر الأسـرة الشريفة من دنس أفعاله وطلب مـن الله الغفـران، وأنَّـه لم يطـق انتظـار حبـل المشنقة فآثر أن يعجل بحياته وقد باتت بلا ثمن ولا معنى.

بهاء الدين أبو شقة
المحامي بالنقض

القضية الحادية عشرة

الخيانة قتلت في الفجر



■ ■ الخيانة قتلت فى الفجر

جمعت بينهما صداقة طويلة منذ الطفولة فهما فى عمر واحد وأبناء قرية صغيرة فى صعيد مصر.. الشئ الوحيد الذى كان يجعل كل منهما مختلفًا عن الآخر أنَّ الأول سليل أسرة عريقة تملك كل ما يحيط بالقرية من أطيان زراعية، أما الثانى فهو ابن فلاح فقير يعمل أجيرًا في أحد الحقول المملوكة للأول.. ورغم أنَّ الفارق الاجتماعى بينهما كان كبيرًا فإنَّ المحبَّة والمودة والإخلاص جمعت بينهما.. قلوبهما الخضراء الصافية النقية أذابت جليد الفوارق الاجتماعية.. كان ابن الثرى يذهب إلى المدرسة فى البندر وهو يركب «الكرتة».. وابن الفلاح يركب الحمار.. لكن سرعان ما اتخذ ابن الفقير مكانه فى «الكرته» بجوار ابن الثرى.. ومنذ مراحل التعليم الأولى وهما يجتازان فصول الدراسة جنبًا إلى جنب حتى حصلا على الثانوية العامة وانتقلا إلى عاصمة الإقليم والتحقا بكلية الزراعة حتى نال كل منهما درجة



البكالوريوس، لم يكن الشاب الثرى فى حاجة إلى الوظيفة، ففى أملاك أبيه وأراضيه ما يكفيه، إذ إنَّ ما يحصل عليه «الخولى» فى مزارعه يربو عشرات المرات على ما يحصل عليه خريج كلية الزراعة فى أول عهده بالوظيفة.. لكن سرعان ما ترك الشاب الفقير الوظيفة تلبية لرغبة صديقه الثرى ليعمل بجانبه فى إدارة مزارعه ويشاركه فى مشاريعه فى تربية العجول والدواجن والخراف ومعمل الألبان، واستطاع الشاب بإخلاصه وجهوده وتفانيه فى العمل أن يضاعف ثروة صديقه.

ومضت بهما الأيام من نجاح إلى نجاح.. ومن تقدّم إلى تقدّم.. وتشعَّبت أنشطتهما الزراعية والصناعية حتى أصبحت مثار إعجاب واحترام وتقدير الجميع.. كان أشد ما يبهر القريب والبعيد عنهما ذلك الحب الذى جمع بينهما والإخلاص والتفانى.. كان كل منهما كظل الآخر يقرأ أفكاره من أول نظرة في عينيه.. ويقف على مكنون نفسه من ملامح وجهه.. كانا روحًا واحدة وفكرًا واحدًا وأملاً متصلاً اجتمعت جميعًا في جسدين.

وذات يوم قرر الصديق الثرى أن يكمل نصف دينه.. احتضن صديق عمره وزفَّ إليه النبأ السعيد، كان أول من زف إليه هذه البشرى.

وأخذ صديقه من يديه وقدمَّه إلى عروسه وهو يقول له.. إنَّها تعرف عنك كل شيء، فقد تحادث معها عن كافة تفاصيل حياتهما صغيرها وكبيرها حتى خيّل إليه من فرط حديثه عنه أنَّه يتحدث عن نفسه.. فقد كان حبه له وإعجابه بنشاطه وعمله وثقته في إخلاصه ووفائه له مالكًا عليه فكره

مستحوذًا على كل مشاعره.. ومن كثرة ومداومة حديثه عنه الذى لا ينقطع رمقته بنظرة قطعت عليه حديث الثناء.. أنا ابتديت أغير منه.. أنا باحبك وعاوزة أسمع كل صغيرة وكبيرة عنك انت وبس.

وفى حفل عرس الشاب الثرى كانت الفرحة قسمة بينهما.. ومضت بهما الحياة سعيدة هانئة يكسوها الحب والإخلاص والتفانى في العمل.. كان الزوج حتى بعد زواجه لا يفارق صديق عمره يظلّ معه طيلة اليوم.. فى عمل دائب ومستمر.. وفى المساء ظلَّ كما كان من قبل -حتى في وقت الراحة- يلازمه فى البيت.. كانت الزوجة تشاركهما فى تناول الطعام.. أما فى جلسات السمر فقد كانت تبدى ارتياحها وسعادتها بوجود الصديق معهما.. ولم تشعره بالغيرة من صديقه.. بل شجَّعته على ذلك.. كانت هي التي تداوم على دعوته لقضاء السهرة معًا بعد إعدادها واختيارها أشهى أنواع الأطعمة.

فى البداية لم يفسّر الزوج اهتمام الزوجة بالصديق كان يرى فيه أخًا وفيًا قبل أن يكون صديقًا.. لم يتسرَّب الشك إطلاقًا إلى قلبه.. حتى كانت تلك الأمسية التى كانت تجمع بينهم كالمعتاد وفى غمرة البهجة والسرور الذى كان يرفرف عليهم طلب الزوج من زوجته أن تبحث له عن «بنت الحلال» التى تؤنس وحدته، وأنَّ عليه أن يفكر في هذا الأمر جديًا قبل أن تسرق الأيام شبابه ويفوته قطار الشباب.. عرض عليه بعض أسماء فتيات في القرية إلا أنَّ زوجته قاطعته في عصبية غير معهودة منها وهى تحتبس كلماتها التي لم تستطع

أن تكتم معها عدم رضاها عن الفكرة قائلة:

- سيبه فى حاله.. انت مالك وماله.. خليه شايف شغله.. الجواز هيعطله ومصلحة الشغل تقتضى إنّه يتفرغ لشغله تمامًا في هذه الفترة.

بدأ الشك يلقى بظلاله على قلب الزوج لأول مرة والريبة تجد طريقها إلى فكره.. ولعبت الظنون بمخيلته والتي قذفت بالعديد من التساؤلات وهو يسترجع اللقاءات العديدة التي كانت تجمعهم.. حاول أن يجد لها إجابة واجتهد في أن يطرد الوساوس والهواجس التي بدأت في ملاحقته.. ولكنَّ تفكيره المتواصل في أن يجد تفسيرًا معقولاً ومقبولاً لما حدث عجز عن ذلك.

مضت الأيام وكأنَّها الدهر على فكره الذى احتله شبح الخيانة، فقد كان يرى في كل يوم من تصرفات زوجته ما يحمله بل يؤكد له هذا الاعتقاد.

رأى في صديق عمره الحميم غريمًا منافسًا في حبّ زوجته له.

ولكن ما حجم هذه العلاقة؟ وكيف بدأت؟ من الذى كان بادئًا؟ وما الذى توصَّلت إليه؟

راقب زوجته كثيرًا.. وأيقن أنَّها تجاذبه الحديث بعد أن منعه من الحضور إلى مسكنه سواء في غيبته أو في حضوره.

أدرك الصديق ذلك بحسه المرهف نحو صديقه.. ابتعد تدريجيًا عن لقائه في مسكنه.. واقتصرت أحاديثهما في أضيق الحدود في العمل فقط..

وشاع ذلك في القرية وأحسَّ الجميع بالفجوة التي اتسعت وازدادت عمقًا بين الصديقين وتسرَّب إليهما سر هذه الفجوة ولاكتها الألسنة كل حسب ما هداه إليه تخيله.. ولكنهم استقروا جميعًا عند نقطة واحدة.. الصديق هو الذى يطارد الزوجة.. يحبها.. يريدها أن تتخلص من هذا الرباط الذى يربطها بزوجها.. لا يطيق العيش أو الحياة بدونها.. أصبحت كل حياته وأمله في الوجود.

ولم يصدق أحد ذلك الخبر الذى انتشر فى البلدة وسرى مسرى النار المشتعلة في الهشيم.. الصديق الثرى أطلق الرصاص على صديقه الفقير.. استبدَّت الحيرة بالجميع وأطلقوا العنان لتخيلاتهم وتصوراتهم التي أجمعت على أنَّ الصديق الثرى عندما تأكد من مطاردة صديقه لزوجته ومحاولاته المتعددة العبث بأفكارها.. والتلاعب بمشاعرها.. أطلق الرصاص عليه ثأرًا للصداقة التي خانها وداس عليها ولم يرع حرمتها.

كانت تلك هى بداية الأحداث.. عندما بدأت تحقيق وقائع هذه القضية.. وأنا أعمل وكيلاً للنيابة العامة فى صعيد مصر..

وجاءت تحريات المباحث لتؤكد أنَّ الصديق الثرى الذى أطلق الرصاص على صديقه بقصد قتله وإبعاده تمامًا عن مجرى حياته.. كما أكدت أنَّ ما بدر من الصديق الفقير من أفعال وتصرفات طائشة كانت هي السبب.. لم يستطع مقاومة حبه لزوجة صديقه.. هام بها عشقًا.. أصبح مطاردًا لها في

كل مكان، أفهمها وأكد لها أنَّه على استعداد أن يفعـل أي شـيء مـن أجـل أن يحظى بحبها.. أن تبادله مشاعره.. أن تحس بنيران حبها التي تتـأجج في قلبـه وفكره وعقله.. لكنَّها كانت تصدُّه دائمًا وتـذكره بأنَّـه بالنسـبة لهـا بمثابـة أخ لزوجها وأنَّ عليه أن يطرد وساوس الشيطان التي اسـتبدت بـه وتـدفع بـه إلى هذه الأفكار والتصرفات التي تتسم بالجنون.. واضطرت في النهاية أن تشكو إلى زوجها.. أن يعمل على إبعاده مـن القريـة.. خاصـة بعـد الشـائعات التـي ترددت.. حفاظًا على حبهما واستمرارًا لحياة أسرية هادئة مستقرة تجمعهما.

رغم أنَّ الصديق الثرى أطلق العديد من الرصاصات على صديقه، إلا أنَّـه لم يفـارق الحيـاة.. كـان فاقـد الـوعى في المستشـفى اسـتعدادًا لإجـراء جراحات عاجلة..

وسألت الطبيب المختص عن إمكانية سؤاله..

فأجاب..

أنَّ حالتـه الصـحية لا تسـمح بمجـرد الكـلام.. بـل إنَّـه إذا تحـدَّث فحديثه لن يكون عن وعى وإدراك وإرادة حرة لأنَّه أعطى جرعة من المخـدر لتسكين آلامه استعدادًا للتدخلات الجراحية.

أمـا المـتهم فقـد لاذ بالصـمت ورفـض الحـديث سـواء بـالنفى أو بالاعتراف بالتهمة.

وعندما واجهته بتحريات الشرطة.

رفض الإجابة أو التعليق..

قمت بسؤال زوجة المتهم عن معلوماتها عن الحادث وعن الظروف والدوافع التي دفعت إليه.

ومثلت الزوجة وسألتها عن معلوماتها.. فجَّرت «قنبلة» لم تكن فى الحسبان.. قالت:

- زوجى.. قالتها.. «بنظرة ملؤها الحسرة والألم».. كان مخدوعًا فى صديقه.. غارقًا في الثقة فيه.. لا يصادر له فكرًا أو يرد له طلبًا.. لم يرع زمالة الدراسة ولا صداقة العمر.. لم يكن وفيًا أو أمينًا على «العشرة» التى جمعت بينهما.. أدخله منزل الزوجية كأخ.. وثق بلا حدود في إخوته.. لكن كان لى رأى آخر وحكم عليه منذ أول يوم قدَّمه لى في «الكوشة».. نظر إلىَّ وهو يضغط على يدىَّ نظرة ملؤها «الرغبة».. ظلَّت نظراته التي تشعُّ منها الرغبة تلاحقنى بلا استحياء.. وأنا أتجاهل ذلك.. وكثر تردده -دون سبب- على المسكن فى غياب زوجى.. وكثرت أحاديثه التليفونية المفتعلة.. مختلقًا أسبابًا واهية للحديث، حاولت أن أفهمه – بأسلوب مهذّب – رفضى واستهجانى لهذه التصرفات.. وأننى زوجة سعيدة كل السعادة مع زوجى الذى تزوَّجته عن حب وأعيش معه قصة حب وردية.. جنح به فكره الهذيل ونفسيته المريضة التي استحوذت عليها كافة أمراض الحقد والكراهية والضغينة، وفى بجاحة متناهية وجرأة بلا حدود أفصح لى أنَّه يحبنى منذ أن وقعت عيناه علىَّ وأنا فى الكوشة.. وأنَّه يعانى من عذاب الحب ولوعته.. لا

يطيق العيش بدونى بل رفض الكثير من الزيجات لأنَّها هي التي تحتل قلبه.

لقد تجسَّدت كل عواطفه وتبلورت كل مشاعره فى حب كبير استحوذ على قلبه.. حبَّه وهيامه لى.. طالما سهر الليالى الطويلة وهو يناجى صورتها ويسترحم قلبها أن تهون عليه عذابه.. وتخفف من آلامه.. أن تبادله نفس المشاعر.. أن تعيش معه قصة حبه الكبير.

استوقفنى حديث الزوجة مليًا وهى تعرض غرام هذا الفتى الولهان وكيف أنَّها تصدُّه وتنهره وهو مازال يطاردها.

كان من غير المعقول بل وليس من المقبول أن تستمر فى سماع قصائد الشعر فيها منه وعن عذاب وشدة لوعته من حبها خاصة وقد سألتها تأكيدًا للفكرة التى استبدت بى وهو عدم تصديق هذه الأقوال لعدم معقوليتها عن المدة التى استمرت فيها مطارداته لها، فقررت أنَّه منذ بداية زواجها التى قاربت سنتين.

واستطردت الزوجة:

ولما يئست من مطارداته وحفاظًا على رابطة الزوجية بينى وبين زوجى الذى أحبُّه كثيرًا.. وقد أعيتنى الحيل في صدِّه ولكنّه لم ييأس مستمرًا في محاولاته الطائشة.

أخبرت زوجى بضرورة طرده من العمل ومن القرية.. أنَّه كان مخدوعًا في صداقته.. إنّ قلبه ملء بالحقد والنقمة عليه.. فمازال شبح الفقر يتراقص

أمام عينيه ويحتّل فكره وقلبه ويستحوذ على كافة مشاعره فيترجمها بـلا وعـى إلى أفعال وتصرفات حاقدة وناقمة حتى بالنسبة لمن كان سندًا وسـببًا في هـذا النعيم الذى يعيش فيه وهذا المركز الذى يحتله.

وذات ليلة رنَّ جرس التليفون.. كنت أتحاشى الـرد لكثـرة مطارداتـه وفى تثاقل وتردد قمت بالرد.. كان على الطرف الآخر ذلك الصديق.. كان حديثـه حديث مجنون فقد عقله والسيطرة على وعيه وإدراكه.

قرر بنبرات صوت أيقنت منها الثقة والتصـميم أنَّـه في النهايـة توصَّـل إلى الحلّ الذى سيقربه منها.. ينهى عذابه ويضع حدًا لآلامه.. إنَّ النيران تشـتعل في داخله لمجرد تخيّله أنَّها بين أحضانه.. لابد أن تكون له وحـده دون غيـره حتى ولو كان زوجها. لقد جمع شتات فكره وانتهـى إلى قـرار لا رجعـة فيـه.. سيقتل زوجها.. سيتخلّص منه.. ليخلو لهما الجو معًا.

ووضع سماعة التليفون..

شلَّ فكرى وطار صوابى ووجدت نفسـى أشـعل سـيجارة تلـو الأخـرى لأول مرة في حياتى.. كان موقفًا مفاجئًا ما كان يخطر لى ببـال خطيـرًا.. حيـاة زوجى في خطر أمام هذا الفكر الطائش المتهور فاقد الصواب.

هل أقوم بإبلاغ الشرطة عن كل ما حدث منه وعن تهديده بقتل زوجى..

وقطع هذه الأفكار المتلاطمة عودة زوجى من العمل.

أحسَّ للوهلة الأولى بما أعانيه وهو يلحظ سيجارة مشتعلة في يـدى لأول مرة وأعقاب السجائر تملأ «الطفاية».

فسألنى في دهشة وعصبية وحيرة ممزوجة بالقلق الذى استبد به.

أجبته.. وجسدى يرتجف لا أملك السيطرة عليه.

آخر ما كنت أتصوره حصل.. صديقك صمم أن يقتلك..

وقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها.

امتلأ وجهه بحمرة الغضب.. واحمرت عيناه وكأن الشرر يتطـاير منهمـا.. وأسرع إلى مكتبه وأخذ مسدسه وأطلق ساقيه للريح رافضًا كافة توسلاتى لـه بعدم الخروج.

وعاودت سؤالها:

هل يفهم من ذلك أنَّ زوجك هو الذى أطلق الرصاص عليه؟

فأجابت فى حدّة وعصبية وقد ازداد حنقها وغضبها..

- ما فعله يستحق عليه الموت.. بل إننى شخصيًا فكرت بينى وبين نفسى كثيرًا في كيفية الخلاص من هذا الكابوس الذى كان جاثمًا على أنفاس حبنا.. الذى هـدد مسـيرة حياتنـا.. المـوت مصـير لأمثالـه الـذين يقـابلون الحـب بالكراهية والوفاء بالغدر إنَّه مريض نفسيًا تستبد به عقـدة الفقـر وتحـرك فيـه رغبة لا يستطيع أن يقاومها وهي الحقد.

واستدعيت الزوج وواجهته بـأقوال زوجتـه ولكنَّـه أصـرَّ عـلى الصـمت أيضًا.. كان شاردًا مذهولاً وكأنَّه يعيش أحداث «كابوس» مزعج لم يصح منـه بعد.

وطلبت من الطبيب المعالج للمجنى عليه بعد عدة أيـام مـن الجراحـات التي أجريت له والعلاج الطبي الذى أعقب ذلك.. موافـاتى بإمكانيـة حديثـه بتعقل بعد إفاقته من العملية التى أجريت له واستخراج رصاصتين كانتـا عـلى وشك النفاذ إلى قلبه.

ومرَّت أيام واتصل بى الطبيـب المعـالج والـذى أفـاد أنَّـه يمكـن سـؤال المجنى عليه، فقد تحسَّنت حالته ويمكن أن يجيـب وبتعقـل بعـد أن اجتـاز بسلام مرحلة الخطر بل وكتبت له الحياة من جديـد، فقـد نجـا مـن المـوت بأعجوبة.

وانتقلت إلى المستشفى وقمت بسؤاله..

كانت المفاجأة التى لم أتوقعها بل والتى لا تخطر على بال أحد.

أجاب المجنى عليه بصوت خفيض يمتلأ صفاءً ومودة.. عن سـؤالى عـن كيفية حدوث إصابته ومن الذى أحدثها..

- كان صديق عمرى ينظف المسدس المرخص له به عندما انطلقت منـه رصاصتان دون قصد وأصابتنى..

فواجهته بتحريات الشرطة وأقوال زوجته.

فأكد أنَّ الرصاصتين انطلقتا منه وهـو ينظـف المسـدس وأنَّـه هـو الـذى انحرف بجسده فجأة فأصابته الرصاصتان وأنَّ ما جمع بينهما من صداقة العمر يستحيل معه مجرد التفكير في أن يكون قاصدًا إحداث إصابته أو أن يمسه أي مكروه.

كانت إجابته قاطعة ومصممة على براءة صديقه.

لم يكن أمامى أمام حديث المجنى عليه وتصميمه على نحو مـا سـلف وخلو القضية من أدلة تؤكد أنَّ إصابات المجنى عليـه كانـت عـن عمـد وأنَّ إطلاق النار كان بقصد إزهـاق روحـه.. سـوى حـديث التحريـات وهـى لا تصلح بحد ذاتها أن تكون دليلاً صالحًا للإدانـة.. بـل لابـد مـن دليـل يقينـى تعززه التحريات كقرينة وحتى حديث الزوجة لا يرقى إلى مرتبة الـدليل إذ إنَّ مجرد خروجه منفعلاً وهو يحمل مسدسه المرخص لا يكفى كـدليل لثبـوت التهمة أمام حديث المجنى عليه الذى نفى مجرد قصد المساس بجسـده وأنَّ الأمر لا يعدو أن يكون حدثًا عارضًا كـان هـو السـبب في أن تجـد الطلقتـان طريقهما إلى جسده بعد انحرافه فجأة في مسار هاتين الطلقتين.

وإزاء ما سلف صدر قرار بـألا وجـه لإقامـة الـدعوى الجنائيـة.. أى بالأسلوب الدارج «حفظ القضية».

مرَّت الأيام.. ترك الصديق الفقير «الجمل بمـا حمـل».. غـادر البلـدة

وبحث عن عمل جديد فى بلدة نائية ليبدأ حياة جديدة تاركًا وراء ظهره كل ذكريات الماضى بحلوها ومرها..

كانت أضواء الصباح في طريقها إلى أجواء القرية الهادئة عندما قطع الصمت أصوات سيارات الشرطة والإسعاف تحيط بمسكن الصديق الثرى.. تم نقله بسرعة إلى المستشفى لإجراء إسعافات عاجلة والقبض على زوجته وسائقه الخاص.

بدأ اتصال الشرطة بالواقعة عندما تقدَّمت خادمة الزوجة ببلاغ إلى الشرطة طلبت فيه أن يتسم إبلاغها بالسرية خوفًا على حياتها من الزوجة.

تضمن بلاغها أنَّ الزوجة طلبت منها معونة زوجها الذى خرج حديثًا من السجن متهمًا في قضية إحداث عاهة مستديمة بأحد الأشخاص.. أن يقتل زوجها مقابل مبلغ كبير من المال.. وقادها شيطانها إلى تدبير وسيلة وكيفية القتل في أن يصدمه بسيارته وهو في طريقه إلى البندر لشراء مستلزمات عمله.. وتصوّر الحادثة على أنَّها قتل خطأ.

استرابت الخادمة وخشيت على حياة الزوج وسايرتها في خطتها الآثمة وقامت بإبلاغ الشرطة التي استأذنت النيابة لمراقبة التليفونات الخاصة بها.

كانت المفاجأة عندما أسفرت المراقبة التليفونية عن علاقة آثمة تجمعها مع السائق الخاص بزوجها.. كان على علاقة حب به قبل زواجها.. كانا يعدان للزواج عندما التقت به في أحد مصانعه عاملة فقيرة، بانت ملامح الفقر

والعوذ على شكلها ومظهرها.. أعجب بها.. وأحبَّ فيها البساطة.. كـان رأيـه أنَّ الحب كفيل بأن يذيب الفوارق الشاسعة بينهما..

تزوَّجها.. أوهمته بحبها.. بأنَّه أول رجـل يغـزو قلبهـا.. أكبـرت فيـه هـذا التواضع الجم.. وخصوصا بعد أن علمت بصـداقة العمـر وكيـف أنَّـه محـا الفوارق وشطبها من قاموس فكره.

لكنَّ قلبها وفكرها وعشقها كان لهذا الميكانيكى الذى ارتبط قلبها به.

قدَّمته إلى زوجها كسائق أمين.. وثق به.. عامله أحسـن معاملـة.. هيـأ لـه غرفة في بدروم الفيلا التي يقطن بها.

أسفرت المراقبات التليفونية عن تبادلها الحديث التليفونى مع السـائق.. تخطيطهما لقتل الزوج والاستيلاء على أمواله.. سـجَّلت المحادثـات رفـض الخادمة تنفيذ مخططهما.. هداهما تفكيرهما إلى وسيلة لقتلـه لا تتـرك أثـرًا أو دليلاً.

كان زوجها يتناول قبل نومه كوبًا من اللبن يبتلع معه قرصًا من الأقـراص المنومة كى ينام نومًا عميقًا هادئًا يعوّضه ما يبذله من جهد في عمله.

كان تناوله هذا المنوم بناء على روشتة طبية كتبها طبيبه المعـالج كـى ينـام هادئًا طاردًا من فكره كابوس الماضى.

اتفقت الزوجة مع عشيقها على إحضار المنوم ذاته ودسه في كـوب اللـبن بكمية كبيرة كفيلة لإنهاء حياته فورًا.. وتصوّر الوفاة عـلى أنَّهـا نتيجـة طبيعيـة

لتناوله جرعة زائدة تساعده على النوم السريع.

استمعت الشرطة للمكالمة الأخيرة التي تم فيها عقد العزم والتصميم على وضع الأقراص المخدرة في كوب اللبن للزوج.

وبالفعل تم لهما ما أرادا وغط الزوج في سبات عميق.

انتظرا حتى الصباح للإعلان عن وفاته.

لكنَّ الشرطة مصحوبة بسيارة إسعاف مجهزة بها طبيب بعد سماع المكالمة سارعوا لإنقاذه وإلقاء القبض عليهما.

تم نقله إلى المستشفى وأجريت له الإسعافات السريعة اللازمة وانتهى التقرير الطبي الشرعى بعد تحليل السوائل التي تم استخراجها من أمعائه أنَّ كمية المنوم كانت كبيرة وكفيلة بقتله لا محالة لولا كوب اللبن الذى دسّ فيه المنوم، فقد أبطل اللبن مفعول سرعة تعامل المنوم مع جسمه والتعجيل بوفاته.

لم يصدق الزوج بعد إفاقته وعودة الحياة إليه ما سمع.. أحسَّ أنَّه يحلم حلمًا مزعجًا يريد أن يصحو منه ولكن تلك هي الحقيقة المؤلمة التي عليه أن يواجهها.

تم سؤال الزوجة..

أدركت أنَّه لا سبيل أمامها سوى أن تعترف بالحقيقة.

الحقيقة التي كتمتها في نفسها المتآمرة المتمردة.

رغم أنَّ الأيام فتحت لها أبواب السعادة على مصراعيها إلا أنَّها آثرت أن تمضخ نفسها في أوحال الرذيلة.

أخذ بيدها.. انتشلها من الفقر.. أعطاها قلبه.. منحها اسمه.. ولكن غلب عليها فكر الخيانة والتدنى.

حاول أن يرتفع بها.. ولكنها آثرت أن تظل في القاع.

اعترفت أمام المحقق..

- لقد فات الأوان.. لقد ضاعت كل آمالى وأحلامى، أن أستولى على أموال زوجى لأعيش بها حياتى الخاصة مع من أحب.. لابد من أن أعترف بالحقيقة.. ده ذنب الراجل اللى أنا ظلمته.. كان عنده أخلاق.. أخلاق كبيرة قوى.. كان محترمًا بلا حدود.. قابل اتهامى له وظلمى بأخلاق نبيلة.. رفض أن يقول الحقيقة.. الحقيقة اللى حا أقول عليها دلوقت علشان أرضى ضميرى.

كانت أنفاسها لاهثة وهى تردد كلماتها فى تثاقل، وقد كسا وجهها اصفرار فسَّرته لحظتها على أنَّه الخوف من المستقبل المجهول الذى ينتظرها والخزى والعار الذى سيلاحقها إلى الأبد..

سألتها استيضاحًا..

ماذا تقصد بالرجل الذى ظلمته؟

قالت والصفرة تزداد غمرًا لوجهها والندم يفوح من حديثها:

- إنَّه صديق زوجى الذى اتهمته زورًا ودبَّرت خطة الخلاص منه.. أن أدفع زوجى إلى الشك فيه.. أدخلت في اعتقاده أنَّه يراودنى عن نفسى.. يريد أن يقتله ليخلو له الجو ونتزوج سويًا.

وبالفعل صدق زوجى وغلى الدم في عروقه وطاش فكره وحمل مسدسه بالفعل وتوجه إليه وأطلق عليه الرصاص قاصدًا من ذلك قتله.

كان الصديق حافظًا للعهد راعيًا للصداقة.. أقسم أنَّه لم يمسسنى ولو بنظرة واحدة وأنَّ كل ما ألصقته به كان كذبًا.. أنا التى روَّجت لشائعات مطاردته لى.. أنا التي دبَّرت هذا السيناريو كى يقدم زوجى على قتل صديقه ويدخل السجن وأستولى على أمواله ويخلو لى الجو مع السائق.

وختمت حديثها والكلمات تخرج من فمها بطيئة متثاقلة:

- طمع الدنيا، الجشع، عدم الرضا والقناعة.. صحيح المثل «الإنسان ميملاش عينه غير التراب».

وأغمضت عينيها وهى تردد كلماتها الأخيرة..

أنا حاسة إنّى باموت.. لقد تناولت جرعة سامة كنت أحتفظ بها خلسة في طيات ملابسى عند إلقاء القبض علىَّ..

إننى أخرج من الدنيا بلا شيء، لا أحمل معـى سـوى أوزارى وأخطـائى.. وكل ما أطلبه أن يصفح عنى من غدرت بهم في لحظة مات فيها ضميرى.

دعت الله بالمغفرة وأسلمت روحها إلى بارئها.

أما زوجها فقد انطلق بعد شفائه يبحث عـن صـديق العمـر.. بحـث عنـه طويلاً حتى عثر عليه وقصَّ عليه القصة مـن أولهـا إلى آخرهـا.. وأنهمـا كانـا ضحيتين لتلك الزوجة اللعوب وطلـب منـه نسـيان الماضـى وأن يعـودا إلى صفحة الماضى قبل أن تلوثها دنايا تلك الزوجة.. حياة ملؤها الحـب والثقـة والاحترام.

نظر إليه مبتسمًا وقال..

يمثل فى ذهنى قصة قرأتها فى الأساطير القديمة.. إنَّها قصة «الزمار» الـذى ضاقت به السبل واستبد به شظف العيش، وأمسـك بمزمـاره وجلـس تحـت شجرة يطلق أنغامه، وإذ بحية تخرج من جحرها أسفل الشجرة ترقص طربًـا، وكلما ازدادت نغماته ازدادت طربًا ورقصًا.. ومن فرط إعجابهـا قـذفت مـن جوفها «جوهرة» فتلقفها «الزمار» وحلَّ بها أزمتـه الماليـة.. وظـلَّ عـلى هـذا الحال بين الحين والآخر يتردد على الحية.. هو يشدو بمزمـاره وهـى تتمايـل رقصًا وطربًا وانسجامًا تقذف له فى كل مرة جوهرة.. تبـدل حـال الزمـار مـن فقر إلى غنى.. ومن عذر ومعاناة إلى ثراء وغنى، والكـل لا يـدرى ولا يعـرف سر هذا الثراء الذى هبط عليه، حتى كان ذلك اليوم الذى مـرض فيـه مرضًـا شديدًا.. وعندما طال مرضه استأمن ابنه على سـره وطلـب منـه أن يتوجـه إلى

ذلك المكان مستودع سر سعادته..

وبالفعل توجه الابن مرة تلو الأخرى.. هـو يشـدو بمزمـاره والحيـة تتمايل بجسدها طربًا ورقصًا وتمـن عليـه فى النهايـة بعطيتهـا المعتـادة التـى كانت تمنحها لوالده من قبل.. ولكن في لحظـة اسـتبد الطمـع بفكـر الشـاب وملك عليه عقله وأعمى عينيه وقد أحسَّ أنَّ والده قد شـارف عـلى الشـفاء.. وراوده فكره الجشع فى الحصول على كـل مـا تختزنـه الحيـة في جوفهـا مـن جواهر.. عليه أن يحصل عليه مرة واحدة.. ففكر ودبَّر فى نفسه أمرًا.. وتوجه إليها كالمعتاد وأطربها بنغمه وتمايلت رقصًا إلا أنَّه كان قد أعدَّ العـدة لقتلهـا ليحصل على الجواهر مرة واحدة قبل أن يشـفى أبـوه.. كـان قـد أعـدَّ العـدة وجهَّز قطعة من الحديد أخفاها بين طيات ملابسه انهال بها فجأة على الحيـة.. ولكن ضربته التى وجهها إلى رأسها أخطأتها، وأصابت ذنبها فقطعته وأفرغت سـمها فى جسـده فمـات لتـوه.. حـزن الأب عـلى ابنـه حزنًـا شـديدًا.. ظـن المحيطون به أنَّه سيقضى عليه لا محالة.

لكن الزمن أنساه تدريجيًا مأساة ابنـه.. وبـدأ يفكـر في لقمـة العـيش مـن جديد فحمل مزماره وتوجه إلى الشجرة وبدأ يصنف نغماته.. لم تشجن الحية لنغماته هذه المرة.. لم تخرج إليه كالمعتاد.. أطلت برأسها فى حذر وناشـدها طالبًا منها الخروج لترقص على نغماته كما كان يحدث في الماضى.. ولكنَّهـا رفضت.. وعندما استفسر منها عـن سـر هـذا الـرفض.. وأنَّ عليهمـا نسـيان الماضى والنظر إلى المستقبل.. أجابت بأنَّ الود الذى كان بينهمـا والصـداقة

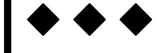
التى كانت ترفرف بظلالها عليهما والحب والثقة الذى كان يجمع بين قلبيهما قد انتهى لأنَّ ما قاساه كل منهما كفيل بأن يمحو ذلك إلى الأبد.. فكل منهما له ذكراه الأليمة التي تستعصى على النسيان.. فلن ينسى هو موت ابنه.. كما لن تنسى هى قطع ذيلها.. لقد انتهى عهد الصداقة وعصر الثقة بينهما وكل منهما خرج من هذه المأساة مثخنًا بالجراح.. وأشاحت برأسها وتركته ودخلت جحرها.

أدرك الصديق معنى الحديث وفهم مضمون الرسالة.. تعانق الصديقان وعاد كل منهما.. كل فى طريق.

بهاء الدين أبو شقة
المحامي بالنقض

القضية الثانية عشرة

الذئب والحمل



■ ■ الذئب والحمل

وقعت أحداث هذه القضية فى أقصى صعيد مصر، كانت أحداثها مثيرة بشعة تمتزج فيها الدهشة بالغرابة والحيلة.

كانت الخسة والنذالة.. تحجر القلب والوحشية التى لا حدّ لها ولا وصف.. هى الإطار الذى حوى أحداث هذه القضية.

كان رجلاً بالغ الصرامة والقسوة.. طغى جبروته على فكره.. واستبدَّ عنفه بعقله.. كانت له سطوة ورهبة بين أهل قريته كان مرهوب الكلمة لا يستطيع أحد أن يرد له قولاً أو يعصى له أمرًا.. عرف الجميع عنه أنَّه رجل بلا قلب.. أو وحش كاسر بلا فكر ولا مشاعر.. مات قلبه وانعدمت أحاسيسه وفارقت الرحمة قلبه.. له باع طويل فى الجريمة والإجرام.. كانت جرائمه كثيرة كعدد حبات الأرز، ومع ذلك فما كان بمقدور أحد كائنًا من كان فى قريته الوقوف فى وجهه أو الشهادة ضده فى أى جريمة من جرائمه حتى ولو رآه رؤية العين وارتكبها في وضح النهار.. لم يتحرك قلبه من قبل أمام



أى امرأة.. فلم يعرف الحب طريقًا إلى قلبه.. رغم أنَّه كان «زير نساء».. عاشقًا لأجسادهنّ.. إلا أنَّ مغامراته كانت ماجنة بعيدة كل البعد لا خلق ولا مبدأ لها غير النزوة المجردة والبوهيمية المطلقة.. ولم يتحرك قلبه الصخرى إلا أمام هذه السيدة.. كان قلبه أمامها ضعيفًا واهيًا خافقًا لأول مرة في حياته، فرغم أنَّ من قابلهنّ فى حياته لم يحركن شعرة فى رأسه.. إلا أنَّ تلك المرأة هزَّته بعنف وغزت قلبه واستولت على فكره.. وأصبح ذلك الجبل أمامها ذرة من الرمال.. طفلاً وديعًا.

كانت هذه السيدة زوجة لعامل أجير فقير، وكعادته دائمًا الاستيلاء على ما فى يد غيره واقتناص وغصب ما لا حقَّ له فيه.. جرَّب كل الحيل أمامها فلم يفلح.. راودها عن نفسها كثيرًا وطاردها ليلاً ونهارًا علَّه يصل إلى قلبها ولكنَّه لم يحقق مراده، وباءت كل محاولاته بالفشل.. وفى كل مرة حاول فيها الظفر بها كانت تصدُّه.. وفى المقابل كانت النار تتأجج بين ضلوعه وطول التفكير فيها ينهش فى قلبه.. وشوقه إليها وحبُّه لها سهام تغرس فى قلبه وتدمى فؤاده.. كان بمقدوره أن يصل إلى مراده بجبروته وعنفه كما حدث مع الكثيرات قبلها.. وكلما نشطت هذه الفكرة في عقله أو ارتسمت في مخيلته طردها من عقله على الفور ولفظها من مخيلته بلا تردد.. رأى فيها صورة ونوعًا جديدًا من النساء.. ورغم أنَّ جميع النساء كنَّ يحلمن بالظفر به لفحولته الطاغية وأمواله التى استحوذ عليها من نهب العباد إلا أنَّه رأى أنَّها من عجينة خاصة.. وباءت كل أحلامه ومحاولاته بالفشل بأن تقع هذه العجينة بين أسنانه.. ولم تكن أمامه بعد

أن طال انتظاره وعندما أعيته الحيل والأفكار لم يكن أمامه من وسيلة سوى الشر الذى سيطر على أفعاله.. وكان حلاً لأى مشكلة تواجهه.

هداه شيطانه إلى استدعاء زوجها وتهديده وتوعده بالثبور وعظائم الأمور إن لم يطلقها.. وعلى طريقة العصا والجزرة نجح فى مراده.. أجبر زوجها على تطليقها وتزوَّجها.. وأشاع فى القرية أنَّ زوجها قد غدر بها وأنَّه قبض ثمن طلاقها وساوم فى الثمن.. ولكنَّ محبوبها الجديد لم يبخل من أجل عينيها، بل ودفع أكثر مما طلب.. وشربت زوجته وأهل القرية تلك «التمثيلية» الدنيئة، واقتنعت بنذالة مطلقها وعاشت فى مملكتها الجديدة ملكة غير متوجة بعد أن وضع قلبه بين يديها وماله وفكره وعقله رهنا لإشارتها.. لم يبخل عليها بشىء.. انسابت الأموال بين يديها.. أحضر لها أغلى الملابس وأفخر أنواع العطور.. ووضع تحت إمرتها العديد من الخدم حتى يعوِّضها عن حياة الفقر والحرمان التى عاشتها من قبل.. قلبه الصخرى تحول إلى عجينة طيّعة بين أناملها تشكلها كما تريد.. وزادت سعادته عندما دبَّ أول جنين له بين أحشائها.. أحسَّ بالندم لما فاته فى صدر حياته وهو يعيش حياة العبث واللهو والمجون، وصمم –وهو يحوم حول الخمسين من عمره– أن يكرس حياته لأسرته وأن ينفض غبار الماضى حتى يفتح ابنه عينيه على صورة مشرفة لأبيه.

ولكن فرحته لم تدم وسعادته لم تستمر.. كان القدر له بالمرصاد وكأنَّه أراد أن ينتقم لماضيه.. فقد اختفت زوجته فجأة وهى فى شهرها السابع من الحمل، وبحث عنها فلم يجدها.

وبعد طول بحث تم العثور عليها قتيلة فى مكان مهجور مـن القريـة.. قتلت بطريقة بشعة ثم سكب عليها «البنزين» وأشعلت فيها النار.

كان واضحًا -منذ الوهلة الأولى- لرجال الشرطة الـذين انتقلـوا فـور الحادث وعاينوا مسـرح الجريمـة.. أنَّ قتلهـا كـان مـدبرًا وأنَّ هنـاك قصـدًا مصممًا عليه لإزهاق روحها.. وإحراق جسدها.. إذ إنَّه مـن البـادى للوهلـة الأولى أنَّ إعداد القاتل «للبنزين» وإحضـاره في هـذا المكـان كـان مقصـودًا، حيث تبيَّن من التحقيقات أنَّه لا حاجة ولا ضـرورة لوجـود البنـزين في تلـك العشة المهجورة التي لا يقطن فيها أحد، كما أنه ثبت بسؤال صاحب الأرض التي وقع فيها الحادث أنَّـه هجـر تلـك الأرض منـذ فتـرة جـاوزت السـنتين لمرضه وأنَّ العشة كان قد شيَّدها وسط أرضه ليستظل بها عنـدما كـان يـزرع الأرض.. أما وقد هدَّه المرض ولن يجد من يقوم بفلاحتها فقـد تركهـا عـلى هذه الحال خاوية على عروشها لا يقربها أحد.

كانت بشاعة الجريمة على النحو الذى تم فيه العثور عـلى الجثـة وقـد تفحَّمت تمامًا أنَّ القصد من ارتكابها هو الانتقام من نفس متعطشة إلى إشـفاء غليلها وإطفاء نار غيظها التي جرَّدت القاتل من أية أحاسيس أو مشاعر ليقتل امرأة وهى تحمل في أحشائها جنينًا أفصح انتفاخ بطنها عنه.

ولكنَّ السؤال الذى طرح نفسه: من القاتل الذى تحجَّر فؤاده ومـات ضميره فارتكب جريمته في لحظة غاب عنه ميزان العقل..

كما أنَّ السؤال الذى يطرح نفسه بقوة ولابد من إجابة سريعة ومقنعة:

لماذا ذهبت المجنى عليها إلى هذا الفضاء العريض، إلى تلك الأرض البور التي لا تطؤها قدم.. ولماذا ذهبت إلى هذا العش المهجور.. وهل كانت بمفردها أم كان معها أحد آخر.. ومن هذا الشخص.. ولماذا ذهبت معه.. وهل كان ذهابها معه اختيارًا أم اجبارًا..

كانت تلك الأسئلة الحائرة الباحثة عن جواب تحتّل فكر سلطات التحقيق في القضية سواء الشرطة التي نشطت بحثًا أو وكيل النيابة الذى باشر التحقيقات.

لم توصد سلطات التحقيق أي باب للاحتمال إلا وطرقته، فقد كان من الأسئلة المحيّرة التي تبحث عن إجابة.. ما الكيفية التي تم بها قتل المجنى عليها.

هل تم قتلها بالاعتداء عليها أولاً.. وما الآلة التي استخدمت في الاعتداء.. ثم لماذا تم سكب البنزين عليها لإحراقها..

هل تم سكب البنزين لتشويه معالمها وعدم التعرف على شخصية الجثة أم أنَّ القصد هو الإمعان في الانتقام منها.

هل تم ارتكاب الجريمة بأكملها داخل العش أم أنَّ القتل كان في مكان آخر ثم تم نقل الجثة بعد قتلها إلى ذلك المكان الخالى، حيث تم إشعال النار بها.

كان لابد من الوصول إلى إجابات لهذه الأسئلة التى تقف أمامها علامات استفهام عريضة ومحيّرة.

حامت الشبهات في البداية حول اثنين.

الزوج الحالي.. والزوج السابق.

حامت الشبهات حول زوجها الحالي وكان من الدلائل التي ترجح لهذه الشبهات ما عرف عنه وما اشتهر به من تحجر العواطف وتيبس القلب واستهانته بالنفس البشرية.

لكنَّ هذا الاحتمال ما لبث أن تبدد أمام ما توصَّلت إليه تحريات الشرطة أنَّه كان محبًا لزوجته محققًا لكل رغباتها.. كان سعيدًا فرحًا يعد الأيام والليالى ليملأ عينيه بابنه الذى طال انتظاره.. كان يعدُّ العدة للاحتفال بأعظم وأسعد حدث في حياته المليئة بالآثام والشرور.

لكنّ سجله الحافل بالجريمة بكافة أنواعها.. بشخصيته المتمردة الشرسة.. التي تجنح دائمًا إلى العنف غير المستقرة لم تستبعد هذا الاحتمال نهائيًا.

هل اكتشف فجأة علاقتها بآخر فساورته أفكاره وظنونه السوداء أنَّ الجنين ليس من صلبه.. فلم يتردد في قتلها هي والجنين ومثَّل بجثتها وأخفى معالمها كى يتعذَّر التعرف على صاحبتها.

نشط رجال الشرطة في البحث والتحرى وقد بات هذا الاحتمال متزايدًا أمام ما اشتهر عنه من قسوة وعنف، أمام شخصيته المستبدة المتعطشة دائمًا للدماء التي تستهين بأى عزيز مهما كان إذا بدر منه ما يمس هيبته وجبروته.

لكنَّ التحريات جاءت مخيّبة لكل التوقعات.. فقد ثبت أنَّ زوج المجنى عليها لم يكن بالقرية وقت ارتكاب الحادث.. كان بعيدًا عن البلد قبل ذلك بيومين فقد سافر إلى القاهرة لشراء جرار وبعض المستلزمات لأرضه.

تزايـدت الأسـئلة والاحتمـالات التـي لا يمكـن أن تتـرك للظنـون والاحتمالات دون أن نكون أمام يقين يغلق كافة أبواب الاحتمالات.

أليس من المحتمل أن يكون سفره إلى القاهرة من قبيـل التـدبير المحكـم للجريمة.. ليثبت وجوده في مكان آخـر ويكلـف أحـدًا مـن أعوانـه الأشـرار بارتكاب تلك الواقعة.

لم تقف تحريات الشرطة بحثًا وراء الزوج، بل تابعت تحرياتها حول مطلّقها.

حامت الشبهات حول مطلّقها، خصوصًا أنـه كـان متواجـدًا فى القريـة يـوم الحادث، وكان قد غادرها بعد طلاقه لزوجته بنـاء عـلى أوامـر زوجهـا الجديـد وتهديده وتوعده بالقتل إن ظلَّ يومًا بالقرية.. بل إنَّ مطلقها قد غادر القرية لـيس خوفًا من هذا التهديد -فحسب- وإنما لإحساسه أنَّه فقد كل شيء فى هذه القرية الظالمة فما عاد له غالٍ فيها يبكى عليه.. زوجته التى يحبها أكثر من نفسه أجبـره الطاغية على تطليقها.. وبات لا يستطيع العيش فى قريـة فقـد فيهـا محبوبتـه بـل والأقسى والأمر أنَّها تعيش بين أحضان رجل آخر اغتصـبها بجبروتـه واقتنصـها بأمواله بعد أن غرر بفكرها واحتال على مشاعرها بتلك الفرية الدنيئة التى أشـاعها بين أهل القرية وحفر فى ذهن الناس أنَّه قبض الثمن غدرًا بها، وهو من كـل ذلـك برىء فما قبض ثمنًا ولا باع حبه لها.. بل إنَّ أموال الدنيا كلها لا تساوى يومًا مـن أيام العذاب بل لحظة من الألم الذى حلَّ به وعانى من عذابه منذ أن فارقهـا.. لقـد فارقته السعادة.. واستسلم للهم والغم منذ أن تركها.. لقد بات وحيدًا فى الدنيا بعد أن ترك قريته وهجر أهله وذويه بعد أن أصبح «أضحوكة» فى أفواههم «ومسـخة»

أمام أعينهم.. أحسَّ فى عيون الناس بمـدى احتقـارهم لـه واسـتهزائهم لشخصـه واستهجانهم لفعلته.. أحسَّ بأنَّه لا عيش له وسطهم.. فقد ذبحوا رجولته ونحروا نخوته وكرامته بينهم وأنَّ عليه أن يرحل فى الظلام رحيلاً بلا عودة.

لكن ما الذى حدا به أن يعود رغم كل ما حدث؟ كان هذا هو السؤال الذى بادره وكيل النيابة المحقق به.

عجز عن تفسيره ولم يستطع تبريره خصوصًا أن الأدلة قويت ضده أمام هـذا العجز وانحسرت عن زوجها الحالى وبات هو صـاحب المصـلحة الوحيـدة فى ارتكاب الجريمة انتقامًا جماعيًا منها ومن زوجها الذى اغتصبها منه ومن الجنين الذى تحمله من هذا الوغد الشرير.. بل زاد من ضراوة الاتهام ما ثبت من وجود آثار مادة البنزين بأظافره أثبتها تحليل المعامل الكيماوية بعد قص وكيـل النيابـة لأظافره خصوصًا بعد سكب البنزين عليها وإشعال النار فيها.

أنكر الواقعة فى البداية وأصرَّ على الإنكار وأنَّ مادة البنـزين التـى عثـر على أثرها عالقة بأظافره كان نتيجة حمله لزجاجة بها بنزين يحتفظ بهـا ليشـعل بعض الحطب للتدفئة وسكب جزء منه لسرعة اشتعال النار بها..

وتساءل منتحبًا وهو يلطم خديه:

كيف يقتل أحبّ الناس فى الدنيا إليه.. لو أجمع أهل الأرض جميعًا عـلى قتلهـا لافتداها بحياته.. إنَّه يحبها حبًا جنونيًا.. لا حياة له ولا معنـى للحيـاة بـدونها.. فهواها مازال يملأ قلبه وصورتها لا تبارح عينيه.. والحب والكراهيـة ضـدان لا

يلتقيان.. وأكد أنَّه كان على استعداد أن يقدم حياته فداء لها وقربانًا لحبهما.

لكن ما لبث أن انهار عندما واجهته النيابة بأن جرمه مضاعف وإثمه لا يغتفر.. فلم يقتصر على قتله المجنى عليها فحسب بل قتل الجنين الذى تحمله في أحشائها.. وكان على وشك أن يطل على الحياة طفلاً.

انهار وقد غاص في بكاء هيستيرى عندما علم بأمر حملها وهو يهذى:

- لقد ضاع كل أمل لى.. لقد عدت للقرية لكى أتحسس أخبارها.. كنت على أمل أن يكون زواج البلطجى بها نزوة من نزواته الطائشة، وأنَّه لن يلبث فى أن يتخلَّى عنها كما كان يحدث مع غيرها.. بعد أن يحقق مآربه وينال غرضه منها.

لكن تصوره كان خيالاً محضًا.. اكتشف أنَّه كان يلهث وراء وهم.. كان حلمه سرابًا.. ما لبث أن تبدد على صخرة الحقيقة بعد أن علم بأنَّها كانت حاملاً.

وتحدث فى صوت خفيض:

- أنا قتلتها.

وناقشته النيابة فى كيفية تنفيذ الجريمة

فأجاب بصوت كسير:

- أنا قتلتها.. ألقيت عليها البنزين وولعت النار فيها.

قضت محكمة الجنايات عليه بالإعدام شنقًا.

كانت تلك هى أحداث القضية حسب ما نضحت به أوراقها.

تقدَّمت بمذكرة ضمنتها أسباب النقض جاء بها.

أنَّ المتهم «الطاعن» أنكر ثم اعترف فجأة وبلا مقدمات على نحو ينبئ أنَّه كان يائسًا من الدنيا.. رافضًا للحياة.. ومن المسلمات القانونية أنَّ الاعتراف الذى يعوّل عليه كدليل إثبات معتبر لابد أن يكون مطابقًا للواقع والحقيقة ومتفقًا مع الأدلة الفنية فى الدعوى، ولما كان المتهم قد انصبَّ اعترافه على أنَّ كل ما ارتكبه من فعل مادى هو سكب البنزين على المجنى عليها وإشعال النار بها حتى فارقت الحياة.. مما مفاده أنَّه أشعل النار بالمجنى عليها وهى على قيد الحياة.. وهو ما يجافى الثابت بتقرير الصفة التشريحية من أنَّ هناك اعتداءً بآلة صلبة على رأس المجنى عليها أحدث بها كسورًا تفتتية أدَّت إلى نزيف ضاغط على المخ كان سببًا للوفاة، وأنَّ الحروق التى بالجثة حروق غير حيوية «أى حدثت بعد الوفاة».. ومن ثم فإنَّ اعتراف المتهم بات متناقضًا تناقضًا يستعصى معه المواءمة مع الدليل الفني وما جاء بتقرير الصفة التشريحية غير مطابق لهذا الدليل مما يكون الحكم المطعون فيه وقد أخذ بهذا الاعتراف رغم مخالفته لما جاء بالدليل الفني مشوبًا بالخطأ في الإسناد مخالفًا للثابت بالأوراق، إذ اعتقد الحكم خطأ وهو ما لا أصل له في الأوراق أنَّ المحكوم عليه بسكبه البنزين على المجنى عليها قتلها، في حين أنَّ سبب الوفاة هو الاعتداء بآلة راضة على رأسها، ومن المسلمات القانونية أنَّ شرط التأثيم الذى يصلح أساسًا للإدانة أن يكون الاعتداء على إنسان حى فإذا ثبت أنَّ اعتداء أيًا كان نوعه أو جسامته قد وقع على

إنسان ميت لا تتوافر فيه أركان جريمة القتل.. ورتوبًا على ما سلف وكان البين أنَّ سبب الوفاة ليس الحروق وإنما سبب آخر وهو الاعتداء على رأس المجنى عليها بآلة صلبة راضة.. وهو ما لم يرد باعتراف المتهم ولا تكشف عنه الأوراق فإنَّ إدانة المتهم على نحو ما سلف دون بيان لعلاقة السببية بين فعله وسبب الوفاة يشوبه بالقصور فى التسبيب والخطأ فى الاسناد.

تم قبول الطعن وقضت المحكمة بنقض الحكم المطعون فيه وإعادة محاكمة المتهم مجددًا أمام دائرة أخرى غير التي أصدرته.

وجاء ميقات محاكمة المتهم مجددًا..

كانت المرة الأولى التي التقيت به.. كان شاردًا مهمومًا.. مشدوهًا.. حائرًا.. حزينًا.. كانت ملامح اليأس تكسو قسمات وجهه البائس اليائس من الحياة.. من الدنيا.. من كل الناس.. كان يردد أمامى أنَّه قنت من الحياة.. الموت أحبّ إلى نفسه من حياة تتسم بالذل والمهانة وفقد أعز الأحباب بعد أن انتزع القدر منه زوجته.. محبوبته أمام عينيه.. قسرًا وعلى يد ذلك البلطجى الذى أهان كرامته وقتل سمعته واعتباره في عيون القرية.. هل من السهل على نفسه نظرات الناس إليه وحكمهم بأنَّه نذل جبان بدلاً من أن يحكموا هذا الحكم على هذا الطاغية الذى انتزع زوجته.. واغتصب محبوبته منه.

وسالت الدموع من عينيه وهو يردد أنَّ أمنيته الوحيدة فى الحياة أن يعدم فورًا، فما عاد يطيق الحياة فى دنيا.. انعدمت فيها القيم وغابت عنها

المبادئ.. وضاعت فيها المثل، وأصبحت القوة هي القـانون والطغيـان هـو الدستور الحاكم.. وأضاف مستنكرًا:

- كيف غابت هذه الفكرة عنى؟ نعم كان لابد أن أقتله هو، فهو الجـانى الحقيقى الذى حطَّم حياتى، وأضاع آمالى فى الحياة.. ما ذنبها حتى أقتلها؟

كان حديثه مع نفسه – ومعى – أشبه بمن يهذى.

وأعدت سؤاله:

- ما وسائل الاعتداء على المجنى عليها؟

فأجاب والعصبية لا تفارق نظرات عينيه ولا نبرات صوته:

- أنا قتلتها.. أشعلت النار فيها.. مش برضه لقيتوا النار مولعـة فيهـا؟.. عاوزين منى إيه أكثر من كده؟

وأعدت سؤاله وأنا أطلب منه الهدوء والركون إلى السكينة والعقل:

- ألم تعتد عليها بأى وسيلة أخرى؟

فنظر إلىَّ مندهشًا وقد ازداد حدة

- ولَّعت فيها النار.. هو فيه أكثر من كده موت؟

وقلت له:

- انت لم تقتل أحدًا.. فيه سر انت مخبيه.. إيه هو؟ لازم أعرفه.. ضـرورى

تتكلم تقول الحقيقة.. اللى بتقوله كله كدب.. لا يمت بالحقيقة بأى صلة.

- فأشاح بوجهه عنى وآثر الصمت وقال والدموع تنساب على خديه.. وكأنه المطر فى يوم عاصف دون أن يحسَّ بها:

- أرجوك أنا عايز أموت

قالها ونبرات صوته.. تفصح ما بداخله من يأس ونفس محطَّمة رافضة الحياة مصممة على الموت.

فرجوته أن يثق بى وأن يفضى إلىَّ بالحقيقة إنَّه آثم في حق نفسه.. وهو ومن ينتحر سواء وجزاؤه بذلك عند الله عظيم وعقابه جهنم وبئس المصير خالدًا فيها أبدًا.

أيقظت كلمة انتحار ضميره النائم من غفوته وحرَّكت فيه الخوف من الله وعذابه إذا أصرَّ على كذبه الذى هو الانتحار بعينه.. وأنه بات قاب قوسين أو أدنى من أن يخرج ما كان مدفونًا فى أعماقه، حبيسًا في صدره..

وفجأة وبصوت ملؤه التأكيد والتصميم.. صاح:

أنا فعلا ما قتلتهاش.

واستطرد وقد ارتسمت صورة البراءة ناطقة في عينيه.

- أقتلها إزاى وهى روحى وحياتى.. أنا كنت عايش على أمل أن ييجى اليوم وتعرف الحقيقة.. تعرف إنى مظلوم وأن جوزها هو الظالم المفترى

الحقيقى وأنه حايسيبها بعد ما يأخذ اللى عاوزه منها وترجع لى تانى.

فبادرته مطمئنا بقولى:

- أنا مصدقك.. أمال إيه اللى حصل بالضبط؟

فأجاب والحسرة تملأ نبرات صوته.. المثقل بالأحزان.

- أنا جيت البلد متخفى عشان كان نفسى أشوفها.. أعرف إيه أخبارها.. قلت يمكن يكون سابها أو طلقها أو تقدر حبى ليها ونهرب ونسيب البلد.. وننسى الماضى..

وأضاف وهو يتنهُّد تنهيدة عميقة.. أفصح عما يسيطر على فكره..

أنا لو كنت عاوز أقتل كنت قتلته هو.

فبادرته متسائلاً:

- ألم تعتد عليها بالضرب بأية آلة؟

فأجاب:

- طبعا لأ.. أضرب نفسى إزاى؟ دى كانت كل أملى فى الحياة.

وأعدت سؤاله:

ما سبب العثور على آثار البنزين بين أظافرك؟!

أجاب بلا تردد أو تلعثم..

- يا بيه أنا زى ما قلت فى التحقيق.. البنزين ده أنا حطيته على حطب علشان يولع بسرعة عشان أتدفى ودى الحقيقة.

فعاجلته بسؤال آخر..

من الذى أشعل النار فى جثة المجنى عليها؟!

أجاب.. بعد أن أقسم مغلظا..

أنَّه لا يعرف عن مقتلها شيئًا.. كيف تم القتل.. من القاتل.. دافعه إلى القتل..

ثم انطلق بعد برهة من التفكير قائلاً:

مفيش غيره هوه اللى قتلها.. الغدر في طبعه واللى فيه طبع عمره ما يغيره.. هو اللى قتلها بعد ما حقق غرضه ووصل للى هو عايز يوصله.

وحانت ساعة المرافعة.

بدأت مرافعتى بطلب مناقشة الطبيب الشرعى استجلاء لكيفية قتل المجنى عليها على نحو واضح أمام الأسباب التي سبق أن حررتها لنقض القضية، وأسباب حكم النقض الذى أخذ بها وعادت القضية للمحاكمة من جديد على أساسه.

وبينما كانت القضية مؤجلة انتظارًا للأجل الذى ضربته المحكمة لحضور الطبيب الشرعى، فقد وقع الزلزال الذى كشف صدق دفاعى.. من أنَّ اعتراف المتهم غير حقيقى.. إنَّه كاذب في اعترافه.. إنَّه ليس القاتل..

فقد تم القبض على شاب بقرية هذا الفتوة يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا

إلا قليلاً.. كان قد تربَّص لهذا الفتوة بعد مقتل زوجته بسكين وانقض عليه وذبحه بعد أن نجح فى الإجهاز عليه.

وكانت قمة المفاجأة..

فقد اعترف الشاب أنَّه هو قاتل زوجة الفتوة، وأنَّ طليقها لم يرتكب الجريمة، وقد آثر أن يقتلها وهى حامل حتى يعذب الفتوة طيلة حياته بعد حرمانه من أول ابن له تمناه طيلة حياته وأصبح على شفا مولده وقد شارف هو الخمسين من عمره.

واستطرد الشاب فى اعترافه موضحًا أنَّ هذا الفتوة قد قتل أمه -من قبل- بعد أن اغتصبها داخل مسكنها.. كان وقتها طفلاً صغيرًا وشاهد المأساة.. احتبسها داخل قلبه الصغير.. ظلَّ وحش الانتقام يقطن داخله يكبر معه كلما كبر سنة.. حتى جاء اليوم الذى هداه شيطان الانتقام فى أن يثأر لأمه.. ينتقم لشرفها من زوجة هذا الفتوة.

وأضاف.. أنَّه رأى الموت بعينه وهو مازال طفلاً لا يعرف معنى الحياة أو الموت عندما فتك هذا الخنزير بأمه، معتديًا على عرضها، سالبًا شرفها ثم قتلها.. دفنًا لجريمته..

أدرك منذ طفولته معنى الموت.. الذى رآه أمام عينيه في شخص أمه.. كان لا ينام الليل أو النهار.. فارق النوم جفونه.. كان يستيقظ صارخًا مذعورًا عندما تلاحقه صورة أمه.. ذلك «الكابوس» المزعج الذى كان يطارد عينيه.. صوت

أمه التى كان يراها بالصوت والصورة وهى تغتصب وتطلب منه الانتقام والثأر لشرفها ودمها.. وعندما تزوَّج هذا الفتوة من السيدة بعد تطليقها رأى الجميع يباركون هذا الزواج ويتسابقون لتهنئته.. ويصدقون كذبته من أنَّ مطلقها قد قبض الثمن.. وعندما علم أنَّ زوجة الفتوة حامل، وأنَّ السعادة تغمره انتظارًا لمولوده الأول قرر أن يبدد هذه السعادة.. أن يعذبه نفسيًا.. أن يقضى على أمله فى الحياة.. فقد كانت زوجته كل شىء له فيها.. كان ينتظر مولوده بفارغ الصبر.. لذلك قرر أن يحرق قلبه ويقضى على كل آماله، فاستدرج السيدة إلى المكان المهجور بعد أن أخفى الجاموسة التي كانت ترعاها في العشة.. وكان قد أحضر وأعد فيها «البنزين» وانهال عليها بالعصا على رأسها حتى سقطت على الأرض وتأكد من وفاتها، ثم سكب عليها البنزين، وأشعل فيها النار، كانت شهوة ولذة الانتقام تملك عليه كل فكره، كان مغيبًا طاردًا من عقله وضميره كل شىء، وقد احتل مكانهما حقده لهذا الرجل ورغبته في الانتقام منه.. وعندما علم أنَّ طليقها قد تم القبض عليه بتهمة قتلها ورأى الفتوة ينهار كالجبل وتتساقط حجارته وركبه الهم والحزين واستسلم للكآبة.. اعتقد أنَّ خطته –فى تحطيمه– قد نجحت وأنَّ قتله لزوجته وللجنين الذى بين أحشائها قد أذلَّ كبرياءه وبدَّد أمله وقضى على أحلامه فى السعادة.. وأن كأس العذاب التى تجرع منها منذ طفولته قد آن الأوان لأن يشرب منها هذا الفتوة.. ويذوق مرارته ويتجرَّع منها كما تجرع هو منها من قبل.

لكن حزن الفتوة لم يدم طويلاً فقد تماسك وعاد لجبروته من جديد..

عاد إلى مجونه وفجره ونزواته التى لا تنقطع.

وأضاف الشاب قائلاً:

- أدركت أنَّ انتقامى لم يصب منه مقتلاً وأنَّ دائرة الانتقام لم تقفل بعد.. صممت على الخلاص منه تطهيرًا للمجتمع من دنسه وحماية للأبرياء من شروره فقتلته.. ولكن الذى كشف الحقيقة هو «بطاقتى» التى سقطت منى فى مكان الحادث..

لم يلبث أن أصيب الشاب –بعد اعترافه– بحالة من الهيستيريا وانعدام الوزن أدخل على إثرها مستشفى الأمراض العقلية، فقد طار صوابه وجنَّ جنونه من هول ما مرَّ به من آلام وأحزان منذ طفولته طغت على فكره فأفقدته العقل والإدراك.

أما الزوج فقد خرج إلى الحياة طليقًا، ونجا من حبل المشنقة وعاد إلى قريته بعد أن دقت أجراس الحقيقة.. لكنَّه عاد كسيرًا وحيدًا محطمًا، وقد هدَّه اليأس فباعد بينه وبين الأمل فى المستقبل بعد أن فقد زوجته وضاع معها حبه.. كانت تلك الصورة التى ارتسمت أمام عينى ورسخت فى مخيلتى.. وأنا أصافحه مودعًا ومهنئًا له بالبراءة وأحثُّه بأن يطوى صفحة الماضى.. ويبدأ من جديد صفحة جديدة.. ملؤها الأمل..

ومرت السنون.. كانت عشر سنوات أو أكثر بقليل عندما أخبرنى مدير المكتب أنَّ موكلاً جديدًا قد حضر لتوكيل المكتب فى قضية جديدة وبصحبته صديق يدعى أنَّه عميل قديم بالمكتب ويرغب فى مقابلتى شخصيًا

قبل الحديث مع الوكيل..

تم اللقاء.. إنَّه الرجل نفسه.. ويقدم لى ولدين.. والفرحة فى نبـرات صـوته.. وهو يقدمهما لى.. قائلاً: سلموا على عمكم ده له الفضل عليَّ بعد ربنا..

وقصَّ عليَّ قصته بعد أن عاد إلى بلدتـه وكيـف أنَّ كلمـاتى ونصـيحتى لـه كانت نغمة من الأمل تسرى فى جسده.. وملأت عليه فكره.. وتزوَّج من فتـاة أخرى.. أحبَّها وأحبته وأنجب منها ولديه..

- وعندما سألته.. عن حبه الأول..

أجاب على الفور.. وبلا تردد:

- كان ماضيًا.. كانت نصيحتك لى في أن أترك الماضى وراء ظهرى وأنظـر بعين الأمل للمستقبل هي الدافع في إصرارى على نسيان هذا الماضى الأليم.

وقال بلهجته الصعيدية:

حقًا.. اليأس هو القاتـل الحقيقـى للإنسـان.. والأمـل هـو القاتـل لهـذا اليأس.. وقد زرعت في نفسى الأمل الذى قتلت به يأس الماضى وسرت على طريق الأمل. أنهى حديثه لنبدأ في الحديث عن القضية الجديدة...

الفهرس